

يعقوب
من وحي القرآن والسنة

تأليف

أ د عقيل حسين عقيل

القاهرة

2017م

المحتويات

4.....	المقدمة
29	يعقوب
29	من وحي القرآن
112	صفات النبي يعقوب
112	1 . بشرى:
113	2 . نافلة:
114	3 . مجتبي بالنعمة:
117	4 - ذو علم:
122	5 . نبي:
124	6 . صالح:
126	7 . ذو أيدي وإبصار:
127	8 . من الأخيار:
129	9 - إمام:
136	10 . كظيم:
141	11 . مستغفر:
160	12 . صابر:
175	فوائد الصبر:

193 13 . مهدي هادٍ:
199 - الهادي وأدوات الهداية الدلالية:
202 الهداية التأملية في الكون وفي النفس:
250 14 . بصير:
293 الخليفة البصير:
296 يعقوب من السنّة:
359 زواج يعقوب من ابنتي خاله:
360 موقف يعقوب من أبنائه:
388 مدح الله ليعقوب:
393 يعقوب والدعاء المستجاب:
396 الامتناع والتحريم:
397 وصيّة يعقوب لبنيه:
398 دخول يعقوب أرض مصر:
399 دخول اليهود فلسطين:
400 يعقوب لا يعرف اليأس:
404 حديث يعقوب مع ملك الموت:

المقدمة

بسم الله الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على محمد وعلى جميع الأنبياء والمرسلين.

وبعد:

ما من شك أنّ البحث في قصة يعقوب عليه الصلاة والسلام هي مثير من عدة جوانب، ذلك لأنّ قصص الأنبياء هي أحسن القصص {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ} 1، ومن هنا؛ فأحسن القصص تستوجب البحث في نوع الحسن وطبيعته وأسلوبه ومضامينه.

ونعتقد أنّ وصف الله عزّ وجلّ لأحسن القصص، يوجب أن يكون البحث منصباً بكلّ موضوعية على إظهار الحقائق، ولذلك فلا يمكن للهوى أن يكون ماثراً على ما نبذله من جهد موضوعي، الذي لا يمكن أن يتأتى بالوصف والثناء، وإتّما بالتحليل والبحث المعمّق.

ومن ثمّ، نقول: إنّ قراءة أحسن القصص أثارت فينا الكثير من التساؤلات التي دفعتنا بقوّتها تجاه البحث فيها، وخاصةً تجاه ذلك الهمّ الذي فيه ما فيه من المعاني والدلائل الدالة على أهمية التمسك بالفضائل الخيرة والقيم الحميدة.

وفي هذا المجال لا بدّ من التنويه إلى أنّ البحث في قصص الأنبياء يتأثر بشكلٍ من الاشكال بما يسمى الإسرائيليات تلك الإخبار التي وردت فيها مغالطات كبيرة بحقّ أنبياء الله ورسله، لذلك ومن هذا

¹ يوسف 3.

المنطلق آثرنا ترك كلّ هذه الأخبار واعتمدنا النصّ القرآني والسنة الشريفة مصدرا أساسا في كلّ مراحل البحث ومستوياته، وهذا كما نعتقد أقوى وأوثق للبحث.

النبي يعقوب عليه الصّلاة والسّلام هو الأب والنبي الأسبق والمعاصر لرسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، وهو نبي للابن ومعلمه العقيدة الصحيحة ومنبئه باجتماعه الله له، ومصدرا من مصادر القيم والسلوكيات عند يوسف صلّى الله عليه وسلّم، ثمّ هو من بعد ذلك المصدّق برسالة يوسف صلّى الله عليه وسلّم، والشاهد على طاعة إخوته له رسولا نبيا.

وتحدثنا بالتفصيل المطلوب والموجب عن سيدنا يعقوب، وركزنا الحديث على التعريف به وعلى صفاته، بينما تركنا قصته تنساب في أثناء الحديث عن قصة سيدنا يوسف وكما أراد الله عزّ وجلّ، أن تكون القصة لسيدنا يوسف وليست لسيدنا يعقوب، لأنّ المولى عزّ وجلّ أراد أن تكون قصة يوسف درسا من الدروس العظيمة التي يستقى منها كثير العبر.

نقول: إنّ هذا المدخل إنّما هو باب الدخول إلى مستويات التحليل فيما بعد ورباطا أساسيا للأحكام التي ستصدر عن التحليلات المتعددة أثناء البحث، فهي بمثابة الثوابت التي يركز عليها هذا المؤلّف، ومن خلالها أظهرنا صفات يعقوب ما كان يمر على البعض دون وقفة مع دلالة الصفة ومضامينها.

وبعد ذلك أخذنا الاهتمام إلى ميادين القصة الأخرى، فتحدثنا عن تحليل العلاقات الاجتماعية والعقدية ليعقوب عليه الصّلاة والسّلام مع يوسف وأخوته الكرام.

وقد مدح الله تعالى يعقوب عليه السلام فقال: {وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 2، وذلك لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: {وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} 3، وهنا أثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين 4 ولذا فقلوه (وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ) هو علم من علم العليم الذي يعلم بالشيء وحاله وما يترتب عليه والأسرار التي من ورائه إنّه مصدر العلم الذي تستنير به العقول وتطمئن به القلوب التي في الصدور.

ولأنّ الله هو العالم المطلق فلا تخفي عليه خافية، أمّا العلماء في دائرة النسبية كما هو حال يعقوب عليه السلام فهم في كثير من الأحيان لا يعلمون إلاّ بما شاء الله. ولذا فالعالم يؤتي العلم ولم يؤت إليه علما، والمؤمنون هم الذين يعلمون أنّ الله تعالى يعلم السرّ والجهر، قال تعالى: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} 5.

العالم هو الذي يعلم بالشيء وما يترتب عليه، وغير العالم لا يعلم عن ذلك شيئا، فالذين كتب عليهم القتال لا يرون في القتال إلاّ كرها لما يسببه من كوارث في الحياة الدنيا، ولكن لو نظروا إلى ما سيترتب عليه لمن يقاتل في سبيل الله والدفاع عن الشرف والكرامة وعن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لعرفوا أنّ القتال على الحقّ

² يوسف 68.

³ يوسف 67.

⁴ الإيمان بالقدر، ص 224، بتقييم الشاملة آليا.

⁵ البقرة 77.

خيرا كثيرا، ولكن الذين لا يعلمون بالمرتب على القتال في سبيل
إحقاق الحق قد يتوقفون عند الكره الذي كان سببه القتال، قال
تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا
وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا
تَعْلَمُونَ} 6.

إذا كلّمنا كان الإنسان في دائرة الممكن عالما كما كان يعقوب
عالما كان على بينة، وكلّمنا كان غير عالم بما يجري كان في حاجة لمن
يعلم ليستنير بعلمه في نهج العمل وتحقيق السلام، ولذا لا يستوي
الذين يعلمون والذين لا يعلمون قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ
يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} 7.

وعلى المستوى البشري لو تساءلنا:

هل يمكن لنا أن نعرف المفسد من المصلح قبل أن نتاح أمامهم
وأمامنا فرص للعمل التي تمكّنتنا من إصدار الحكم بموضوعية؟
بطبيعة الحال على المستوى البشري لا يمكن.

إذا هذه الإجابة مقصورة على البشر، وذلك لأنّ الله العالم يعلم
بالإفساد والمفسدين قبل وقوع أفعال الفساد وهكذا يعلم بالمصلح
وحاله قبل وقوع فعل الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ
الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 8.

⁶ البقرة 216.

⁷ الزمر 9.

⁸ البقرة 220.

وعليه فالعالم الحقّ الذي يجب أن يوصف بالعالم هو من يعلم بالشيء قبل وقوعه سواء أكان ذلك الشيء فعل إصلاحيا أم أكان فعل إفساديا.

ومع أنّ الأشياء موجودة ومبررات ظهورها وتنوعها موجودة إلا أنّ العلم بما قبل وقوعها وقبل امتداد مؤشراتها مجهولا بالنسبة للبشر، ولكن الأمر للعالم تعالى معلوما مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾⁹. فهوى سبحانه وتعالى يعلم أمر السماء وأمر الأرض وأمر الحياة وأمر الموت وأمر البعث وأمر الحساب وأمر التواب والعقاب والجنة والنار وهو بكل شيء عليم.

نفس الإنسان تركيبها معقد فهي تتلوّن وتتعدد من حالة إلى أخرى وفقا للموضوع والظرف النفسي والزماني والمكاني، ولأن ما في النفس يعد سرا من الأسرار الخلقية إلا أن النفس وما تُخفيه الله يعلمه، ولأنّ الله العالم بأسرار الأنفس فهو لا شيئا مخفيا عنه ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعلم بهذا العلم (علم العالم بما تكنه الأنفس) فهو إذا علم بأنّ العالم يعلم حاله فلا داعي لأن يجهل أمر علم العالم بحاله (ما في نفسه) ليكون صادقا وإلا سينكشف أمره ولهذا العالم يحذرنا مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ حَلِيمٌ﴾¹⁰، ومع أنّ الله يعلم ما في النفس فهو غفورا رحيفا لمن استغفره وتاب إليه واحدا واحدا لا شريك له إنه العالم ما في أنفسنا، ومن لم يحذر الله تعالى سيجد نفسه من النادمين الذين هم على مستويين:

⁹ البقرة 238.

¹⁰ البقرة 235.

المستوى الأول: غروري إلى الحياة الآخرة: الذين غرّتهم الحياة الدنيا بما فيها من مغريات وملذات في مقابل إشباع الشهوة دون اعتبار للنواهي والأوامر الربانية، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعَضَ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَىٰ أَنفُسِنَا وَعَرَّهْتُمْ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} 11.

بدون شكّ للظلم جنود وللعدل جنود ولهذا يولي كلّ بعض بعضه الظالم يتولى الظالمين (المفسدين في الأرض) والعاقل يتولى المصلحين فيها، ولهذا لا خير من ظالم يتولى ظالمين (المفسدين) فالظالمون بما قدمت أيديهم يجازون في الدارين.

النبي يعقوب عليه السّلام مهدي هادي، وهكذا الأنبياء والمرسلين على الهدى لأنهم مكلفون من الهادي عزّ وجلّ، والهادي سبحانه هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقرّوا برّبوبيّته وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده، وهو الذي أرسل الرّسل للهداية، فهدى كلّ نبي أو رسول إنما هو هدى الله، ومن هنا كان يعقوب عليه الصّلاة والسّلام مهديا هاديا مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نُجَزِّي الْمُحْسِنِينَ} 12.

ويعقوب مهدي في:

11 الأنعام 129، 130.

12 - الأنعام 84.

العقيدة.

القول.

السلوك.

وقوله: كلاًّ هدينا يعني: أي كلّ هؤلاء هديناهم يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وفائدة ذكر هديهما التّنويه بإسحاق ويعقوب، وأتّهما نبيان نالا هدى الله كهّدّيه إبراهيم.

وهدى يعقوب لم يكن لذاته بمعنى: أنّ الله هداه ليكون مهتديا، بل هداه ليكون هاديا لنفسه ولغيره، وإلا ما فائدة الهدى إذ لم يظهر بعد العقيدة في السلوك ليكون أسوة.

هنا نتساءل:

هل يكون الهدى بالتبليغ فقط؟

أم يكون بوسائل أخرى؟

للإجابة عن هذه التساؤل نقف مع أنواع الهداية وهي:

1- هداية دلالة.

بمعنى: أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهتدوا ووهبهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالا ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2 - هداية معونة: بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3 - هداية تسديد: للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى

الصحيح

- هداية تأييد: للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

5- هداية الإئتساء؛ بمعنى: أن يأتي الإنسان بغيره من المهتدين

فيصبح مهتديا.

ويعقوب عليه الصلّاة والسّلام كان مهتديا بكلّ هذه الآن واع

من الهداية لأنّه من المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ

وهداهم.

هنا يأتي التساؤل:

فبعد أن عرفنا بهداية يعقوب، فكيف يكون هاديا بدوره؟

هذا التساؤل الإجابة عليه تستدعي عدة أمور منها:

نبوة يعقوب.

أسوة يعقوب.

بيت يعقوب.

سلوك يعقوب.

نقول: إنّ الأنبياء والرّسل بما جاؤوا به من الحقّ المبين لا شكّ

أنّهم هداة للحقّ، وهذا وصفهم عند أصحاب اليقين من المؤمنين،

وكذلك عند العقلاء من غيرهم، فمن لا ينظر إلى هؤلاء على أنّهم

أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم ليس له بدّ إلا أن ينظر

إلى سلوك الإصلاح فيسميهم مصلحين والمصلح هاد.

ولو نظرنا في أسوة يعقوب وبيته يظهر لنا أنّ أسوته كان إبراهيم وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام وهما هداة مهتدون.

أمّا سلوك يعقوب المتمثل في سلوكه مع أبناء عقوه بما يكره من مخالفة الحقّ فيدل ولا شك دلالة واضحة على أنّ يعقوب هاد مهتدٍ.

وعليه فإنّ يعقوب عليه السّلام كان هاديا بهداية الله الهادي الذي استمد صفة الهداية منه، والهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ﴾¹³ وهو منزل نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم حتى لا يضلون وإن ضل بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضل بعد ذلك كان من الضالين.

ولأن الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب.

وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثل شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هدي، فهو المنزه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

¹³ الإسراء 97.

والهادي من أسماء الله عز وجل قال: {قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ
الْهُدَىٰ وَأْمُرْنَا لِنُسَلِّمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} {14، أي الصراط الذي دعا إليه
هو طريق الحق وقوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} {15، أي إِنَّ عَلَيْنَا أَنْ
نُبَيِّنَ طَرِيقَ الْهُدَىٰ مِنْ طَرِيقِ الضَّلَالِ.

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بصَّر عباده
وعرَّفهم طريقَ معرفته حتى أَقْرُوا بِرَبَّوِيَّتِهِ وَهَدَىٰ كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَىٰ مَا لَا يَبْدُ
له منه في بقاءه ودوام وجوده، وهذا لأن هداية كل مخلوق لبقائه
ولدوام وجوده، وهذا هو المعنى الذي يدور عليه بحثنا في أسماء الله
الحسنى ودور الخليفة المتخلف بأسمائه، لأن كل ما في ملك الله عبيد له
كرها وطوعا، وعليه فإن الهادي سبحانه وتعالى تكرم وتفضل فهدانا
إلى الصراط المستقيم، وهو سبحانه وتعالى فعل ذلك جودا وكرما منه،
ومن استجاب لهديته فقد عرف طريق البقاء الأبدي، وضمن لنفسه
دوام الوجود في جنة الخلد هداية من الله الهادي.

والله خلق خلقا من خلقه جبلهم على الطاعة، فهداية هؤلاء
هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير،
قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ
الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} {16، فيسبح لله كل ما في السماوات السبع،
وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعا وكرها، فهو (الملك
القدوس) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في
السماوات والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كل ما
يضيف إليه المشركون به ويصفونه به ما ليس من صفاته (العزير)

¹⁴ البقرة 120.

¹⁵ الليل 12.

¹⁶ الجمعة، 1

الشديد في انتقامه من أعدائه (الحكيم) في تدبيره لأمر خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

الهادي هو الذي أرسل الرُّسُل للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} 17 وحب العمى على الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة.

3- هداية تسديد.

4- هداية تأييد.

وعليه فإنَّ النبي يعقوب لا يعرف اليأس ولا القنوط؛ فالقنوط واليأس متقاربان، وكلاهما فيه استبعادٌ لرحمة الله عزَّ وجلَّ وسوءُ ظنٍّ بالله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى على لسانه نبيه يعقوب عليه السلام: {إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} 18، أمَّا المؤمنون فلا ييأسون من روح الله مهما بلغ بهم الكرب والشدة؛ لعلمهم بالله عزَّ وجلَّ وأسمائه وصفاته، وقُرب فرجه، وقُرب رحمته من

¹⁷ فصلت، 17

¹⁸ يوسف 87.

عباده؛ فهم لا يأسون من رُوح الله مهما اشتدت بهم الخُطوب، وضاق بهم الحال. بل كلما اشتد الخطب عظم رجاؤهم بالله. وموافقهم في هذا الأمر معروفة، كموقف يعقوب لَمَّا فقد أولاده الثلاثة، وموقف أيوب عليه السَّلام الذي بلغ منه الضُّرُّ مبلغاً شديداً، لم يأسوا من رحمة الله. وموقف محمَّد عليه الصَّلَاة والسَّلام لَمَّا أُخْرِجَ هو وصاحبه أبو بكر يوم الهجرة واختفيا في الغار، وجاء المشركون في طلبهما، ووقفوا على الغار والرَّسول عليه الصَّلَاة والسَّلام وأبو بكر تحت أقدامهم، يقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، قال: "يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟ فأعمى الله أبصارهم ولم يروا رسول الله وصاحبه، كما قال تعالى {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 19 ولَمَّا خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، وردَّوا عليه رَدًّا قبيحاً، وأغروا عبيدهم وسفاهم برميهِ بالحجارة، هو ومولاه زيد بن حارثة؛ فرجع وأهل مكة كلَّهم أعداء له؛ فجاء من الطائف وقد قابله أسوأ مقابلة، وأهل مكة -أيضاً- خرج منهم لشدَّة أذاهم، فقال له مولاه زيد بن حارثة: يا رسول الله، كيف ترجع إليهم وهم قد أخرجوك، قال: "يا زيد، إن الله جاعلٌ لِمَا ترى فرجاً ومخرِجاً رواه عبد الرزاق" عبد الرزاق بن هَمَّام الصنعاني، الإمام الجليل، شيخ العلماء والمحدِّثين، روى عنه: الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويته، وغيرهما من كبار الأئمة" 20.

¹⁹ التوبة 40.

²⁰ إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 2 ص 76.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السّلام، لما أشدّت به الأمر، وتأزّم الحال بفرّاق بنيه؛ عظم رجاءه بالله وطمعه برحمته، وقال لبنيه الحاضرين عنده: { يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } 21. وقال: { فَصَبِّرْ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } 22.

وفي هذا الشأن قال تعالى: { يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } 23.

وقد عدّ النبي عليه الصّلاة والسّلام اليأس من روح الله من الكبائر؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما، أنّ رسول الله عليه الصّلاة والسّلام سئل عن الكبائر؟ فقال: "الإشراك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله". وعن ابن مسعود؛ قال: "أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله؛ لأنّ القنوط من رحمة الله سوء ظن بالله، وجهل بسعة رحمته ومغفرته، والأمن من مكر الله جهل بالله وبقدرته وثقة بالنفس، وإعجاب بها، وفي ذلك تنبيه على أن يكون العبد دائما بين الخوف والرّجاء، فإذا خاف؛ فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله، وإذا رجا؛ فلا يتمادى به الرّجاء حتى يأمن العقوبة. وكان بعض السلف يستحبون للعبد أن يقوي في حال الصحة جانب الخوف، وفي حالة المرض وعند الموت جانب الرّجاء؛ فتوازن القلب بين الخوف

²¹ يوسف 87.

²² يوسف 83.

²³ الزمر 53.

والرجاء يدفع على العمل الصالح والبعد عن المعاصي والتوبة من الذنوب، أمّا إذا اختل توازن القلب، فمال إلى جانب واحد؛ فإنّ هذا ممّا يعطل حركة العمل، ويعرقل سبيل التوبة، ويوقع الهلاك"24.

ولأنّ يعقوب أب متسامح وعفو فعندما قال له بنيه استغفر لنا: استغفر لهم كما وعدهم: قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ}25. وهكذا هي لغة المحبة تتبادل بين الأبناء والأب، حيث قال يعقوب لبنيه: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوْسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ}26. أي أنّ يعقوب متوكّل على الله وهو المستعان، {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ}27، وقد يظن البعض أن الاسم ورد مطلقاً فيما رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما قال له النبي عليه الصلّاة والسّلام عن عثمان رضي الله عنه: "افتح له وبتّره بالجنّة على بلوى تصيبه؛ فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان". والأمر ليس كذلك لأمر منها: أنّ الإطلاق في المستعان ليس من كلام النبي صلّى الله عليه وسلّم، فقد دار الأمر بين الصّحابين. ومنها أنّ المقصود هو طلب عثمان رضي الله عنه الاستعانة والصّبر على إنجاز مقتضى الوعد أخذاً من قول يعقوب عليه السّلام: والله المستعان. ولذلك شكّ أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في قول عثمان رضي الله عنه هل قال: الله المستعان. أم طلب الصّبر من الله؟

24 الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، ص 72.

25 يوسف 97، 98.

26 يوسف 87.

27 يوسف 18.

ففي رواية مسلم عنه أنه قال: "فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال: ففتحت وبشّرته بالجنة، قال: وقلت الذي قال صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم صبرا أو الله المستعان». وفي رواية أحمد: «اللهم صبرا وعلى الله الشكران»

إنه يعقوب نبي الله عليه الصلاة والسلام خليفة الله الذي استمدّ صفاته من صفات الوارث.

. وما أنّ الوارث جعل في الأرض خليفة، ألا يكون له الحقّ في حمل الأمانة؟

نعم له الحقّ في حملها، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث المطلق الذي يرث الخليفة).

. ومتى تكون الوراثه؟

. عندما يكون المورث حقّ.

. ومن الذي يرث الحقّ؟

. لا يرث الحقّ إلا الحقّ.

. وأيها اسبق الوارث أم الموروث؟

. الوارث أولا وآخرا.

. كيف يكون أولا وآخرا؟

. أولا لأنه السابق على كلّ سابق. قال تعالى: {وَمَا خُلِقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَحِ

الصَّفْحَ الْجَمِيلِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ {28}. وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {29}.

. وآخر لأنه الحي الذي لا يموت.

. إنه الحقّ {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} 30 تفتى الخلائق ويبقى الملك

لله.

. وعليه، لا يرث الخليفة شيئاً إلا بالحقّ.

. نعم سيكون الخليفة فيما أتاه الله من النبوة والحكمة والعلم والشروة مستخلفاً بالوراثة، ومع أنّه مورث نسبياً فيما أتاه الله إلا أنه لم يورث بالمطلق في أمر الموت والحياة.

. ولكن للخليفة بداية ونهاية.

. إنه الحقّ، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء ما يملك

المالك، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثاً إلا مالكة بالمطلق لا إله إلا هو.

²⁸ الحجر 85.

²⁹ يس 77 - 83.

³⁰ الحديد 3.

وبناءً عليه، فكل ميراث هو وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قال الإمام الغزالي: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملك" 31.

الوارث هو المالك الأوحد وهو الأوّل والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، وهو الباقي الذي يرث ما خلق. فلو لم يكن مالكا ما ورث، ولو لم يكن وارثا ما خلق، ولو لم يكن باقيا ما كان وارثا سبحانه.

والوارث الأوحد هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله الواحد الأحد الأول بلا بداية والآخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلة نسب بأي مخلوق، وكيف تربطه صلة بمخلوق؟! وهو جلّ وعلا خالقه.

إنّ الصلة لا تتعدى أن الخلق جميعاً عباد الله سبحانه وتعالى لأنّه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول الله تعالى عن صفته الذاتية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 32، فلا توجد بين الله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأبعاد، إذا فليس لديه سبحانه وتعالى ميراث ورثه من أحد ولا يستحق أحد أن يرثه لأنّه الحي القيوم الدائم الباقي، وورد في تفسير قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أن قريشا قالوا للنبي صلّى الله عليه وسلّم: صِفْ لنا ربّك الذي تعبدّه وتدعوننا إليه ما هو؟

31 محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى، الإسكندرية، 1996، ص 92.

32 الإخلاص 1. 4.

فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ) قل يا محمد للكفار إن ربي الذي أعبده {هُوَ اللهُ أَحَدٌ} فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له، ثم قال عز وجل: (الله الصمد)، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم و(الصمد) السيد الذي انتهى سؤدده، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: الصمد الدائم، وقال قتادة الصمد الباقي، ويقال الكافي وقال محمد بن كعب القرظي الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويقال: الصمد التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويصمد إليه في الحوائج ثم قال عز وجل (لَمْ يَلِدْ) لم يكن له ولد يرث ملكه. (وَلَمْ يُولَدْ) لم يكن له والد يرث عنه ملكه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه³³.

الوارث: هو المالك، أي لو لم يكن مالكا ما كان وارثا، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه، حيث لا وارث له إلا هو، قال تعالى: {رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 34. فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه، يبقى من بعدهم الملك الذي خلقوا منه وخلق لهم وخلق من قبلهم سابق عليهم، فبعد الموت لمن يكون الملك؟

³³ بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 449.

³⁴ غافر 15، 16.

انتقل يعقوب عليه السّلام بأولاده من بادية فلسطين إلى مصر بعد أن مكّن الله ليوسف عليه السّلام في أرض مصر وصار على خزائنها، أرسل إلى أبيه وأهله جميعاً أن يأتوا إليه، فأقبل يعقوب عليه السّلام بأولاده وأهله جميعاً إلى مصر واستوطنوها، ويذكر اليهود في كتابهم أنّ عدد أنفـس بني إسرائيل حين دخلوا مصر سبعون نفساً. وكانوا شعباً مؤمناً بين وثنيين، فاستقلوا بناحية من الأرض أعطاهم إيّاها فرعون مصر، فعاشوا عيشة طيبة زمن يوسف عليه السّلام. وبعد وفاة يوسف عليه السّلام بزمن الله أعلم بطوله تغيّر الحال على بني إسرائيل وانقلب عليهم الفراعنة طغياناً وعتوّاً واستضعافاً لبني إسرائيل، فاستعبدوهم وأذلّوهم، وبلغ بهم الحال ما ذكر الله عزّ وجلّ في قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} 35.

فكان الفراعنة يقتلون الذكور ويستحيون الإناث، واستمرّت هذه المحنة وهذا البلاء عليهم زمناً طويلاً، إلى أن بعث الله عزّ وجلّ موسى عليه السّلام، فدعا فرعون إلى الإيمان بالله، وأن يترك دعوة التّاس إلى عبادة نفسه، وأن يرفع العذاب عن بني إسرائيل، ويسمح لهم بالخروج من مصر؛ فأبى فرعون ذلك بغطرسة وكبر، واستمرّ في تعذيب بني إسرائيل كما قال عزّ وجلّ: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ قَالَ سُنُقِتِلْ أَبْنَاءَهُمْ

³⁵ القصص 4 . 6.

وَنَسْتَخِيي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ}36؛ فأخذ الله تعالى فرعون وقومه بالجدب وهلاك الزروع، وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ولكنهم استكبروا وجحدوا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام بعد ذلك بالخروج ببني إسرائيل "37.

وصفات يعقوب الخيرة والحميد كثيره وعلى رأسها أنه بصيرا، مصداقا لقوله تعالى: {اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَأَلْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا}38.

لما عرف يوسف إخوته سألمهم عن أبيه فقالوا ذهب عيناه، فأعطاهم قميصه، قال المحققون: إنما عرف أنّ إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك، لأنّ العقل لا يدلّ عليه.

ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه الصلّاة والسّلام علم أنّ أباه ما صار أعمى إلا أنّه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا ألقى عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر ما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى، وقوله: (يَأْتِ بِصِيرًا) أي يصير بصيرا ويشهد له39.

فيعقوب أتى بصيرا، ولم يقل رجع بصيرا، ما أوجب أن تكون صفة جديد وليست قديمة في يعقوب، وهذا يعني أن بصيرة جديدة

³⁶ الأعراف 127.

³⁷ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 47.

³⁸ - يوسف 93.

³⁹ - تفسير الرازي، ج 9، ص 108.

ستضاف إلى بصر يعقوب هي أن نبوة يوسف عليه الصلّاة والسّلام بدأت ودليلها البيّنات التي أتى بها يوسف عليه الصلّاة والسّلام مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} 40.

وعليه فالبصير هو الله الذي مدّ يعقوب بالبصر والبصيرة؛ وهو الذي جعل يعقوب بصيرا بعد أن فقد حاسة البصر، ولهذا استمد يعقوب صفته الكريمة من البصير المطلق. والبصير هو: "الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفي ما يكون فيها فيرى ديبب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيرت العقول في عظمتها، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمتها، ولطفه، وخبرته بالغيب، والشهادة، والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلبات الأجفان وحركات الجنان" 41.

البصير "هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات يرى ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق السماوات السبع، بصير بأعمال العباد لا يخفي عليه منها شيء" 42.

40 - غافر 34.

41 شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 45.

42 الوجيز في أسماء الله، ج 1، ص 11.

الحمد لله المنزه عما يخطر بالبال أو يتوهم في الفكر والخيال المحتجب برداء العز والجلال { لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ }⁴³ تحيرت العقول في حقيقة ذاته وتخبطت الأفهام في أسمائه وصفاته واندهشت الأبصار في جلال حضرته { لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ }⁴⁴.

البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى، وإبصاره أيضا منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان ومقدس عن أن يرجع إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن ذلك من التغيير والتأثر المقتضي للحدثان وإذا نزه عن ذلك كان البصر في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات وذلك أوضح وأجلى ما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر المرئيات.

حظ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ولكنه ضعيف قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب بل يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر، وإنما حظّه الديني منه أمران، أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت السماوات فلا يكون نظرة إلا عبرة قيل لعيسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك فقال من كان نظره عبرة وصمته فكرة وكلامه ذكرا فهو مثلي، والثاني أن يعلم أنه بمراى من الله عز جل ومسمع فلا يستهين بنظره⁴⁵.

⁴³ الأنعام 103.

⁴⁴ الشورى 11.

⁴⁵ المقصد الأسنى ص 91.

البصير هو من لا تُخفي عليه خافية مصداقا لقوله تعالى: {وَوَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} 46. فالذي يضع كل شيء بحساب وميزان لا تخفي عليه خافية، ولذلك القاعدة تقول: {الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر خالقها} ولهذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء فهو يرى الأشياء وهي لا تراه برغم وجوده وبرغم وجودها، ولهذا فالبصير هو مالك القوّة التي يكشف بها الخفايا مصداقا لقوله تعالى: {يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ} 47.

والبصير: هو الذي يرى الأشياء والأحداث ويعلمها قبل حدوثها، ولذلك فالبصير هو العليم الحكيم، أي أنه يخلق الأحداث مثلما يخلق الأشياء ومثلما يخلق من الأشياء بشرا ومخلوقات لا تحصى ولا تعد بالعقل البشري الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا. والخليفة هو المؤمن الذي يعلم هذا الأمر بالعلم الذي أبلغه الله به عن طريق اصطفاء الأنبياء والرسل وما كلفهم به واستخلفهم عليه سبحانه لا إله إلا هو، ولذا فلخليفة الذي آمن بما أنزل ليس له بدا إلا أن يقول ربّي زدني علما، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَحْدَ لَهُ عَزْمًا وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَ مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ

46 الأنبياء، 47.

47 غافر 19.

عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا
 وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ
 رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 فَمَا يُآتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى وَمَنْ
 أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى قَالَ
 رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {48}.

البصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير
 جارحة، والبصر هو الذي به تُرى الأشياء هي كما هي، ولا تخفي
 عليه خافية، حتى يستمد الخليفة بصيرته التي يوصف بأنه المصلح في
 الأرض وغير المفسد ولا سافك الدماء فيها بغير حق، والجمع أبصار.
 وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه،
 ورجل بصير مبصر خلاف الضير، وفي التنزيل العزيز: { لا تدركه
 الأبصار وهو يدرك الأبصار } {49}. ولذا فالبصير هو الذي يُدرك
 الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة
 وجودها بالمشاهدة العينية، وعليه فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من
 وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما
 يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه
 ويدركه البصير. قال تعالى: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى
 السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ
 سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ } {50}.

⁴⁸ طه، 114 . 125.

⁴⁹ الأنعام 103.

⁵⁰ الغاشية، 17 . 22.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق. والحمد لله رب العالمين.

أد عقيل حسين عقيل

القاهرة 2017.

يعقوب

من وحي القرآن

الني يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم هو النبي المبشّر به قبل أن يحمل في بطن أمّه، مصداقا لقوله تعالى: { وَأَمْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكْتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } 51، تظهر هذه الآية الكريمة حقائق منها:

- 1 . يعقوب هو ابن نبي وحفيد رسول.
- 2 . بدء وراثة العقيدة في هذه العائلة.
- 3 . معاصرة يعقوب لإبراهيم { وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ } 52.
- 4 . أنّ يعقوب بشري.

فماذا تعني هذه الحقائق؟

من المهم أن نعرف أنّ هذه الحقائق تشكّل مؤثرات قوية في تكوين يعقوب صلّى الله عليه وسلّم، وتهيئته لدور مهم قادم يقوم به في مسيرة العقيدة التي سيرث أمر تبليغها، دور يجعل من سيرته أنموذج؛ وذلك لأنّ الموروثات والمكتسبات من القيم والأخلاق والفضائل كانت في صورتها المثالية كون مصدرها الرّسالة والنبوّة

51 - هود 71.

52 البقرة 132.

المورثتان، وهما من مصدر واحد هو الله الواحد الأحد بالتكليف، وهذا يعني أن المثالية متحققة في الأخلاق والقيم والفضائل الموروثة.

أما الاكتساب؛ فهو متحقق تربية راشدة ومعاشرة ومصاحبة لما هو تطبيقا سلوكيا للقيم التي ورثها، وهنا نعتقد أنّ المتحقق بالتمام، لأنّ يعقوب يكون قد ورث وسلك أمثال الأخلاق والقيم والفضائل، لأنّه بعد أن ورث تمكن من انتهاج السلوك المجسد للنظري الموروث من خلال معاصرة رسول هو إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام الذي عنى عناية خاصّة بيعقوب كما عنى بأبنائه، ولهذا فيعقوب ورث الفضائل الخيرة من ربّه تعالى، ومن هنا اتصف يعقوب بصفة الوارث.

والوارث: هو من له حقّ الملك.

. وإذا تساءل البعض: من من يُورث الملك؟

. تكون الإجابة بطبيعة الحال: الملك يُورث من مالكه.

. ومن هو مالكه بالمطلق؟

. الله مالك الملك المطلق.

. إذن لا مالك سواه للملك المطلق.

. نعم إنّه الله الذي لا إله سواه.

. وما هو الملك؟

. الملك يمتد من النبوة إلى الحكم والحكمة والعلم إلى الثروة وإلى

الإنس والجن والملائكة، والموت والحياة والجنة والنار والعقاب والتواب؟

. ومن ذا الذي يملك كل ذلك؟

. إنه الوارث.

. ومن ذا الوارث الذي ينفرد بملك كل ما ذكر؟

. الله.

. ومتى تكون الوراثة حقًا؟

. عندما يكون النصيب فيها.

. ومتى تكون الوراثة كاملة؟

. عندما لا يوجد شركاء في خلقها وإيجادها.

. إذن لا مالك للخلق إلا الخالق عزّ وجلّ، ولا وارث من بعده

إلا هو، ولا مالك للأرض ومن عليها والسموات ومن فيها إلا

خالقها، ولذا لا وارث لها إلا هو، وهكذا لا يملك الجن والإنس

والملائكة إلا خالقهم، ولأن الخالق واحد أحد، إذن لا يرث المخلوق

إلا الخالق الواحد الأحد.

ومن آيات القرآن الكريم ما ذكر فيها يعقوب عليه السلام:

{وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ

الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ} 53.

{أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا

تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ

وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 54

53 البقرة 132.

54 البقرة 133.

{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ
مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 55.

{أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ
كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً
عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} 56.

{وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 57.

{إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ
فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 58.

{وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ
وَعِيسَىٰ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 59.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ
وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ
نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 60.

{فَبَشِّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} 61.

55 البقرة 136.

56 البقرة 140.

57 آل عمران 84.

58 آل عمران 93.

59 النساء 163.

60 الأنعام 84.

{ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا
وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ } 62.

{ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا
إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ }.

{ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا
لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } 63.

{ اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ
بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ } 64.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَى يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُ
لَنَاصِحُونَ } 65.

{ قَالَ إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَنْ تَذْهَبُوا بِهِ وَأَخَافُ أَنْ يَأْكُلَهُ الذِّئْبُ وَأَنْتُمْ
عَنْهُ غَافِلُونَ } 66.

{ وَجَاوُوا أَبَاهُمْ عِشَاءً يَبْكُونَ } 67.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِنْدَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ
الذِّئْبُ وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ } 68.

61 هود 71.

62 يوسف 4.

63 يوسف 8.

64 يوسف 9.

65 يوسف 11.

66 يوسف 13.

67 يوسف 16.

68 يوسف 17.

{وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ
أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 69.

{وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائِي إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ مَا كَانَ لَنَا أَنْ
نُشْرِكَ بِاللَّهِ مِنْ شَيْءٍ ذَلِكَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ عَلَيْنَا وَعَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ
أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ} 70.

{فَلَمَّا رَجِعُوا إِلَى أَبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا
أَخَانًا نَكْتَلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 71.

{قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنْتُكُمْ عَلَى أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ فَاللَّهُ
خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} 72.

{وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مَا
نَبْعِي هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا وَمِمِّرُ أَهْلِنَا وَنَحْفَظُ أَخَانًا وَنَزِدَادُ كَيْلٍ
بَعِيرٍ ذَلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ} 73

{قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّى تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ إِلَّا أَنْ
يُحَاطَ بِكُمْ فَلَمَّا آتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ اللَّهُ عَلَى مَا نَقُولُ وَكِيلٌ} 74.

{وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَاذْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُعْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} 75.

69 يوسف 18.

70 يوسف 38.

71 يوسف 63.

72 يوسف 64.

73 يوسف 65.

74 يوسف 66.

{وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسٍ يَعْذُوبُ فَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 76.

{قَالُوا يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ} 77.

{فَلَمَّا اسْتِيسَأُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 78

{ارْجِعُوا إِلَى آبَائِكُمْ فَقُولُوا يَا أَبَانَا إِنَّ ابْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَا إِلَّا بِمَا عَلَّمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ} 79.

{قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} 80

{وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} 81

{قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 82

75 يوسف 67.

76 يوسف 68.

77 يوسف 78.

78 يوسف 80.

79 يوسف 81.

80 يوسف 83.

81 يوسف 84.

{ يَا بَنِي إِدْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَّأَسُوا مِنْ رَوْحِ
اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } 83.

{ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَالْقُوهُ عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِي
بِأَهْلِكُمْ
أَجْمَعِينَ } 84.
{ وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ
تُفَنِّدُونِ } 85

{ فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَدَ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ
لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 86.

{ قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ } 87.

{ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } 88.

{ فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبْوَابِهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنِ
شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ } 89.

{ وَرَفَعَ أَبْوَابِهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ
رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ

82 يوسف 86.

83 يوسف 87.

84 يوسف 93.

85 يوسف 94.

86 يوسف 96.

87 يوسف 97.

88 يوسف 98.

89 يوسف 99.

السَّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ تَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ
إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ {90.

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا {91.

{ أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَةِ آدَمَ وَمِمَّنْ
حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا
تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا {92.

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ {93.

{ وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ
وَأَتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ {94.

{ وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي
وَالْأَبْصَارِ {95.

إنه يعقوب نبي الله عليه الصلاة والسلام خليفة الله الذي استمد
صفاته من صفات الوارث.

. وما أنَّ الوارث جعل في الأرض خليفة، ألا يكون له الحق في
حمل الأمانة؟

نعم له الحق في حملها، وحملها يستوجب طاعة الخالق (الوارث
المطلق الذي يرث الخليفة).

⁹⁰ يوسف 100.

⁹¹ مريم 49.

⁹² مريم 58.

⁹³ الأنبياء 72.

⁹⁴ العنكبوت 27.

⁹⁵ ص 45.

. ومتى تكون الوراثة؟

. عندما يكون المورث حَقًّا.

. ومن الذي يرث الحق؟

. لا يرث الحق إلا الحق.

. وأيهما اسبق الوارث أم الموروث؟

. الوارث أولا وآخرا.

. كيف يكون أولا وآخرا؟

. أولا لأنه السابق على كلِّ سابق. قال تعالى: {وَمَا خَلَقْنَا
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَأْتِيَةٌ فَاصْفَح
الصَّفْحَ الْجَمِيلِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ} 96. وقال تعالى: {أَوَلَمْ
يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبْنَا لَنَا مَثَلًا
وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا
أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ الَّذِي جَعَلَ لَكُم مِّنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ
نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ
عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ
يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ
تُرْجَعُونَ} 97.

. وآخرا لأنه الحي الذي لا يموت.

⁹⁶ الحجر 85.

⁹⁷ يس 77 - 83.

. إنّه الحقّ {هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ} 98 تفنى الخلائق ويبقى الملك لله.

. وعليه، لا يرث الخليفة شيئاً إلا بالحقّ.

. نعم سيكون الخليفة فيما أتاه الله من النبوة والحكمة والعلم والثروة مستخلفاً بالوراثة، ومع أنّه مورث نسبياً فيما أتاه الله إلا أنه لم يورث بالمطلق في أمر الموت والحياة.
. ولكن للخليفة بداية ونهاية.

. إنّه الحقّ، ولذا فالوارث هو صاحب الملك والخليفة جزء ما يملك المالك، فبعد النهاية لن يكون هناك من يعود الملك إليه وارثاً إلا مالكة بالمطلق لا إله إلا هو.

وبناءً عليه، فكل ميراث هو وقتي غير دائم ويعتريه النقص لأنه قد حصل من مالك بالوكالة إلى مالك بالوكالة، فالملك ناقص وكذلك الميراث ناقص إلا ملكه سبحانه وتعالى.

وفي ذلك قال الإمام الغزالي: "هو الذي يرجع إليه الأملاك بعد فناء الملك" 99.

الوارث هو المالك الأوحد وهو الأول والآخر وهو الذي بيده الأمر والنهي وهو على كل شيء قدير، وهو الباقي الذي يرث ما خلق. فلو لم يكن مالكا ما ورث، ولو لم يكن وارثا ما خلق، ولو لم يكن باقيا ما كان وارثا سبحانه.

98 الحديد 3.

99 محمد حسين، شرح أسماء الله الحسنى، الإسكندرية، 1996، ص 92.

والوارث الأُوحد هو الذي ملك الملك دون أن يرثه من أحد، وهذه الصفة لا تنطبق إلا على الله الواحد الأحد الأول بلا بداية والأخر بلا نهاية الذي لا تربطه صلة نسب بأي مخلوق، وكيف تربطه صلة بمخلوق؟! وهو جلّ وعلا خالقه.

إنّ الصلة لا تتعدى أن الخلق جميعاً عباد لله سبحانه وتعالى لأنّه ملك للملك ومالك له بلا ند ولا شريك فيقول الله تعالى عن صفته الذاتية: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 100، فلا توجد بين الله وبين أي مخلوق كان أي صلة يشار إليها مع الأقارب أو الأبعد، إذا فليس لديه سبحانه وتعالى ميراث ورثه من أحد ولا يستحق أحد أن يرثه لأنه الحي القيوم الدائم الباقي، وورد في تفسير قوله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أن قريشا قالوا للنبي صلى الله عليه وسلم: صِفْ لنا ربّك الذي تعبده وتدعوننا إليه ما هو؟ فأنزل الله تعالى: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) قل يا محمّد للكفار إن ربّي الذي أعبده {هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} فرد لا نظير له ولا شبيه له ولا شريك له ولا معين له، ثم قال عزّ وجلّ: (الله الصمد)، الصمد الذي لا يأكل ولا يشرب، وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أنه قال: الصمد الذي يصمد إليه الخلائق في حوائجهم ويتضرعون إليه عند مسألتهم و(الصمد) السيد الذي انتهى سؤدده، وقال الحسن البصري رضي الله عنه: الصمد الدائم، وقال قتادة الصمد الباقي، ويقال الكافي وقال محمّد بن كعب القرظي الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد ويقال: الصمد التام في سؤدده وروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: الذي لا يخاف من فوقه ولا يرجو من تحته ويُصمّد إليه في الحوائج ثم قال عزّ وجلّ (لَمْ يَلِدْ) لم يكن له ولد يرث

100 الإخلاص 1 . 4.

ملكه. (وَلَمْ يُوَلَّدْ) لم يكن له والد يرث عنه ملكه (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) لم يكن له نظير ولا شريك فينازعه في عظمته وملكه 101.

الوارث: هو المالك، أي لو لم يكن مالكا ما كان وارثا، وهو الذي يعود إليه الملك الذي خلقه، حيث لا وارث له إلا هو، قال تعالى: {رَفِيعَ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} 102. فبعد أن ينهي الخلائق التي هي جزء من ملكه، يبقى من بعدهم الملك الذي خلقوا منه وخلق لهم وخلق من قبلهم سابق عليهم، فبعد الموت لمن يكون الملك؟

لله الواحد القهار.

فالله سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد فهو عز وجل لم يولد فيرث من غيره ميراث، وهو كذلك لم يلد فيرث أحد منه ميراث، لذا فقد أمر الله -الوارث لنفسه من نفسه - النبي عليه الصلاة والسلام في كتابه الكريم أن يقول: {وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وِليٌّ مِنَ الدُّلِّ وَكَبِيرُهُ تَكْبِيرًا} 103.

نعم الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا فتتفرق الأهواء والآراء فيفسد الكون، والحمد لله الوارث الذي لا ينافسه أحد في ملكه ولا يشاركه بالخلق أو النسب.

¹⁰¹ بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 449.

¹⁰² غافر 15، 16.

¹⁰³ الإسراء 111.

والله سبحانه وتعالى يقول لنبية الأكرم صلى الله عليه وسلم:

(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا) كما يزعم اليهود والنصارى وبنو مليح، حيث قالوا: عزيزُ ابنِ الله والمسيحُ ابنُ الله والملائكةُ بناتُ الله تعالى عن ذلك علوا كبيرا (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمَلِكِ) أي الألوهية كما يقوله القائلون بتعدد الآلهة (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وُلِيٌّ مِّنَ الذَّلِ) ناصرٌ ومانعٌ منه لاعتزازه، والحمد لله الذي لم يوالِ أحدا من أجل مذلةٍ ليدفعها به، والحمدُ بهذه الصفاتِ الجليلةِ إيذانٌ بأن المستحقَّ للحمد من هذه نعوتُه دون غيره 104.

وعليه فإن الوارث المطلق هو الذي يرث الأرض ومن عليها والسماء ومن فيها وما بين كل سماء وكل أرض، أي أنه المالك لكل شيء ما نعرف وما لا نعرف. ومن الوارث المطلق وبه يورث الوارث بالإضافة، الذي يورث من بعده فيما ورث فيه.

وفي هذا السياق يقول الله تعالى للإنسان الوارث: إِنَّهُ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي وَرَثَ الْكُتُبَ السَّابِقَةَ عَلَى النَّبِيِّ الَّذِي وَرَثَ الْأَنْبِيَاءَ السَّابِقِينَ، وعلى الأمة التي ورثت الأمم السابقة في العلم والعمل، وكل هذا الميراث لا بد وأن يصقِّي الإنسان الخليفة من أي تعلق بملك أو مالك غير أصيل، لأن المالك المطلق هو الله الذي لم يلد ولم يولد فيقول الله تعالى: { الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا قِيمًا لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا مَا كُنْتُمْ فِيهِ أَبَدًا وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا } 105.

¹⁰⁴ تفسير أبي السعود، ج 4، ص 232.

¹⁰⁵ الكهف 4.1.

وفي الآية نلاحظ لمحة رائعة تتمثل في البدء بحمد الله سبحانه وتعالى على نعمة إنزال الكتاب الجامع الذي جمع الله فيه كل ما أنزل على الأنبياء السابقين الذين وضحوا أنه لا شريك لله ولا ند ولا وارث يرثه وإنه سبحانه وتعالى لم يرث الملك من أحد، وهذا المنهج الجامع جاء ليصحح الطريق ويوضحه للخليفة الذي ورث مهمة تعمير الأرض ومن هذا الميراث جاء تسخير الكون وما فيه من أدوات للخليفة الوارث الذي سيتبع الكتاب الذي ليس فيه عوج.

وعليه فالميراث يمكن أن يتم تناوله من حيث:

أولاً: الميراث الدائم للحي الدائم: قال تعالى: {وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ} 106، وقال تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} 107.

ثانياً: الميراث المؤقت للحي المؤقت: قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ

106 القصص 58.

107 القصص 22 . 24.

هُم فِيهَا خَالِدُونَ {108، وقال تعالى: {وَتُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ} 109.

ولذا فإنّ الكتاب الكريم الذي اشتمل على المنهج الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيه علم الميراث يوضح معنى الميراث، الذي يستوجب من الخليفة القيام بمهام الوراثة بالآتي:

1 - حمد الوارث المطلق على ما آتاه من نعم.

2 - الإقرار بأنّه لا أحد يكون في منازعة الوارث على ملكه.

3- الاعتراف للنبي محمد عليه الصلّاة والسّلام بالرسالة الخاتمة المشتملة على المنهج الذي لا عوج فيه، باعتبارها النص الذي يُفصّل الآيات لقوم يعلمون ويتقون.

4- هذا الكتاب الذي ورث الكتب السابقة ينذر إنذارا شديدا الذين لا يتبعون المنهج الخاتم.

5- البشرى العظمى للذين يتخذون المنهج الصحيح منهجا للإصلاح والتعمير وبذلك يستحقّون الخلافة ويرثون المسؤولية لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

6- الخليفة الذي يعمل الصالحات سيرث ثوابا لا ينفد ولا يزول ويمكث فيه أبدا لأنه اتبع الوارث الأعلى فتجلى عليه بالصفة نفسها فأورثه النعيم المقيم الذي يدوم دواما سرمديا، وهذا الدوام السرمدي والنعيم المقيم المعبر عنه في القرآن الكريم بقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا

¹⁰⁸ المؤمنون 11 . 1.

¹⁰⁹ القصص 5.

يَبْعُونَ عَنْهَا حِوَلًا قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ
يُوحَى إِلَيَّ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا
صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا {110}.

7- الوراثة الحقيقية تكون للخليفة المتصف بالآتي:

أ- الإيمان المطلق بالله سبحانه وتعالى أنه الوارث الذي يملك
الملك بالمطلق وهو لم يرثه من سابق حيث لا سابق قبل سبق الله، قال
تعالى: {سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ لَهُ
مِثْلُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ هُوَ
الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ {111}.

ب- الإيمان بأن الله سبحانه وتعالى لم يلد ولم يتخذ صاحبة ولا
ولدا لأنه الغني عن ذلك فهو الباقي الذي لا يفنى، وذلك فالفناء
مخلوق زائل، والله خالق باقي يرث كل شيء خلقه حيث لا أحد من
قبله ولا بعده ولهذا الملك الله الواحد القهار.

ج- إتياع النبي الخاتم عليه الصلاة والسلام الذي لا يدعي أنه ابن
الله ويؤكد أنه بشر أرسله لينذر الناس من شر أنفسهم بدعواهم أن الله
ثاني اثنين أو أنه له زوجة أو ولد تعالى الله على ذلك علوا كبيرا. قال
تعالى: {قَالَتْ هُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ
وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا

¹¹⁰ الكهف 107 . 110.

¹¹¹ الحديد 1 - 3.

سُبُلَنَا وَلِنَصِيرَنَّ عَلَى مَا أَدَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ
الْمُتَوَكِّلُونَ {112}.

د- الخليفة الوارث الذي يعمل الصالحات ويعمر الأرض ليرث
الثواب والفردوس الأعلى. قال تعالى: {أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا
كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ
وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مَا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ
لِيُظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ أَسَاءُوا
السُّوْأَى أَنْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَكَانُوا بِهَا يَسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ
يُعِيدُهُ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ وَمَنْ يَكُنْ لَهُمْ
مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءٌ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُؤْمِنُونَ
بِمَنْ كَانُوا يَكْفُرُونَ فَمَا لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِيهِمْ فِي رَوْضَةٍ
يُجْرَبُونَ {113}.

والخلافة ليست لفرد بل يمكن أن تكون لأمة أو أي عدد من
أفراد الجنس البشري بشرط الإيمان بالمبدأ والعمل على تحقيقه ومن هنا
تتحقق الخلافة ويكون الميراث الحقيقي وهذا الميراث لا يكون إلا لمن
تتحقق فيه هذه الصفات الواردة في قوله تعالى:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّعْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ
ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ

¹¹² إبراهيم 11، 12.

¹¹³ الروم 9 - 15.

رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {114}.

وبتحليل صفات الوارث نجد أنها تتلخص في الآتي:

1 - الإيمان بالله وما أمر أن نؤمن به من غيب. قال تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {115}، والمستخلفون في الأرض أخوة في طاعة الله وتوحيده ولذا فلهم الدرجات العلا ولهم المغفرة والرزق الكريم قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {116}.

وعليه فالوارثون هم:

. الذين يذكرون الله قولاً وعملاً.

. وهم يزدادون إيماناً برؤية آيات الله المسموعة سمعاً والمقروءة لساناً

والمشاهدة بصراً والمدركة بصيرة والمجوهرة روحاً.

. وهم يتوكلون على الله باستخدام الأدوات التي منحها لهم لوراثة

الأرض في عالم الاختبار، ووراثة الفردوس في عالم الحساب، ولسان

¹¹⁴ المؤمنون 11 . 11.

¹¹⁵ الأنعام 59.

¹¹⁶ الأنفال 2 4.

حال المؤمنين الوارثين يتمثل في قوله تعالى: {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} 117.

. وهم يقيمون الصلاة لدوام الصلة بالله تعالى.

. وهم ينفقون من فضل الله عليهم لأنهم يعلمون أن ما في أيديهم إنما هو من فضل الله سبحانه وتعالى.

والخليفة هو المؤمن الصادق فبصدق القول والعمل سيرت الخلافة في الأرض والدرجات العلى في الآخرة وهذا ما أكده الوارث عز وجل في قوله تعالى:

{إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} 118.

فالله سبحانه وتعالى الوارث لأنه المالك، ولتأكيد ملكه للكون ومن فيه يقول الله تعالى مخاطبا النبي ومن سار على نهجه لينال الخلافة والميراث الحقيقي: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكِ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزِزُ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ تُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَمِيتِ وَتُخْرِجُ الْمَمِيتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِعَیْرِ حِسَابٍ} 119.

وجاء في تفسيرها: {مالك الملك} أي مالك جنس الملك على الإطلاق ملكا حقيقيا بحيث تتصرف فيه كيفما تشاء إجمادا وإعداما وإحياء وإماتة وتعذيبا وإثابة من غير مشارك ولا مانع {تؤتي الملك}

¹¹⁷ الأنفال 51.

¹¹⁸ الحجرات 15.

¹¹⁹ آل عمران 26، 27.

بيان لبعض وجوه التصرف الذي تستدعيه مالكية الملك وتحقيقاً
لاختصاصها به تعالى حقيقةً وكون ملك غيره بطريق المجاز كما ينبى
عنه إيثار الإيتاء الذي هو مجرد الإعطاء على التملك المؤذن بثبوت
المالكية حقيقةً.

(مَنْ تَشَاءَ) وذلك لملكه حق الاختيار والتقدير بالميزان الحق
{ وَتَنْزِعُ الْمَلِكُ مِمَّنْ تَشَاءُ } نزعه للملك ممن أتاها بإياه بأسباب ومبررات
هو يعلمها ما يجعل النزاع حق يجب أن يفعل ولذلك فهو الفعّال لما
يُريد، والملك جاءت مطلقة فهي قابلة للتقدير فهي تأتي بمعنى النبوءة،
وتأتي بمعنى الحكم، وتأتي بكل معاني التصرف.

(وَتُعِزُّ مَنْ تَشَاءَ) أن تُعِزَّهُ في الدنيا أو في الآخرة أو فيهما بالنصر
والتوفيق والعزة هي الأخرى جاءت مطلقة دون تحديد بموضوع أو
قضية، وذلك بأسباب مطلقة الوارث فيما يورث (وَتُدِلُّ مَنْ تَشَاءَ)
أيضا المستهدف بالإذلال غير محدد وذلك لارتباط من يجب أن يذل
بأسباب موضوعية تستوجب أن يُذل عليها، (بِيَدِكَ الْخَيْرِ) تعريف
الخير للتعميم، وتقديم الخبر للتخصيص أي بقدرتك الخير كله لا بقدره
أحد غيرك تتصرف فيه قبضا وبسطا حسبما تقتضيه مشيئتك،
وتخصيص بيدك الخير تخصيص المطلق بيد الوارث المطلق.

وعليه فالخليفة وحده يدرك الحق فيتبعه فهو يعلم أنه مورث من
الوارث الأعظم، وأن ما يورث فيه زائل بعد زواله من الوجود الحي،
ويؤمن أنه لن يبقى إلا وجه الله ذو الجلال والإكرام، ولهذا الإيمان
بملايه بمستوجبات الطاعة.

أمّا ما يخص الخلافة وهي لب ومحور الرؤية التي ننطلق منها في
النظر في أسماء الله الحسنى فهي ذات صلة وثيقة بهذا الاسم الشريف

لأنه يلخص فكرة الخلافة ويمحورها في سؤال بسيط في الكلمات عميق في المعنى والدلالة ألا وهو: ما الميراث؟ ومن يستحقه؟ ومن يملك على وجه الحقيقة وعلى وجه المجاز؟ ومن سيؤول إليه الميراث في النهاية؟

إنّ كل ميراث مادّي على الأرض هو على سبيل الأمانة التي عرضها الله على المخلوقات لتعمير الأرض فرفضت جميع الخلائق وخافت من هذا الحمل الثقيل، ولكن الإنسان قد قبل هذا الحمل جهلا منه بتبعاته قال تعالى: { إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا } 120.

والإنسان لم يتأن في قبول الأمانة وعليه فهو قد يحسن التصرف في الميراث الذي ورثه هبةً من الله أو قد يسيء وهذا هو جوهر الخلافة، قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 121، وقال تعالى: { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 122.

وفي قوله عزّ وجلّ: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ) قال مجاهد: لما خلق الله عزّ وجلّ آدم عليه السّلام عرض عليه الأمانة فحملها، فما كان بين أن حملها، وبين أن أخرج من الجنة، إلا كما بين الظهر والعصر. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه

¹²⁰ الأحزاب 72.

¹²¹ فصلت 46.

¹²² النحل 96، 97.

أنه قال: (إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ) يعني: الفرائض على السماوات والأرض والجبال. فقال لهن: يأخذن بما فيها. فقلن: وما فيه يا رب؟ قال: إن أحسنن جوزيتن. وإن أسأتن عوقبتن. فقلن: يا رب إن تعرضها علينا فلا نريد، وإن أمرتنا بها فنحن نجتهد¹²³.

الأمانة: هي ما يوضع مؤقتاً، عند من يعتقد أنه محل لها، وخير خلق خُلق في أحسن تقويم هو الإنسان، ومع أنه خلق على أحسن تقويم، إلا أنه لم يخلق على الكمال، ولهذا كان ظلوماً جهولاً بما حُمِّل.

والبعض يفسر الأمانة بأنها الطاعة وهذا القول لا يتناقض مع ما نذهب إليه بأن الأمانة هي الخلافة المثلثى على الأرض، لأنه لا طاعة دون تحقيق الغرض الذي من أجله أنزل الله الإنسان على الأرض، فمن يطع الله يحسن توظيف الأدوات التي منحها الله له لغرض الخلافة من نعم لا تعد ولا تحصى. يقول الله تعالى: {وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا} ¹²⁴.

وهذه الأدوات التي وهبها الله للإنسان وغيرها من عقل وإرادة ونفس وروح، فقد أكملها الله بتسخير الكون لينتفع به الخليفة في تعمير الأرض وإصلاحها يقول الله تعالى: {حَمَّ تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ وَاحْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآيَاتِهِ يُؤْمِنُونَ وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُثَلَّى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ وَإِذَا عَلِمَ مِنْ

¹²³ بحر العلوم للسمرقندي، ج 3، ص 424.

¹²⁴ الإسراء 136.

آيَاتِنَا شَيْئًا اتَّخَذَهَا هُزُؤًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ هَذَا هُدًى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزِ أَلِيمٍ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْبَحْرَ لَتَجْرِيَ الْفُلُكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ {125}.

فالله سبحانه وتعالى قد سخر السماء لتحمل الأمطار التي هي سبب الحياة وكذلك سخر الريح للتلقيح، وسخر الليل والنهار للعمل والراحة والعبادة والتأمل فيما خلق، وسخر الأرض لينتفع بها الإنسان لأنه الخليفة إن سار وفق المنهج المرسوم له وهذه الأدوات وغيرها هل هي ميرات على وجه الحقيقة أو ميرات على وجه المجاز للاختبار؟ يقول الله تعالى في النعم التي وهبها تسخيرا للإنسان: {المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم تؤقنون وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون وفي الأرض قطع متجاورات وجناتٍ من أعنابٍ وزرعٍ ونخيلٍ صنوانٍ وعَيْرٍ صنوانٍ يسقى بماءٍ واحدٍ ونفضلٍ بعضها على بعضٍ في الأكل إن في ذلك لآياتٍ لقوم يعقلون وإن تعجب فعجب قوهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديدٍ أولئك

الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {126}.

فالله سبحانه وتعالى يؤكد في الكتاب الحق أن ما أنزله إلى رسول الإنسانية حق، وهذا الحق فيه حقائق لا بد أن يعيها كل مخلوق ومنها:

1 - أن القرآن حق ويحتوي على المنهج الحق للوارث الذي يريد تحقيق الخلافة.

2- أكثر الناس لا يؤمنون بهذه الحقيقة، وعليه فهم لا يستحقون الخلافة ولا الميراث في الدنيا ولا الآخرة، فيقول الله لهؤلاء موضحا لهم جزاء من آمن وأحسن، وجزاء من كذب وأساء وظل: {لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ وَلَا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلَا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرَهَّقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَمَّا أُعْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطْعًا مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِمًا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَائِكُمْ فزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَائُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِلَّا نَا تَعْبُدُونَ فَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوْا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمْ الْحَقَّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمْ مَنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ فَمَاذَا بَعَدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ {127}.

126 الرعد 5.1.

127 يونس 26.33.

3 . تأكيد أن الله سبحانه وتعالى هو الخالق دون شريك فهو الذي رفع السماء بدون عمد يراها الإنسان، وأنزل منها الماء الذي هو سر أسرار الحياة على الأرض.

4 - سخر الله الوارث العزيز الشمس والقمر في ميزان الكون واعتداله لخدمة الإنسان الخليفة فلا الشمس تقترب من الأرض فتحرقها ولا تبعد فتجمدها، ولا القمر يبعد أو يقرب فيؤثر في مستوى الماء في البحار فتغرق الأرض أو تتوقف حركة الملاحه قال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتٍ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} 128.

5 - الله قد جعل الجزاء من جنس العمل، فالذين كفروا لا يرثون الأرض وليس لهم نصيب في الخلافة، والذين آمنوا يقول الله عنهم: {يُنَبِّئُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَةَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ جَهَنَّمَ يَصَلُّونَهَا وَنَسَّ الْقَرَارَ وَجَعَلُوا

لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعَ فِيهِ وَلَا خِلَالَ اللَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَخَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ {129}.

وهؤلاء الذين قال سبحانه وتعالى لهم: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلِعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ {130}.

ويقول تعالى مخاطبا للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام على وجه الخصوص ومخاطبا كل إنسان على وجه العموم: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلًّا يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ وَإِذَا غَشِيَهُمْ مَوْجٌ كَالظُّلْمِ دَعَوْا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ

129 إبراهيم 27 .33

130 النحل 10 .14

خَتَّارٍ كَفُورٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَاحْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ
وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنِ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ
الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْعُرُورُ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنزِلُ
الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَآذَا تَكْسِبُ عَدًّا وَمَا
تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَبِيرٌ {131}.

ومن نعم الله التي أورها للإنسان ليحقق الخلافة على الأرض الماء
العذب ومصدره الأنهار والأمطار والمياه الجوفية، والماء المالح ومصدره
المحيطات والبحار، وفي كل منهما فوائد جمة، وهذه النعم وهب ومنح
لا ميراث وإن ورثت فعلى سبيل الانتفاع لا الامتلاك الدائم حيث لا
دائم إلا وجهه، وكذلك الشمس والقمر والليل والنهار، وهذا ما يدعو
إلى الإيمان بأن الله هو الوارث لملكه ويمنح من يشاء من عباده ما
يشاء، ونعتقد أن كلمة الميراث في حق الخلق على سبيل التقريب
والجواز لا على سبيل الحقيقة فلا وارث إلا الله عز وجل فيقول الله
تعالى موضعا لنعمه التي لا تعد ولا تحصى: { وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ
هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شْرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلِّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا
طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَآخِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ
فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ
وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ
الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا
يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ
بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ
هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُدْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى
اللَّهِ بِعَزِيزٍ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ جِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ

مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يُحْشِنُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ} 132.

إذا فما منحه الله للإنسان ليس ميراثا بل هبة أو أمانة ليرى مدى
طاعة الإنسان من خلال استخدام هذه النعم في تحقيق الخلافة المتلى
على الأرض، التي يود الله إصلاحها مصداقا لقوله تعالى: {ادْعُوا
رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ حَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ
الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّىٰ إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا
سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ
نُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 133، وقال تعالى: {فَأَوْفُوا الْكَيْلَ
وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ
إِصْلَاحِهَا ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ
تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُوهَا عِوَجًا وَادْكُرُوا إِذْ
كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَتَرْتُمْ وَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ وَإِنْ كَانَ
طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلَتْ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ
يَحْكُمَ اللَّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} 134.

وفي قوله تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ فِي مَعْنَاهَا تَحْمُلُ الْمَسْئُولِيَّةَ
ذات العبء الكبير، التي حملها الخليفة بالطاعة التامة لأمر الوارث،
إنه قبول بتحمل ما يترتب على المسؤولية مع التصميم على النجاح
مع كبر العبء وجسامة المسؤولية.

¹³² فاطر 12 . 18.

¹³³ الأعراف 55 . 57.

¹³⁴ الأعراف 85 . 87.

وكان عرض الأمانة على السماوات والأرض والجبال (إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا) الإيلاء الامتناع، والامتناع لا يعني الرفض بالمطلق، بل يعني ما يعني إظهار المخافة منها اجتنابا لما هو متوقع وهو الفشل في حملها، وهذا لا يعني الرفض بالمطلق، بل يدل على قبول الحوار أمام التخيير لا التسيير. ولهذا كانت الشفقة منها ظاهرة، وفقا لما هو مترتب عليها.

وَحَمَلَهَا الإنسان، الذي علمه الله الأسماء، والأسماء هي الأسرار، ولهذا عندما عرف الإنسان الأسرار عرف أنه كان جهولا بأمرها؛ ولأنه الخليفة حمل مسؤولية الأمانة وارتضى ذلك فكرمه الله في البر والبحر مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا يَوْمَ نَدْعُوا كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوِّيَ كِتَابُهُ يَمِينَهُ فَأُولَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذَا لَا تَجِدُوكَ حَلِيلًا وَلَوْلَا أَنْ تَبَتَّنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرَكُنْ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا إِذَا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا} 135.

وجاء في تفسيرها أيضا ما يتفق مع التفسير السابق " {إِنَّا عَرَضْنَا الأمانة عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَالجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإنسانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا } .

135 الإسرائ 9 .6 .75

يعظم تعالى شأن الأمانة، التي ائتمن الله عليها المكلفين، التي هي امتثال الأوامر، واجتناب المحارم، في حال السر والخفية، كحال العلانية، وأنه تعالى عرضها على المخلوقات العظيمة، السماوات والأرض والجبال، عرض تخيير لا تحتيم، وأنتك إن قمت بها وأدبتيها على وجهها، فلك الثواب.

وقوله: (فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا)، أي: خوفًا ألا يقمن بما حُمِّلْنَ، لا عصيانًا لرَبِّنَّ، ولا زهدًا في ثوابه.

وبالنسبة للخليفة دائما أمامه الأمانة، وهو دائما معرض للاختبار والابتلاء في الدار الدنيا التي جعل الوارث فيها الإنسان خليفة له في أرضه مصداقا لقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 136.

والأمانة المنصوص عليها هي ذات الأعباء والمسؤوليات الجسام وهي في حالة تتابع ثلاثي: الأول: الأمانة التي عُرضت من بداية الخلق على أبينا آدم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: وتلك الأمانة نحن لا نعلم أمرها إلا اجتهدا، فهي التي عرضها الله على الإنسان، فحملها طاعة لله فيما عرضه بغض النظر عما تحويه من صعاب ومسؤوليات جسام، فقبلها، وحملها مع ظلمه وجهله، وحمل هذا الحمل الثقيل.

الثاني: الأمانات المتعددة التي نزلت على الرُّسل عليهم الصَّلَاة والسلام: والغرض منها واحد وهو البلاغ بالوحدانية والإيمان بها تسليما مطلقا، وهذه الرسائل كانت ذات أعباء على المصطفين صلوات الله وسلامه عليهم جميعا، فانقسم الناس من حولهم بين خمسة فئات:

1 . الفئة الكافرة: وهي الفئة التي لا تؤمن بوجود من خلق الوجود والحياة والممات: وكأن الطبيعة هي التي ولدت كل شيء، وهؤلاء ماتوا على كفرهم قال تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ } 137، وقال تعالى: { وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ } 138.

2 . الفئة المشركة: وهي الفئة التي تؤمن بالله وتشرك آخرين معه، والمشرك كافر بما أمر الله وهو لا يؤمن بالحق في قوله تعالى: { قُلْ هُوَ

137 آل عمران 91.

138 البقرة 87، 88.

اللَّهِ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفْوًا أَحَدٌ {139،
 وقال تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ
 الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ
 حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَاوَاهُ النَّارَ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ لَقَدْ كَفَرَ
 الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا
 عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ
 وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ
 مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ
 الْآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ
 ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {140.

3 . الفئة المنافقة: وهي التي تظهر الإيمان وتبطن الكفر أو
 الشرك، وهؤلاء هم الذين يقولون ما لا يفعلون مصداقا لقوله تعالى:
 {وَمَنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ مَرَدُوا عَلَى
 النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَى عَذَابِ
 عَظِيمٍ وَأَخْرُوجُوا اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى
 اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {141، وقال تعالى: {وَإِذْ
 يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا
 وَإِذْ قَالَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا وَيَسْتَأْذِنُ
 فَرِيقٌ مِنْهُمْ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا
 فِرَارًا وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِمْ مِنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا الْفِتْنَةَ لَاتَّوَّاهَا وَمَا تَلَبَّثُوا

139 الإخلاص 1 - 4 .

140 المائدة 72 - 76 .

141 التوبة 101، 102 .

بِهَا إِلَّا يَسِيرًا وَلَقَدْ كَانُوا عَاهَدُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ لَا يُؤْلُونَ الْأَذْبَارَ وَكَانَ
عَهْدُ اللَّهِ مَسْئُولًا {142}.

4 . الفئة المسلمة: وهي التي تُقر بوجود خالق عظيم، فتؤمن به
وتؤمن بالرسول الذي جاء مبشرا ونذيرا، وتؤمن بجميع الأنبياء والرسل
كما في رسالة محمد عليه الصلاة والسلام الرسالة الخاتمة، حيث إن
المسلمين بذلك لا يفرقون بين أحد من رسله مصداقا لقوله تعالى:
{قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} {143}، وقال تعالى: {قُلْ
يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ
وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا
فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تُحَاجُّونَ فِي إِبْرَاهِيمَ وَمَا
أُنزِلَتِ التَّوْرَةُ وَالْإِنْجِيلُ إِلَّا مِنْ بَعْدِهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ
حَاجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَاجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَاللَّهُ
يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ
حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} {144}، وقال تعالى: {وَمَا
أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ قُلْ إِنَّمَا يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ
أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنْتُكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِنْ أَدْرِي أَقْرَبُ أَمْ
بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجُحْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ وَإِنْ

¹⁴² الأحزاب 12 . 15.

¹⁴³ البقرة 136.

¹⁴⁴ آل عمران 64 . 67.

أَدْرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ {145}.

5 . الفئة المؤمنة: وهي التي دخل الإيمان قلبها بعد أن أسلمت فلا ظن ولا شك فيما تعبد، وهي التي تُسَلِّمُ بالمطلق بأنه لا وارث إلا الله ولا مغفرة أو مثوبة إلا منه، والجنة حق لأصحاب الحق، والنار حق لأصحاب الكفر والشرك والذين لا يتقون فيما يقولون ويفعلون، قال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمَا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ} {146}، وقال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَٰئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} {147}، وقال تعالى: {قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ نُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ} {148}.

وبناء على ما تقدم، فلكل فئة حسابها وعقابها أو ثوابها قال تعالى: {وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلًا رَبَّنَا آتِهِمْ

145 الأنبياء، 112.

146 الأنفال 2 .4.

147 الأنفال، 75.

148 الحجرات، 15.

ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنَهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مَا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَفُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا {149}.

فالله هو الوارث لأنه الأول ولاحر والظاهر والباطن والمنعم والمتفضل ومالك الملك بلا منازع لا عن وراثة.

وهو ملك الكون ووارثه أي الحاكم فلا يردده أحد فيما أراد، يقول الله تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسَكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَخُذَكَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ} {150}.

وهو الباقي الذي يبقى ليري الخلق أن ميراث السماوات والأرض لله لا لغيره فهو الوارث بلا مشاركة لأحد في ملكه وميراثه، و"الوارث صفة من صفات الله عز وجل لأنه الباقي الدائم الذي يرث الخلائق ويبقى بعد فنائهم والله عز وجل يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين أي يبقى بعد فناء الكل ويفنى من سواه فيرجع ما كان ملك العباد إليه وحده لا شريك له قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ

149 الأحزاب 67 - 73.

150 يونس 107 - 109.

هُم فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {151}.

الثالث: أمانة المستخلفين بعد الرسل والأنبياء: وهم المؤمنون حقًا فلا يفرقون بين أحد من رسله، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير مصداقا لقوله تعالى: {وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُمْ بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاٰنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {152}، وقال تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَنْ أُمرَهُمْ لِيَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} {153}. لقد انتهى زمن الرسل والأنبياء ولم يبق إلا زمن الصالحين والمؤمنين الذين التزموا بحمل الأمانة وهي عبء يستوجب التبشير به والإنذار به والتحريض به، حتى تعم المعمورة وتلون بالدين الخاتم لكل الأديان بالرسالة الخاتمة في اللوح المحفوظ.

151 المؤمنون 1 - 11.

152 المائدة، 7، 8.

153 النور 51 - 53.

وعليه من يغفل عن أداء الأمانة التي بها التزم وحمل العبء، سيكون من الخاسرين، ومن يعمل صالحا ويصلح في الأرض التي استخلفه الله فيها سيكون من الوارثين في الدارين الذين يرثون الأرض والجنة. اللهم اجعلنا من الوارثين في الدارين وأرضى عنا وعن البنين والزوجات والوالدين فإننا بك آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا إليك فارحمنا فأنت خير الراحمين والوارثين.

ولذا فالوراثة استلام لاحق من سابق، ثم أخيرا استلام السابق من اللاحق بحق الوراثة المطلق، وفي سنن الأنبياء والرسل مثال: فقد ورث سيدنا يحيى سيدنا زكريا عليهما الصلاة والسلام. وورث سيدنا سليمان سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام، وهكذا كانت وراثة الرسل من أبينا آدم إلى سيدنا نوح وإبراهيم ثم إلى سيدنا موسى وعيسى عليهم الصلاة والسلام ثم إلى أن اختتمت بمحمد ورسالته عليه الصلاة والسلام.

فقال الله تعالى إخبارا عن زكريا عليه الصلاة والسلام ودعائه إياه: {ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} 154 أي يبقى بعدي فيصير له ميراثي قال ابن سيده: إنما أراد يرثني ويرث من آل يعقوب النبوة ولا يجوز أن يكون خاف أن يرثه أقرباؤه المال لقول النبي صلى الله عليه وسلم: "إننا معاشر الأنبياء لا نورث ما تركنا فهو صدقة" 155.

154 مريم 7.1.

155 تفسير النسفي، ج 2، ص 262.

وقوله: (وورث سليمان داود) ورث منه النبوة والملك دون سائر بنيه وكانوا تسعة عشر قالوا: أوتي النبوة مثل أبيه فكأنه ورثه وإلا فالنبوة لا تورث 156.

قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرَّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنَاطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 157.

وأما قوله تعالى: (الحمد لله الذي فضّلنا على كثيرٍ من عباده المؤمنين) ففيها:

أحدها: أنّ الكثير المفضل عليه هو من لم يؤت علما أو من لم يؤت مثل علمهما، وفيه أنهما فضلا على كثير وفضل عليهما كثير.

وثانيها: في الآية دليل على علو مرتبة العلم لأنهما أوتيا من الملك ما لم يؤت غيرهما فلم يكن شكرهما على الملك كشكرهما على العلم.

وثالثها: أنهم لم يفضلوا أنفسهم على الكل وذلك يدل على حسن التواضع.

¹⁵⁶ تفسير النسفي، ج 3، ص 1.

¹⁵⁷ النمل 15 - 19.

ورابعها: أنّ الظاهر يقتضي أن تلك الفضيلة ليست إلا ذلك العلم، ثم العلم بالله وبصفاته أشرف من غيره، فوجب أن يكون هذا الشكر ليس إلا على هذا العلم، ثم إنّ هذا العلم حاصل لجميع المؤمنين فيستحيل أن يكون ذلك سببا لفضيلتهم على المؤمنين فإذا الفضيلة هو أن يصير العلم بالله وبصفاته جليا بحيث يصير المرء مستغرقا فيه بحيث لا يخطر بباله شيء من الشبهات ولا يغفل القلب عنه في حين من الأحيان ولا ساعة من الساعات.

أمّا قوله تعالى: (وَوَرِثَ سَلِيمَانَ دَاوُودُ) فقد اختلفوا فيه، فقال الحسن المال؛ لأنّ النبوة عطية مبتدأة ولا تورث، وقال غيره: بل النبوة، وقال آخرون: بل الملك والسياسة، ولو تأمل الحسن لعلم أن المال إذا ورثه الولد فهو أيضا عطية مبتدأة من الله تعالى، ولذلك يرث الولد إذا كان مؤمنا ولا يرث إذا كان كافرا أو قاتلا، لكن الله تعالى جعل سبب الإرث فيمن يرث الموت على شرائط، وليس كذلك النبوة لأن الموت لا يكون سببا لنبوة الولد فمن هذا الوجه يفترقان، وذلك لا يمنع من أن يوصف بأنه ورث النبوة لما قام به عند موته، كما يرث الولد المال إذا قام به عند موته وما يبين ما قلناه أنّه تعالى لو فصل فقال: وورث سليمان داود ماله لم يكن لقوله: (وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ) معنى، وإذا قلنا وورث مقامه من النبوة والملك حسن ذلك: لأنّ تعليم منطق الطير يكون داخلا في جملة ما ورثه، وكذلك قوله تعالى: (وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ)؛ لأنّ وارث الملك يجمع ذلك ووارث المال لا يجمعه وقوله: (إِنَّ هَذَا هُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ) لا يليق أيضا إلا بما ذكرنا دون المال الذي قد يحصل للكامل والناقص، وما

ذكره الله تعالى من جنود سليمان بعده لا يليق إلا بما ذكرناه، فبطل
بما ذكرنا قول من زعم أنه لم يرث إلا المال¹⁵⁸.

أما النبي محمد عليه الصلاة والسلام فقد قال: "اللهم أمتعني
بسمعي وبصري واجعلهما الوارث مني قال ابن شميل: أي أبقهما
مع صححين سليمين حتى أموت، وقيل: أراد بقاءهما وقوتهما عند
الكبر وانحلال القوى النفسانية فيكون السمع والبصر وارثي سائر
القوى والباقيين بعدها وقال غيره أراد بالسمع وعي ما يسمع والعمل
به وبالبصر الاعتبار بما يرى وتور القلب الذي يخرج به من الحيرة
والظلمة إلى الهدى، وفي رواية واجعله الوارث مني فردّ الهاء إلى الإمتناع
فلذلك وحده وفي حديث الدعاء أيضا وإليك ما بي ولك ثرائي،
والثرائ ما يخلفه الرجل لورثته والتاء فيه بدل من الواو وروي عن النبي
صلى الله عليه وسلم: (أنه قال بعث ابن مربيّ الأنصاري إلى أهل
عرفة فقال: اثبتوا على مشاعركم هذه فإنكم على إرث من إرث
إبراهيم"159).

وعليه فالميراث أنواع:

1- ميراث مادّي: أموال وعقارات وغير ذلك في الدنيا، وميراث
الجنة في الآخرة.

2- ميراث معنوي: في الدنيا والآخرة مثل ميراث العلم والنبوة
والفوز برضا الله في الجنة.

3- ميراث مادّي ومعنوي كما هو الحال مع سيدنا سليمان
الذي ورث سيدنا داود عليهما الصلاة والسلام.

¹⁵⁸ تفسير الرازي، ج 12، ص 20.

¹⁵⁹ تفسير الرازي، ج 12، ص 20.

وهذه الأنواع من الميراث كما أسلفنا وهب من الله لمن يستحقّ وفق إرادة الله عزّ وجلّ من خلال تطبيق المنهج الصحيح لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض.

وليس أدل وأوضح من آيات الله لتوضيح معنى الوارث والميراث قال الله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ} 160.

فالميراث الحقيقي لله وحده دون شريك أو منازع فهو جلّ وعلا ذكره يؤكد بصيغة التوكيد والعظمة وبصيغة الجمع التي تدل على الكبرياء والشموخ أنّ الميراث الحقيقي المؤكد لله وحده فهو الذي سيرث الأرض ومن عليها، وجميع من في الأرض سيرجعون إليه ليحاسبهم على الميراث المؤقت الذي منحه لهم في الدنيا لتحقيق الخلافة، وسيرجع الكل لله كما خلق أول مرة يقول الله تعالى: {يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ} 161.

فمن جاء الله ورجع إليه بقلب خاضع خاشع سليم من الشرك والكبر هو الذي يرفه الله إلى الجنة لأنه جاء بميراث العمل لا ميراث زائف من مال فان أو ولد لا يملك نفعا ولا ضرا لأبيه، فيبشر الله هؤلاء الصنف من المتقين، وينذر المجرمين، بأن لكل جزاء من جنس عمله مع تأكيد أن الجميع لا بدّ أن يرجع عبدا لا يملك شيئا ويعود فردا مجردا من المال والولد والجاه والسلطان يعود لا ملك له إلا ما سيمنحه الله له يوم القيامة، فيقول الله تعالى: {يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وَرِدًّا لَا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِذَا

160 مريم 40.

161 الشعراء 88، 89.

تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنْفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا
لِلرَّحْمَنِ وَلَدًّا وَمَا يَنْبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَنْ يَتَّخِذَ وَلَدًا إِنْ كُنَّ مِنْ فِي السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنُ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ أَتِيهِ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا {162}.

والجنة هي ميراث الخليفة ومن سار على نهجه من عباد الله الذين
اتقوا الله وحققوا ما أراد في أرضه ومع عباده فكانوا أهلا للميراث
الحقيقي الدائم الذي لا يزول.

فقال الله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ
ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا
وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا فَخَلَفَ مِنْ
بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ عَذَابًا إِلَّا
مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْئًا
جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَاتِيًّا لَا
يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا تِلْكَ الْجَنَّةُ
الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا {163}.

أما ميراث الكافرين فهو لا محالة يليق بهم وبما عملوا وبما أسلفوا
قال الله تعالى:

{قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنَّةِ وَالْإِنْسِ فِي
النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ
أُخْرَاهُمْ لِأَوْلَاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَأَتْنَاهُمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ
لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ

162 مريم 85 . 95 .

163 مريم، 58 . 63 .

عَلَيْنَا مِنْ فَضْلِ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا
بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ
حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ
مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا
الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غَلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ لَقَدْ
جَاءَتْ رُسُلٌ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ
تَعْمَلُونَ {164}.

والميراث الحقيقي لعباد الله الذي اتقوه وخافوه في الدنيا ولا يخافوا
من غيره فآمنهم من المفسدين في الأرض وآمنهم من الخوف الأكبر
يوم القيامة ويزيد الله على ذلك بوهبهم الجنة فيقول الله تعالى: { يَا
عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا
مُسْلِمِينَ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ تُخْبَرُونَ يُطَافُ عَلَيْهِمْ بِصِحَافٍ
مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا
خَالِدُونَ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ
كَثِيرَةٌ مِنْهَا تَأْكُلُونَ } 165.

وميراث الآخرة يسبقه ميراث في الأرض ولا يمنع ذلك ولا تلك
إلا المعصية والبعد عن منهج الخلافة الذي ارتضاه الله للخلافة في
أرضه والله يحذر الذين سيرثون الأرض من شر ذنوبهم لأن الذنوب
توجب العبد عن خير الله في الدنيا والآخرة، فيقول الله تعالى: { أَوْمَّ

164 الأعراف 38 . 43.

165 الزخرف 68 . 73.

يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ أَهْلِهَا أَنْ لَوْ نَشَاءُ أَصْبَنَاهُمْ بِدُنُوهُمْ
وَنَطْبَعُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ {166.

والذين يؤمنون بالله ربًا ويخشعون له في صلاتهم ويعرضون عن لغو
الكلام بذكره الدائم ويؤدون الزكاة وينفقون عن حب في الله دون بخل،
ويحفظون فروجهم إلا عن الحلال ويحفظون العهد بعبادة الله وحده
وعدم الشرك به يصلون إلى مقام القرب ويرثون أعلى الجنان يرثون
الفردوس وهذا أعلى وأعلى ميراث وهذا هو الفلاح الحقيقي، فقول
الله تعالى في الوارثين من هذا الصنف:

{قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ
عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ
حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ
ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ
رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ
يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ {167.

ومن الميراث ما هو للعلم والنبوة وهذا الميراث هو الميراث الحقيقي
الذي يسعى إليه من أراد أن يكون خليفة لله في أرضه وهذا النوع
نجده في كتاب الله مع سيدنا زكريا وسيدنا يحيى عليهما الصلاة
والسلام فيقول الله تعالى: {كهيعص ذِكْرُ رَحْمَةِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا إِذْ
نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا
وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ
امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ
وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ

¹⁶⁶الأعراف 100.

¹⁶⁷المؤمنون 11. 1.

قَبْلُ سَمِيًّا قَالَ رَبِّ أُنَى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتْ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ
 مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا قَالَ كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ
 قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ
 ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ
 سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيًّا {168}.

ومن الميراث المادّي والمعنوي ميراث الملك والعلم والنبوة ما حدث
 مع سيدنا سليمان وسيدنا داود عليهما الصلاة والسلام وهذا الميراث
 وغيره يحقّ للخليفة من الأمة المحمّدية؛ لأنها التي ورثت الكتاب والنبوة
 والعلم من خلال إتباع شريعة سيد الخلق وحبیب الحقّ سيدنا محمّد
 صلّى الله عليه وسلّم.

يقول الله تعالى في ذلك النوع من الميراث: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ
 وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِنْ عِبَادِهِ
 الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ
 وَأَوْتَيْنَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} {169}.

والذين يرثون العلم والنبوة ويتبعون المنهج الصحيح لإعمار
 الأرض وعدم الفساد فيها يخاطبهم الله بقوله: {فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مَنْ اللَّهُ
 وَفَضْلٍ لَمْ يَمَسْسَهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ إِنَّمَا
 ذَلِكُمْ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وَلَا
 يَحْزَنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا
 يَجْعَلَ لَهُمْ حِزًّا فِي الْآخِرَةِ وَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْكُفْرَ
 بِالْإِيمَانِ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا
 أَنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لَأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا تُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ

168 مريم 1 - 11.

169 النمل 15 - 16.

مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ {170}.

وقال الله تعالى الخالق الملك المالك الوارث للناس في كتابه الخاتم: {أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَأَنْفِقُوا مَا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولِ يَدْعُوكُمْ لِيُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ {171}.

وقال عز وجل: {وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ مَنْ ذَا الَّذِي يُفْرِضُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ {172} الإنفاق عطاء بدون منة، وفي هذه

170 آل عمران 174 . 180.

171 الحديد 8 . 11.

172 الحديد 10.

الآية الكريمة استغراب من أمر الذين يملكون ولا ينفقون ما يملكون ابتغاء وجه الله تعالى، ولذا فإن الإنفاق طاعة لأمر الله تعالى وهذه طاعة المستخلفين الذين يؤمنون بالله ورسوله وكتبه وملائكته واليوم الآخر وبكل ما أمر ونهى، فله الحمد على ما أعطى وأغنى.

وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، يعني: إلى الله يرجع ميراث السماوات والأرض ولا أحد غيره يرثهما، ولأنه الوارث لكل شيء، إذا لماذا لا تنفقون، لتكونوا من بعد ذلك من الوارثين في الجنة؟ وقوله: (وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا) والأموال كلها لله تعالى وهو يأمركم بالنفقة. ويقال: أنفقوا ما دمتم في الحياة، فإنكم إن بخلتم، فإن الله هو يرثكم، ويرث أهل السماوات. فأنفقوا قبل أن تفنوا، وتصير كلها ميراثا لله تعالى بعد فنائكم، وإنما ذكر لفظ الميراث، لأن العرب تعرف ما ترك الإنسان ميراثا، فخاطبهم بما يعرفون فيما بينهم 173.

عَنْ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ قَالَتْ: "أَنَّ أَزْوَاجَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ حِينَ تُؤَيَّى رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَرَدْنَ أَنْ يَبْعَثَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ فَيَسْأَلَنَّهُ مِيرَاثَهُنَّ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَتْ لَهُنَّ عَائِشَةُ أَلَيْسَ قَدْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لَا تُورَثُ مَا تَرَكَنَا فَهُوَ صَدَقَةٌ" 174.

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ قَالَ أَخْبَرَنِي عُرْوَةُ بِنْتُ الزُّبَيْرِ أَنَّ السَّيِّدَةَ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ: أَنَّ السَّيِّدَةَ فَاطِمَةَ عَلَيْهَا السَّلَامُ ابْنَةَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنْ يَقْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا مَا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ

173 بحر العلوم للسمرقندي، ج 4، ص 249.

174 موطأ مالك، ج 6، ص 143.

عليه الصلاة والسلام قَالَ لَا تُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةً فَعَضِبَتْ فَاطِمَةُ
بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ فَلَمْ تَزَلْ
مُهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُؤْفِقَتْ وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
سِتَّةَ أَشْهُرٍ قَالَتْ وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيْبَهَا مَا تَرَكَ رَسُولُ
اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ خَيْبَرَ وَفَدَكَ وَصَدَقَتَهُ بِالْمَدِينَةِ فَأَبَى أَبُو
بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ وَقَالَ لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا كَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ فَإِنِّي أَحْسَى إِنْ تَرَكْتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ
أَنْ أَرْيَعُ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ وَأَمَّا خَيْبَرُ
وَفَدَكَ فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ وَقَالَ هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ
كَانَتَا لِحَقْوِقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ وَأَمْرُهُمَا إِلَى مَنْ وَلى الْأَمْرَ قَالَ فَهُمَا
عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ "175.

عَنْ ابْنِ شَهَابٍ عَنْ مَالِكِ بْنِ أَوْسِ بْنِ الْحَدَثَانِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ
جُبَيْرٍ ذَكَرَ لِي ذِكْرًا مِنْ حَدِيثِهِ ذَلِكَ فَأَنْطَلَقْتُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى مَالِكِ
بْنِ أَوْسٍ فَسَأَلْتُهُ عَنْ ذَلِكَ الْحَدِيثِ فَقَالَ مَالِكُ بَيْنَا أَنَا جَالِسٌ فِي
أَهْلِي حِينَ مَتَعَ النَّهَارُ إِذَا رَسُولُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ يَأْتِينِي فَقَالَ أَحِبَّ
أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَأَنْطَلَقْتُ مَعَهُ حَتَّى أَدْخُلَ عَلَى عُمَرَ فَإِذَا هُوَ جَالِسٌ
عَلَى رِمَالِ سَرِيرٍ لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ فِرَاشٌ مُتَكِيٌّ عَلَى وَسَادَةٍ مِنْ أَدَمٍ
فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ ثُمَّ جَلَسْتُ فَقَالَ يَا مَالِ إِنَّهُ قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ قَوْمِكَ أَهْلُ
أَنْبِيَاتٍ وَقَدْ أَمَرْتُ فِيهِمْ بِرِضْخٍ فَأَقْبِضْهُ فَأَقْسِمْهُ بَيْنَهُمْ فَقُلْتُ يَا أَمِيرَ
الْمُؤْمِنِينَ لَوْ أَمَرْتُ بِهِ غَيْرِي قَالَ أَقْبِضْهُ أَيُّهَا الْمَرْءُ فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ
عِنْدَهُ أَنَاهُ حَاجِبُهُ يَرْفَأُ فَقَالَ هَلْ لَكَ فِي عُثْمَانَ وَعَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ
وَالزُّبَيْرِ وَسَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ يَسْتَأْذِنُونَ قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمْ فَدَخَلُوا
فَسَلَّمُوا وَجَلَسُوا ثُمَّ جَلَسَ يَرْفَأُ يَسِيرًا ثُمَّ قَالَ هَلْ لَكَ فِي عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ

قَالَ نَعَمْ فَأَذِنَ لَهُمَا فَدَخَلَا فَسَلَّمَا فَجَلَسَا فَقَالَ عَبَّاسٌ يَا أَمِيرَ
 الْمُؤْمِنِينَ أَفْضِلْ بَيْنِي وَبَيْنَ هَذَا وَهُمَا يَخْتَصِمَانِ فِيمَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ
 عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مِنْ مَالِ بَنِي النَّضِيرِ فَقَالَ الرَّهْطُ عُثْمَانُ
 وَأَصْحَابُهُ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ أَفْضِلْ بَيْنَهُمَا وَأَرِحْ أَحَدَهُمَا مِنَ الْآخِرِ قَالَ
 عُمَرُ تَيْدِكُمْ أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ تَقُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ هَلْ
 تَعْلَمُونَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ لَا نُورِثُ مَا تَرَكْنَا
 صَدَقَةٌ يُرِيدُ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ نَفْسَهُ قَالَ الرَّهْطُ قَدْ قَالَ
 ذَلِكَ فَأَقْبَلَ عُمَرُ عَلَى عَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشُدْكُمَا اللَّهَ أَتَعْلَمَانِ أَنَّ
 رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَا قَدْ قَالَ ذَلِكَ قَالَ
 عُمَرُ فَإِنِّي أُحَدِّثُكُمْ عَنْ هَذَا الْأَمْرِ إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَصَّ رَسُولُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ فِي هَذَا الْفَيْءِ بِشَيْءٍ لَمْ يُعْطِهِ أَحَدًا غَيْرَهُ ثُمَّ قَرَأَ 176

(وما أفاء الله على رسوله منهم إلى قوله قدير).

فَكَانَتْ هَذِهِ خَالِصَةً لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاللَّهُ مَا
 اخْتَارَهَا دُونَكُمْ وَلَا اسْتَأْثَرَ بِهَا عَلَيْكُمْ قَدْ أَعْطَاكُمْوهَا وَبَثَّهَا فِيكُمْ حَتَّى
 بَقِيَ مِنْهَا هَذَا الْمَالُ فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يُنْفِقُ عَلَى
 أَهْلِهِ نَفَقَةً سَنَّتَهُمْ مِنْ هَذَا الْمَالِ ثُمَّ يَأْخُذُ مَا بَقِيَ فَيَجْعَلُهُ مَجْعَلِ مَالِ
 اللَّهِ فَعَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِذَلِكَ حَيَاتَهُ أَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ
 هَلْ تَعْلَمُونَ ذَلِكَ قَالُوا نَعَمْ ثُمَّ قَالَ لِعَلِيٍّ وَعَبَّاسٍ أَنْشُدْكُمَا بِاللَّهِ هَلْ
 تَعْلَمَانِ ذَلِكَ قَالَ عُمَرُ ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ نَبِيَّهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَالَ أَبُو
 بَكْرٍ أَنَا وَوَلِيُّ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَقَبَضَهَا أَبُو بَكْرٍ فَعَمِلَ
 فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُ فِيهَا
 لَصَادِقٌ بَارٌّ رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ تَوَفَّى اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ فَكُنْتُ أَنَا وَوَلِيُّ أَبِي
 بَكْرٍ فَقَبَضْتُهَا سَنَتَيْنِ مِنْ إِمَارَتِي أَعْمَلُ فِيهَا بِمَا عَمِلَ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ

¹⁷⁶ صحيح البخاري، ج 10، ص 331.

الصَّلَاةَ وَالسَّلَامَ وَمَا عَمِلَ فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنِّي فِيهَا لَصَادِقٌ بَارٌّ
 رَاشِدٌ تَابِعٌ لِلْحَقِّ ثُمَّ جِئْتُمَايَ تَكَلِّمَانِي وَكَلِمَتُكُمَا وَاحِدَةٌ وَأَمْرُكُمَا وَاحِدٌ
 جِئْتَنِي يَا عَبَّاسُ تَسْأَلْنِي نَصِيْبَكَ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ وَجَاءَنِي هَذَا يُرِيدُ عَلَيَّا
 يُرِيدُ نَصِيْبَ امْرَأَتِهِ مِنْ أَبِيهَا فَعُلْتُ لَكُمَا إِنَّ رَسُوْلَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
 وَالسَّلَامُ قَالَ لَا نُورَثُ مَا تَرَكْنَا صَدَقَةٌ فَلَمَّا بَدَأَ لِي أَنْ أَدْفَعَهُ إِلَيْكُمَا
 قُلْتُ إِنْ شِئْتُمَا دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا عَلَى أَنْ عَلَيَكُمَا عَهْدَ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ
 لَتَعْمَلَانَ فِيهَا بِمَا عَمِلَ فِيهَا رَسُوْلُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وَمَا عَمِلَ
 فِيهَا أَبُو بَكْرٍ وَمَا عَمِلْتُ فِيهَا مِنْذُ وَلِيْتُهَا فَعُلْتُمَا اذْفَعُهَا إِلَيْنَا فَبَدَلِكَ
 دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا فَأَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْهِمَا بِذَلِكَ قَالَ الرَّهْطُ
 نَعَمْ ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيَّ وَعَبَّاسٍ فَقَالَ أَنْشِدُكُمْ بِاللَّهِ هَلْ دَفَعْتُهَا إِلَيْكُمَا
 بِذَلِكَ قَالَا نَعَمْ قَالَ فَتَلْتَمِسَانِ مِنِّي قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَوَاللَّهِ الَّذِي بِإِذْنِهِ
 تَفُومُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ لَا أَقْضِي فِيهَا قَضَاءً غَيْرَ ذَلِكَ فَإِنْ عَجَزْتُمَا عَنْهَا
 فَادْفَعَاهَا إِلَيَّ فَإِنِّي أَكْفِيكُمَاهَا" 177.

إذا فماذا يكون ميراث النبي عليه الصَّلَاة والسَّلَام الذي به
 تتحقَّق الخلافة؟

هذا السؤال يجيب عليه قول النبي صلي الله عليه وسلّم:

عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله عليه الصَّلَاة
 والسَّلَام: "ولفضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على
 سائر الكواكب، إن العلماء ورثة الأنبياء، إن الأنبياء لم يورثوا دينارا
 ولا درهما، إنما ورثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظ وافر" 178.

وهذه قصّة رواية أبي الدرداء للحديث:

¹⁷⁷ صحيح البخاري، ج 10، ص 331.

¹⁷⁸ أخلاق العلماء للأجري، ج 1، ص 9.

عن أبي الدرداء قال: جاء رجل من أهل المدينة وهو بمصر قال فقال له أبو الدرداء: "ما أقدمك يا ابن أخي؟ قال: حديث بلغني عنك أنك تحدث به عن رسول الله عليه الصلّاة والسّلام قال: أما قدمت بتجارة؟ قال: لا قال: أما قدمت لطلب حاجة؟ قال: لا قال: فما قدمت إلا لطلب هذا الحديث قال: نعم قال: فإني سمعت رسول الله عليه الصلّاة والسّلام يقول: (من سلك طريقا يطلب فيه علما سلك الله عزّ وجلّ به طريقا إلى الجنّة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضا لطالب العلم، وإن العالم يستغفر له من في السماوات والأرض حتى الحيتان جوف الماء، ولفضل العالم على العامل كفضل القمر على الكواكب إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، وإنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر" 179.

اللهمّ أجعلنا من الوارثين للعلم الذي هو ميراث النبوة واجعلنا من الوارثين للفردوس الأعلى الذي هو مطمح عباد الله في الميراث الحقيقي، واجعل لنا في الدنيا نصيب ولا تجعلنا من المحرومين، واجعلنا على الطاعة ما حيننا وافتح علينا أبواب الخير بالعزة والتوبة والمغفرة حتى البقاء الدائم في الحياة الحيوان.

وعليه لكي يكون الإنسان من الوارثين وله نصيب في الدارين عليه بالآتي:

أولا: الطاعة: والطاعة تستوجب شيئين:

1. إتباع ما أمر به: قال تعالى: الخليفة دائما طائعا لله تعالى فيما أمر به، والطاعة عبادة يجب العمل بها مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ اتَّبَعَ رِضْوَانَ اللَّهِ كَمَنْ بَاءَ بِسَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

¹⁷⁹ أمالي المحاملي، ج 1، ص 361.

هُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ بِصِيرٍ بِمَا يَعْمَلُونَ {180، وقال تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبَعْتُمْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَاٰلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ {181، وقال تعالى: {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكُوا وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} {182، وقال تعالى: {فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بَعِيرٍ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} {183.

إتباع الأمر طاعة لمصدره، واعتراف بأنه يقع في دائرة الوجوب والفرض، وللطاعة غايات قريبة وبعيدة منها:

أ. الغايات القريبة:

. نيل الرضا الآني.

. نيل الجزاء الآني.

. الإلتباع بمستوجبات الإيمان.

. أخذ النصيب من الدنيا.

. الاستخلاف والوارثة في الأرض.

¹⁸⁰ آل عمران 62، 63.

¹⁸¹ الأنعام، 50، 51.

¹⁸² الأنعام 106، 107.

¹⁸³ القصص 50.

ب . الغايات البعيدة:

. نيل المغفرة.

. نيل التوبة.

. نيل الرضا الدائم.

. الفوز بالجنة والوراثة فيها.

2 . الانتهاء عما نهي عنه: وهذا الأمر يستوجب شيئين:

. تجنب القول السوء. والسوء يؤدي إلى الفتنة والفرقة التي تفرق بين المرء وزوجه والأب وأبنائه والأخ وإخوته، والجار وجيرانه، والقول السوء فيه بهتان وزور فيؤدي إلى الغضب والصراع والصدام وقد يؤدي إلى الاقتتال وكل ذلك يعد زريعة سوء، ما يتطلب اجتنابه، ولهذا من زرع خيرا حصد خيرا، ومن زرع شرا حصد شرا. قال تعالى: {الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنْفَقُوا مَنًّا وَلَا أَدَىٰ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَدَىٰ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ} 184، وقال تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّى أَبْصَارَهُمْ} 185، قال تعالى: {قَالَ يَا نُوحُ إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ

184 البقرة 262، 263.

185 محمد 20 . 23.

عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلَا تَسْأَلِنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ
 مِنَ الْجَاهِلِينَ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ
 وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِي أَكُنْ مِنَ الْخَاسِرِينَ {186، وقال تعالى: {وَلَا
 تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ
 عَنْهُ مَسْئُولًا {187، وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ
 وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابٌ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ الْحَرِيقِ إِنَّ
 الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ذَلِكَ
 الْفَوْزُ الْكَبِيرُ {188.

. تجنب فعل السوء: الفعل هو الذي يتم الإقدام عليه من عاقل،
 أي بعد تصميم وقرار، والفعل من المؤمن لا سوء فيه ومن غير المؤمن
 قد يلم به السوء المسبب في الضرر، فالسرقة فعل سوء، والزنا فعل
 سوء، التآمر على الناس فعل سوء، وهكذا كل فعل ضلال فيه من
 أفعال السوء، قال تعالى: {وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَنْ تَخْرِقَ
 الْأَرْضَ وَلَنْ تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ
 مَكْرُوهًا {189، وقال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا
 إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ
 السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يُبْورُ {190، وقال
 تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا
 أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ لُعِنَ
 الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ

186 هود 46، 47.

187 الإسراء 36.

188 البروج 10، 11.

189 الإسراء 37، 38.

190 فاطر 10.

بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ {191}، وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَأَعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعَمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسِنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ } 192.

وعليه فالخليفة هو الوارث بالإضافة وذلك بالإصلاح في الأرض قولاً وعملاً وفعلاً وسلوكاً، ولذلك فمن عمل عملاً صالحاً فلنفسه قال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبَّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ } 193، وقال تعالى: { مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ } 194.

ثانياً: الصدق: الصدق قول حقّ وفعل حقّ، فمن تبعه كان من الوارثين، ومن لم يكن على الهدى كان من الضالين، والصدق لا يحدث ولا يتم إلا بالتقرب لله وطاعته فيما أمر، وتجنب ما نهي عنه،

191 . المائدة 77 - 81.

192 المائدة 90 - 93.

193 فصلت 46.

194 الجاثية 15.

والأخذ بما أتى به الرسول والانتهاه عما نهى عنه، قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ {195، وقال تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَلْ لِي مِنْ لَدُنْكَ سُلْطَانًا نَصِيرًا وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ {196، وقال تعالى: ﴿وَاجْعَلْ لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ وَاجْعَلْنِي مِنْ وَرَثَةِ الْجَنَّةِ النَّعِيمِ وَاعْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ الضَّالِّينَ وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ {197.

الصدق هو المبرئ من الذنب والمرسخ للحق، وفاكك للظلم ونازع للغبن وقاهر الماكرين والمكيدين بغير حق، ولهذا جاء قول الله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ {198، ولهذا الحق يجب أن يقال ولو كان على النفس، وبقول الحق لا تكتم الشهادة، وبدونه تُخفي، قال تعالى: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَنْ يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آتِمٌ قَلْبُهُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ ما في السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي

195 الحشر 7 - 9.

196 الإسراء 80، 81.

197 الشعراء 84 - 90.

198 الإسراء 80، 81.

الْأَرْضِ وَإِنْ تُبَدُّوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفَوُهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ فَيَعْلَمُ مَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {199}.

ثالثا: العدل: العدل ميزان وقسط به يتم الفصل بين المحتكمين، أو الشركاء والخلطاء، ولذا فالعدل صفة من صفات الله في خلقه الوارثين في الدارين، قال تعالى: {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجْتِكَ إِلَى نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَحَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ فَغَفَرْنَا لَهُ ذَلِكَ وَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنِ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ {200}، وقال تعالى: {وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَمْ وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنِ سَبِيلِهِ ذَلِكَمْ وَصَّأَكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ {201}، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدِينٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسَ مِنْهُ شَيْئًا فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا

199 البقرة 283، 284.

200 ص 23 - 26.

201 الأنعام 152، 153.

فَتَذَكَّرْ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَى وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ
تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَلِكُمْ أَفْسَطُ عِنْدَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ
وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ
عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهَدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا
شَهِيدٌ وَإِنْ تَفَعَّلُوا فَإِنَّهُ فَسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ
شَيْءٍ عَلِيمٌ {202}، وقال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ
إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا
يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ
وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ
وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا {203}.

رابعاً: التبشير والتبليغ: من مهام الخليفة المورث في الدار الدنيا
والآخرة أن يبشر بما جاءه من الوارث المطلق على أيدي الرسل
صلوات الله وسلامه عليهم. قال تعالى: {وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ
يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ
فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو
الْأَلْبَابِ {204}، وقال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا
يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ
فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ
لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ
مُلُوكًا وَأَتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ
الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَىٰ أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا

202 البقرة 282.

203 النساء 58، 59.

204 الزمر 17، 18.

حَاسِرِينَ} 205، وقال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأُنزِلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 206.

التبشير فيه نقل رسالة من رسول مرسل، فمن تبعه اهتدى ومن لم يتبعه فقد ضل، والناس بين مهتدٍ وضالٍ وعالمٍ وجاهلٍ وصادقٍ وكاذبٍ تفرقوا، إلا المستخلفين يرثون الأمانة وهم طائعون لحملها ولحملها.

والبشير هو الآتي بالخير الخير، الذي فيه بُشِرَى يأتي عظيم مفرح، يأمله الناس الذين يتعلق الأمر بهم، وبهذا كان محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا مبشرا بالخير للخير، وداعيا للحق وزاهقا للباطل وفاعلا وعاملا على الحق والتي هي أحسن حيث لا إكراه في الدين بعد أن تبين الرشد من الغي. وهذه رسالة الخليفة وهي التبشير والتي هي أحسن مصداقا لقوله تعالى: {لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} 207.

والتبليغ التزام بمهمة مع عدم التقصير في تبليغها، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ

205 المائدة 19 - 21.

206 البقرة 213.

207 البقرة 256.

الْكَافِرِينَ} 208 وفي التبليغ مجاهرة بالحق مصداقا لقوله تعالى: {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ} 209.

خامسا: الإنذار: الإنذار فيه تفتين لشيء يستوجب الحيطة والحذر والاجتناب، وهذا الفعل لا يقوم به إلا رسول الله رب العالمين أو مصلح يجب الخير ويعمل من أجله، وهو أيضا لا يتم إلا من مدرك وعالم يعلم ما هو كائن وما يمكن أن يكون وما هو في دائرة الممكن (المتوقع وغير المتوقع). قال تعالى: {أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ هُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ} 210، وقال تعالى: {يَس وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ لِيُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤَهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَىٰ أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} 211، وقال تعالى: {وَادْكُرْ آخَا عَادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذِيرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ إِلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَأْفِكَنَا عَنِ آلِهَتِنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ قَالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ مَا أُرْسِلْتُ بِهِ وَلَكِنِّي أَرَأَيْتُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ} 212، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ قُلْ

208 المائة 67.

209 المائة 68.

210 يونس 2.

211 ياسين 1 - 7.

212 الأحقاف، 21 - 23.

هُوَ نَبَأٌ عَظِيمٌ أَنْتُمْ عَنْهُ مُعْرَضُونَ مَا كَانَ لِي مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلَأِ الْأَعْلَى إِذْ
يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلَّا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ {213}.

وعليه فالإنذار رسالة بذاته يرشد لما هو صواب وخير، وفيه تحذير واضح من مخاطر تلم بمن لم يتعظ ويحترز، والوارثون هم المعنيون بالبلاغ والإنذار، أما أولئك الذين يوجه الإنذار إليهم فهم لم يكونوا من الخلفاء بعد، ولكن بإمكانهم أن يصبحوا من المستخلفين فيها إذا ما استغفروا واجتنبوا كل فعل من الأفعال الآثام.

سادسا: التحريض: بالنسبة للمستخلفين الوارثين فإن في أفعال التحريض حث على الأعمال الحسان، أما غيرهم فيمكن أن يحرصوا على ما هو بغير الأفعال الحسان، ولهذا فالأعمال دائما بالنيات ولكل إنسان ما نوى مصداقا لقوله تعالى: {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مَا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْعَنِيِّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مَنْ بَعْدَكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنْ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} {214}. وقال تعالى: {فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا مَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً حَسَنَةً يَكُنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْهَا وَمَنْ يَشْفَعْ شَفَاعَةً سَيِّئَةً يَكُنْ لَهُ كِفْلٌ مِنْهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقَيِّتًا} {215}.

²¹³ ص، 65 - 70.

²¹⁴ الأنعام 132 - 135.

²¹⁵ النساء 84، 85.

إذا التحريض في قاموس المستخلفين في الأرض هو على كل فعل من أفعال الخير والأعمال الحسان، كالتحريض على الجهاد في سبيل الله، وطاعة الوالدين في غير معصية الله، وأداء الصلاة وإتاء الزكاة، وهكذا يكون الإخلاص في العمل مثل الإخلاص في أداء العبادات، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والإقدام على كل ما من شأنه أن يحقق فوزاً للحق وهزيمة للباطل، وكل عملٍ يحول بين سيئة وفاعلها.

سادسا: مُذَكِّرٌ: لا تذكير إلا بأسباب الغفلة؛ ولأن الإنسان خلق على التمام ولم يخلق على الكمال، فهو من طبعة ينسى ويتذكر ويغفل ويتفكر، ولهذا فالذكرى نافعة لمن آمن مصداقا لقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} 216، وقال تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ إِلَّا مَنْ تَوَلَّى وَكَفَرَ فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الْأَكْبَرَ إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابُهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ} 217، وقال تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} 218. إذن الذكرى نافعة للإيقاظ من الغفلة والسهو والجهل، وترشد إلى ما هو أفضل وأجود وأحسن، وفيها أجران:

الأجر الأول: لمن أرشد إلى السبيل المستقيم.

والأجر الثاني: لمن استجاب واهتدى.

216 الذاريات 55.

217 الغاشية 21 - 26.

218 الأنعام 68.

سابعاً: الإحسان: الوارث المطلق جعل في الأرض وارث مستخلف، يرث الأرض والجنة بالعمل الصالح طاعة في مرضاة الله تعالى، ولهذا في الإحسان أفعال جميلة، وإتقان يستوجب الجزاء الأوفى، وذوق رفيع على موازين الحياة العادلة. قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ {219}، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾ {220}، وقال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمَلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي دُرِّيَّتِي إِنَّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ أُولَئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَتَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعَدَّ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ {221}.

وعليه فالإحسان من عمل الخليفة، وبه يورث في الأرض ويفوز بالجنة، ولهذا فالأعمال الحسان هي أعمال إحسان للصغير والكبير والذكر والأنثى والقريب والغريب، وهي من الأعمال الصالحة التي قال عنها الوارث: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ {222}.

الإحسان عمل الخير لمن هم في حاجة إليه. إنه جهود تُبذل وإمكانات وخدمات تُقدَّم بأفعال طوعية تحقق الرضاء النفسي لمن

219 الرحمن 60، 61.

220 البقرة 83.

221 الأحقاف، 15، 16.

222 النحل 97.

تُقدّم له (المحتاج أو القاصر) ولمن قام أو أقدم على أفعال تقديمها للمستحقين لها.

الإحسان عمل إنساني لا يقتصر على ذوي العلاقة بل يحتويهم ويمتد إلى آخرين، ولذلك تؤسس له الجمعيات الخيرية والمنظمات المحلية والدولية المؤسس الأساسي لهيئات الخدمة الاجتماعية

ثامنا: التصدق: التصدق نتاج ملك وإحساس بحاجة الآخر، وعطاء بدون منة، ولذا فأجره كسب وفير، يجازى به المتصدق من عند الوارث مالك الملك، الذي من ملكه أعطى لمن يُعطي فيزيده عطاء. قال تعالى: {وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} 223، وقال تعالى: {وَأَنْ تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} وَأَنْتُمْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ} 224.

عاشرا: التزكي: الزكاة فرض على المالك القادر، وهي رحمة بين الناس، وهي الحقّ المعلوم للسائل والمحروم، وهي الحقّ البين في الرزق الحلال. قال تعالى: {وَالَّذِينَ فِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ مَعْلُومٌ لِلْسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ} 225، وقال تعالى: {وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى جِمْلِهَا لَا يَحْمِلُ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَىٰ

223 المائدة، 45.

224 البقرة 280، 281.

225 المعارج، 24، 25.

اللَّهِ الْمَصِيرُ} 226، وقال تعالى: {وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى وَلَسَوْفَ يَرْضَى} 227.

حادي عشر: الاحترام: الاحترام سيادة الشعور المفضل بين الأفراد والجماعات والمجتمعات، ومن يناله يشار إليه بالمحترم، ولذا فالاحترام صفة أخلاقية مفضلة ومرغوبة لدى الناس. وكلما سادت بينهم ساد التقدير والنظام والأدب في أقوالهم وأفعالهم وسلوكياتهم.

قال تعالى: {وَإِذَا حُيِّئْتُمْ بِهِ بِحَسَنَةٍ فَتَحِيَّوْا بِحَسَنٍ مِنْهَا أَوْ رُدُّوْهَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسِيبًا} 228.

الاحترام شعور يتبادل بين الوارثين على أساس الاعتبار لكل منهم، ولذا فإن الاحترام قيمة إنسانية واجتماعية تتبادل على أساس من المودة مع مراعاة أسباب العلاقة التي تجمع بين المحترمين، والوارث إن لم تكن قيمة مؤسسة على الاحترام فلن يحترم الأرض والناس الذين يعيشون عليها، ولذا فبالإصلاح في الأرض تنال الأرض الاحترام، وبعدم سفك الدماء تحترم الخلائق التي تعيش فيها، وبالعدل بين الذين يتعلق الأمر بهم يكون الاحترام سيادا سائدا بين المستخلفين في الأرض.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرٍ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ

226 فاطر 18.

227 الليل 17 - 21.

228 النساء 86.

فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنكِحُوا أَرْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا إِنْ تُبَدُّوا شَيْئًا أَوْ تُخْفَوُوهُ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا {229}.

ثاني عشر: التقدير: التقدير قيمة تتبادل بين الكبير والصغير والآباء والأبناء والراعي والرعية، قال تعالى: { وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا وَآتَ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا {230}، وقال تعالى: { ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّهُمْ لَنْ يُعْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَوَاءً مَحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ وَخَلَقَ اللَّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِيُخْرِجَ كُلَّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ {231}.

وعليه في التقدير تتعدد الأدوار وتتنوع من مجتمع لآخر، ومن ثقافة إلى أخرى باختلاف المعتقدات والأعراف، وفي مجملها تتكامل

229 الأحزاب 53، 54.

230 الإسراء 23 - 27.

231 الجاثية 18 - 22.

وتتمم بعضها البعض عندما تلتقي أطراف الحوار بمختلف حاجاتها وأساليب إشباعها، وهذه تجعل أطراف الحوار في مستويات غير متساوية إذا لم تُقدّر أثناء الحوار ومن بعده أيضا فلن يكون للحوار أهمية، فمنطق الحوار يحسسك بأهميتك في الوجود، وأهمية إيطارك المرجعي، وأهمية قضيتك قيد البحث والحوار، فعندما يتم الحوار المؤسس على المنطق، تجد نفسك في حالة تقدير، ولهذا كل الناس تسعى لنيل التقدير من الآخرين. تقدير الظروف بين المتحاورين أساسية، وإن لم تقدر الأطراف ظروف بعضها البعض، لا تتمكن من الاستيعاب الذي يؤدي إلى التفاهم.

ثالث عشر: الاعتراف: الاعتراف قيمة إثباتيه بوجود الآخر الذي له من الأهمية ما يساوي أهمية الآخرين، وهي القيمة الانتشارية التي يرغب الكل في نيلها من الكل، فهي تربط الفرد بالمنزلة، وتربط الخصوصية بالمكانة. ومع أنّ العبودية من محرمات الديمقراطية إلا أن الذي تجبره الحاجة بقبول العبودية، يريد هو الآخر أن يعترف له سيده بأنه عبد ناجح. ولذلك فإنّ جميع الناس يريدون نيل الاعتراف من الجميع. ولذا يحاول الوالدان أن يخلصا في رعاية أبنائهما، وذلك لكي ينالا منهم الاعتراف. ويحاول الأبناء أن يكونوا صالحين لكي ينالوا الاعتراف أولا من آبائهم وثانيا من الآخرين. وهكذا المسؤول الديمقراطي يكد ويجد لكي ينال الاعتراف من ذوي العلاقة به. وفي مقابل ذلك نحفظ بأن لكل قاعدة شدّ. قال تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ وَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَّازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَكُمْ مِنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ فَإِنْ لَمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِنْدِي وَلَا تَقْرَبُونِ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ

يَعْرِفُونَهَا إِذَا انْقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَلَمَّا رَجَعُوا إِلَىٰ أٰبِيهِمْ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا الْكَيْلُ فَأَرْسِلْ مَعَنَا آخَانًا نَّكَتُلُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}232، وقال تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْإِسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ}233.

ولذا فإن الاعتراف منطق التسليم بالحقيقة، وهو حاجة لكل إنسان على المستوى الفردي والجماعي والمجتمعي، ومن لم يتم الاعتراف بوجوده وبإمكاناته، وبقضيته، سيكافح حتى النصر، والنصر هنا تحقيق الاعتراف من قبل الآخر الذي كان يرفضه، ولهذا يرى كل من هيجل وفرنسيس فوكو ياما في أن رغبة الإنسان في نيل الاعتراف ككائن بشري له كرامته التي زجت به في فجر التاريخ في معركة دامية من أجل المنزلة وهي المطلب الذي ينبغي أن تتم تلبيته من الآخر. السيد دائما يود من العبد أن يعترف له بالسيادة، وذلك باعتباره عبدا في منزلة دنيا، وحتى الذي يرتضي العبودية نتيجة الحاجة، يود من سيده أن يعترف له بدوره المخلص في خدمته وخدمة أبنائه وحيواناته من بعده، فالاعتراف يزيد من درجة الإخلاص والتفاعل بين أطراف الحوار حتى ولو كان بين عبداً وسيده، وهكذا كل من يجد ويجتهد يود من ذوي العلاقة والآخرين أن يعترفوا له باجتهاده، وتفانيه في العمل والإنتاج، وأن يعترفوا بأنه المتفوق على أقرانه الذين لم يتمكنوا من تحقيق النجاح الذي تمكن من تحقيقه، والأب الذي أشرف على تربيته

²³² يوسف، 58 - 63.

²³³ الحجرات 10، 11.

أبنائه بنجاح يود من المجتمع أن يعترف له بقدراته على تحقيق هذا النجاح، وأطراف الحوار هي الأخرى إذا لم يعترف كل طرف إلى الطرف الآخر بأنه ذو خصوصية تستوجب التقدير، يصبح كل طرف يسعى تجاه الآخر إلى أن ينال منه الاعتراف بقدراته وإمكاناته واستعداداته وثقافته التي تميزه عن غيره، وعندما يتم الاعتراف والتقدير يصبح التفاعل ميسرا عن ذي قبل بين أطراف الحوار. اعتراف الإسرائيليين بحق الفلسطينيين في إقامة دولة لهم على أرض آبائهم وأجدادهم فلسطين، جعل الفلسطينيين هم الآخرون يبادلون الإسرائيليين نفس الاعتراف بأن لهم الحق في إقامة دولتهم على نفس التراب الذي تواجدا عليه أبناء العمومة الأعداء، وجعل الطرفين يقبلون الجلوس المعلن على موائد حوار التقسيم الجغرافي للدولتين، وهذا الاعتراف جعل الآخرين يعترفون بأنه الحل، ويدعمونه بالأساليب السياسية والاقتصادية، التي تتأثر بين الحين والحين بمخططات السياسة الدولية.

وعليه فإنّ المنطق الذي يؤدي إلى نشوب الحرب أو الصدام والاختلاف أو الاتحاد أو الانفصال، هو في معظمه لأجل نيل الاعتراف. كبسولة تنشيط الجهاز التناسلي عند الرجال (الفياجرة) التي صُنعت لتمكين الذكور من ممارسة الجنس الذي فقده نتيجة ضعف وعدم مقدرة، أصبحت هذه الكبسولة في معظم الأحيان تؤخذ لأجل الاعتراف بالمقدرة والتفاخر بإثبات الرجولة وليس بالذكورة فقط. الاعتراف مطلب وسيظل إلى أن يتم الحصول عليه بإرادة.

رابع عشر: الاعتبار: الاعتبار قيمة معرفية تربط الوجود بالمكانة، كما يرتبط التاريخ بالعبير. النظر فيها لا يُعْض بين الأنا والآخر، في

قاموسها الاجتماعي لا مكانة للاستهانة التي تُفَرِّق بين المرء وزوجه. ونتيجة لقيمة الاعتبار وتقديرها، لا يُغَيَّبُ أنا آخر، ولا يسعى لتجاهله في كل أمر يتعلق بهما، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا. من خلال حقوق تمارس وواجبات تؤدي ومسؤوليات يتم تحملها.

الاعتبار مكانة تُعطى لمن يستحقها من الأفراد والجماعات والمجتمعات، ولذا لا يتم الإغفال أو غض النظر عن من هو ذو مكانة اجتماعية أو علمية أو نفسية أو أخلاقية. فالمكانة يُلتفت إليها وهي لا تُخفي أبدا، ولذا فهي تُقدَّر. والقاعدة تقول اعتبرني أعتبرك وإذا تجاهلت وجودي أتجاهل وجودك.

قال تعالى: ﴿وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ وَمِنْ قَبْلُ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ قَالَ يَا قَوْمِ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنْكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَمَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنْ حَقٍّ وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةٌ أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ قَالُوا يَا لُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا امْرَأَتَكَ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ {234}، وقال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى رَبِّ الْعَالَمِينَ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا قَالُوا انُّؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذُلُونَ {235}.

الاعتبار هو الذي يجعل طرفي الحوار في حالة مساواة، وأن كل منهما في حاجة للآخر، وأنهما لن يكونا مثلا ما لم يعملوا معا، وأن

²³⁴ هود 78 - 81.

²³⁵ الشعراء 105 - 111.

لكليهما طاقات وإمكانات لا يمكن الاستهانة بها، ولذا في حالة الاختلاف والفرقة قد يضر كل منهما بالآخر، ولكي تعم المنفعة ويزول الضرر يجب أن يتم الحوار المحقق للاعتبار. {قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ} {236}. والكلمة سواء هنا تعني كلمة الحق التي نستوي أمامها بالطاعة باعتبار المتحاورين أو المستهدفين بالحوار هم الإبراهيميين. إذن الاعتبار أن تجعل لي مكانة عندك ونجعل لك مكانة عندي، وألا يستهين بعضنا ببعض أو يسخر منه.

خامس عشر: الأخذ بما جاء به الرسول: الرسل صلوات الله عليهم هم الخلفاء الأوائل بالإضافة، وهم الوارثون في الدارين، وهم الذين وجب إيتابهم وطاعتهم من قبل المستخلفين من بعدهم. قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} {237}، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {238}، وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ

²³⁶ آل عمران، 65.

²³⁷ النساء 59.

²³⁸ الحشر 7.

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا
تَسْلِيمًا {239}.

سادس عشر: لا يفرق بين رُسله: الرُّسل صلوات الله عليهم جميعا
مبعوثون بقيم وقواعد الاستخلاف في الأرض، ومن يؤمن بها كما
نزلت سيكون من المستخلفين بالاختيار الإرادي. ولذلك فإن
الاستخلاف في الأرض مؤسس على قاعدتين:

القاعدة الأولى: استخلاف الرُّسل: استخلافهم صلوات الله
وسلامه عليهم ليس بالاختيار الإرادي بل هو اصطفاء من عند الله
وذلك لمعطيات لا يعلمها إلا هو، أي أن اشتراطات كثيرة لا تكون
إلا في القلة الصالحة المؤمنة التي عبر الزمن تظهر ويتم تكليف من
يكون على رأسها إصلاحا وتقوى نبيا أو رسولا لله تعالى. قال تعالى:
{ يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا
تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ
عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا الْحِسَابَ {240}، وقال تعالى: { هُنَالِكَ
دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُ قَالَ رَبِّ هَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ ذُرِّيَّةً طَيِّبَةً إِنَّكَ سَمِيعُ الدُّعَاءِ
فَنَادَتْهُ الْمَلَائِكَةُ وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي الْمِحْرَابِ أَنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَى
مُصَدِّقًا بِكَلِمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ قَالَ رَبِّ أُنِّي
يَكُونُ لِي عُلَامًا وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَامْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا
يَشَاءُ قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا
رَمْرًا وَاذْكُرْ رَبَّكَ كَثِيرًا وَسَبِّحْ بِالْعَشِيِّ وَالْإِبْكَارِ وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا
مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَى نِسَاءِ الْعَالَمِينَ يَا مَرْيَمُ
اقْنِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْعَيْبِ

239 النساء 64، 65.

240 ص 26.

نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَفْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمِنْ الْمُقَرَّبِينَ {241}.

وقال تعالى: {وَادْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ وَادْكُرْ إِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَذَا الْكِفْلِ وَكُلٌّ مِنَ الْأَخْيَارِ هَذَا ذِكْرٌ وَإِنَّ لِلْمُتَّقِينَ لِحُسْنَ مَابٍ {242}.

ولذلك فالمسلمون لا يفرقون بين أحد من رسله فمثل عيسى كمثل آيينا آدم الذي اصطفاه الله على من خلق ملائكة وجان وعلمه الأسماء جميعها قال تعالى: {إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُضْمَرِينَ {243}. ولهذا فالمسافة بين محمد وآدم هي المسافة بين آدم وعيسى صلوات وسلامه عليهم، ولذلك لا يجب أن نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، قال تعالى: {أَمَّنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ {244}.

قال تعالى: {قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا

²⁴¹ آل عمران 38 - 45.

²⁴² ص 45 - 49.

²⁴³ آل عمران 59، 60.

²⁴⁴ البقرة 285.

أَوْتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ فَإِنْ
 آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ
 فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ {245}، وقال تعالى: {آمَنَ
 الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ
 وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا
 وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} {246}، وقال تعالى: {قُلْ آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا
 أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ
 مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ
 مُسْلِمُونَ وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ
 مِنَ الْخَاسِرِينَ كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ
 الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ
 جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا
 يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ
 وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {247}.

القاعدة الثانية: استخلاف المؤمنين: ولأنّ الوارث خلق الإنسان
 في أحسن تقويم، فهو خلقه لرسالة، ولأنّ له رسالة أستخلف بها في
 الأرض، ليصلح فيها ولا يفسد ويسفك الدماء بغير حق، ولهذا فإنّ
 الله أصطفى الرّسل صلوات الله وسلامه عليهم برسالات الإصلاح
 المؤسسة على قاعدة إصلاح الأرض التي استوجبت مخلوقا في أحسن
 تقويم، وبما أنه لا رسول إلا برسالة، إذن لا استخلاف بالقوّة إلا بها،
 وهكذا الاستخلاف من بعدهم لا يكون إلا برسالة، ولأنّ رسالة
 محمّد صلوات الله وسلامه عليه هي الرسالة الخاتمة، إذن لا خليفة إلا

²⁴⁵ البقرة 136، 137.

²⁴⁶ البقرة 285..

²⁴⁷ آل عمران 84 - 89.

ويكون على الرسالة، ولهذا فمن أسلم وجهه لله كان خليفة، ومن لم يسلم فقد فقد شرطاً رئيساً للاستخلاف وهو الرسالة.

وعليه بالرسالة كان استخلاف الرسل الكرام صلوات الله وسلامه عليهم، وعلى الرسالة الخاتمة يكون الاستخلاف. قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ حَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيُبْلِغُكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ} {248، وقال تعالى: {وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} {249. إذن القاعدة مؤسسة على ما (آتاكم) والذي أوتينا به هو الرسالة المحمودة في الكتاب المحفوظ، فمن تبعها فقد اهتدى السبيل إلى الاستخلاف والوراثة ومن ضلّ ضلّ. وفي هذا الأمر قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ} {250، الأمة المشار إليها في الآيتين السابقتين هي الأمة المستخلفة برسالتها، ولكن من ضل منها فلا يعد من المستخلفين.

سابع عشر: أخذ النصيب من الدنيا: بما أننا خلقنا فيها فلا بد من نصيب منها، وإلا لماذا الاستخلاف فيها لو لم يكن لنا فيها نصيب لناأخذه؟ ولأن النصيب حقّ، والحقّ يؤخذ بالعافية أو غيرها، إذن لا مفر من أن يأخذ المخلوق نصيبه ما خلق الله له في هذه الحياة الدنيا، وأخذ النصيب يعني بطبيعة الحال عدم أخذ ما ليس بنصيب،

248 الأنعام 165.

249 الحشر 7.

250 آل عمران 109، 110.

ولأن الإنسان مستخلف على قاعدة أخذ الحقوق وأداء الواجبات إذن أخذ الحقوق هو أخذ النصيب. أما أولئك الذين يمدون أيديهم إلى ما ليس لهم فيه حق، فإن أمرهم أمر معصية للطاعة بأخذ النصيب. أي أنهم خالفوا قاعدة الاستخلاف والوراثة في الأرض التي تأسست الحياة فيها على القواعد التالية:

القاعدة الأولى: الحقوق تؤخذ وتمارس.

والقاعدة الثانية: الواجبات تؤدى في مقابل حقوق تؤخذ.

والقاعدة الثالثة: المسؤوليات تمارس في مقابل ممارسة الحقوق وأداء الواجبات.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ {251}.

فقوله تعالى: (وَلَا تَنَسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا) تعني: خذ حقوقك منها، والحقوق دائما مكفولة لكل من خلق حتى ولو لم يكن إنسانا، ولهذا جعل الله لكل مخلوق نصيب في الدنيا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

والنصيب كحق بمقدار الحاجة، من مأكول ومشرب وجنس وملبس، وصلاحيات واختصاصات وفقا للرسالة المشرعة لذلك، ولهذا فلا تنس نصيبك من الدنيا، ومن ينس نصيبه يعد مخالفا لما أمر الله به وهو (خذ) أي قوله لا تنس نصيبك بمعنى (خذه) من الدنيا.

قال تعالى: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ

251 القصص 77.

الْأَغْنِيَاءِ مِنْكُمْ وَمَا آتَاكُمْ الرَّسُولَ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ {252، طاعة الرسول في هذه الآيات الكريمة جاءت لأخذ النصيب من الفياء، ولهذا ما يؤتى من الرسول عليه الصلّاة والسّلام يؤخذ، وهو الحقّ الذي اعتبرناه نصيب لا ينبغي أن يُنسى أو لا يؤخذ من الدنيا.

وأخذ النصيب فرض من لا يأخذه يعد تخلى عن نصيب له مفروض من عند الله، وبذلك فمن الطاعة التامة أن يأخذ الوارث حقه ما وُرث فيه، لكي يكون من المستخلفين الأختيار. قال تعالى: {لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ الْوَالِدَانِ وَالْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا} {253، فكلمتا: (نصيبا مفروضا) تعني: نصيبا مقررا من عند الله، ولأنه الحقّ المقرر من الحقّ المطلق، إذن أدأؤه وأخذه فرض لا ينبغي الإغفال عنه، ومن تركه ترك فرضا.

ولأنّ الله تعالى خلقنا في أحسن تقويم، وهو يريدنا أن نكون المستخلفين في الأرض والوارثين فيها وفي الجنّة، فهو بهذا المعنى لا يود أن تكون حياتنا مقصورة على الحياة الدنيا، فجعلنا الوارثين في الدارين، ولذا فلا ينبغي أن يقبل الإنسان الذي خلقه الله في أحسن تقويم بالحياة الدنيا فقط، وإن قبل بذلك فلا يكون من الوارثين في الجنّة، ولهذا أعمل لأخرتك كأنك تموت غدا وأعمل لدياك كأنك تعيش أبدا، وعليه قال تعالى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ

252 الحشر 7.

253 النساء 7.

نَصِيبٍ {254}. ولأنه لا جنة إلا بعد الحياة الدنيا، وأن الحياة الدنيا فانية، والحياة الآخرة هي الحياة الحيوان، وأنه لا دخول للجنة إلا برسالة أو على رسالة وعمل صالح في الحياة الدنيا، لذا فلا يجب أن تنسى نصيبك من الدنيا، لتكون من الوارثين في الجنة، ومن نسي نصيبه منها فلن يكون له في الجنة من نصيب.

ثامن عشر: الفوز بالجنة: الفوز بالجنة مشروط بالقول اللين الذي يُصلح ما بين المرء وزوجه، وبه يعدل بين المحتكمين بالحق، ولا يشهد به شهادة زورا، ولا يلوك كذبا بين الشفتين، ولا ينطق كفرا وشركا وبهتاننا ذلك الحق من ربك، وإلى جانب القول الحق، الفعل الحق فلا يسرق ولا يزني ولا يأكل أموال الناس بالباطل، ولا يسفك في الأرض دما بغير حق، ولا يخمر مع الخمارين، ولا يأكل ما حرم، وأن يصلي لله تعالى واحد أحد لا شريك له، وأن يكون مؤمنا بمن أرسل وبما أنزل.

قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {255، وقال تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْعُرُورِ} {256، وقال تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ نَقِيرًا} {257، وقال تعالى: {لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ وَنُودُوا أَنْ تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} {258، وقال

254 الشورى 20.

255 البقرة 82.

256 آل عمران 185.

257 النساء 124.

258 الأعراف 43.

تعالى: { وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبَّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا نَعَمْ فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا وَهُمْ بِالْآخِرَةِ كَافِرُونَ وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَنَادَى أَصْحَابُ الْأَعْرَافِ رِجَالًا يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ قَالُوا مَا أَعْنَى عَنْكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللَّهُ بِرَحْمَةٍ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ هُؤُلَاءِ وَلَعِبًا وَغَرَّتُهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ } 259.

قال تعالى: { إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمَ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ } 260.

وتدل الآية وفقا للقراءتين على دالتين في دائرة الاحتمال هما:

1 . أن يكون يعقوب بالرفع وعنهما عندئذ أن إبراهيم وصى وكذلك يعقوب وصى، وهذه تؤكد أن الوصية كانت منهجا وسلوكا في هذا البيت الكريم، فكما وصى إبراهيم أبنائه إسماعيل وإسحاق، وصى إسحاق ابنه يعقوب الذي وصى بدوره أبنائه مصداقا لقوله تعالى: { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا

259 الأعراف 44 . 51.

260 - البقرة 131، 132.

تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {261.

وهكذا فإن إبراهيم وصى يعقوب عن طريق أبيه هذا إذا كان
الرفع قراءة يعقوب في الآية.

2. أن تكون القراءة يعقوب بالنصب وهذه تعني أن يعقوب
حضر وصية إبراهيم صلى الله عليه وسلم، وهذا نرجحه لأن يعقوب
موهوب من الله عز وجل لإبراهيم؛ فلا بد أن يحصل التمام في هبة الله
لعبدته، يقول الحق جل وعلا: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا
جَعَلْنَا صَالِحِينَ} {262}. فيعقوب هبة، والهبة في الاصطلاح عطاء من
غير مقابل {263}، وقد وهب الله يعقوب لإبراهيم كما وهب له
إسماعيل وإسحاق من غير مقابل مصداقا لقوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ
الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ
الدُّعَاءِ} {264}، وهنا مهم أن نقول: إن هبات الله لخلقه لا تنتظر بعد
عمل أو إنفاق أو أي عبادة، بل الله يهب من يشاء بغير حساب.

وعليه نتساءل:

ما دلالة الوصية؟

ما الوصية التي وصي بها يعقوب؟

أهي عقدية؟

أم دنيوية؟

261 – البقرة 133.

262 – الأنبياء 72.

263 – معجم لغة الفقهاء، ج 1، ص 492.

264 – إبراهيم 39.

لقد دلت الوصية هنا دلالات لا على مستوى دلالة اللفظ
فحسب لأنّ دلالاته معروفة ولكن دلت على أمور أخرى مهمة منها:

1- أنّ الوصية تدل على الحرص وتحمل معنى التشديد على
استمرار اختيار وتطبيق إحقاق الحقّ لاحقاً أي هناك ضرورة لاستمرار
المضامين والسلوكيات المتضمنة في الوصية.

2- أنّه عليه الصّلاة السّلام وإن خصص بنيه بذلك فإن
المقصود أكثر من ذلك لأنهم من الأنبياء والرّسل الذين عليهم دعوة
النّاس إلى الحقّ فلا بدّ بعد ذلك أن تبلغ هذه الوصية إلى النّاس لأنّها
وصية رسول هو إبراهيم صلّى الله عليه وسلّم.

3- إنّ دلالة النهي كانت قاطعة بما يدل على وجوب وإلزام لا
على الاختيار، وهذه المسألة لا ترتبط بالجبر والاختيار بل ترتبط بنوع
القناعة الموجودة في أهل الوصية، فهؤلاء عبروا مرحلة الشك إلى اليقين
فيل الوصية فلا مجال بعد هذا العبور للعودة إلى البحث عن الخيارات،
بل مواصلة السير نحو القناعات الراسخة بما في العقيدة من حقّ
واجب الإلتباع.

4- "إنّّه لما كان من شأن أهل الحقّ والحكمة أن يكونوا حريصين
على صلاح أنفسهم وصلاح أمتهم كان من مكملات ذلك أن
يحرصوا على دوام الحقّ في النّاس متّبعا مشهورا فكان من سننهم
التوصية لمن يظنونهم خلفا عنهم في النّاس بأن لا يجيدوا عن طريق
الحقّ ولا يفرطوا فيما حصل لهم منه"265.

265 - تفسير ابن عاشور ج 1، ص 489.

والتوصية أو الوصية أمر أو نهي يتعلق بصلاح المخاطب
خصوصا أو عموما، وفي فوته ضرر، فالوصية أبلغ من مطلق أمر ونهي
فلا تطلق إلا في حيث يخاف الفوات.

1- أنه أوصى أن يلازموا ما كانوا عليه معه في حياته.

2- اصطفى لكم الدين أي أعطاكم الدين الذي هو صفوة
الأديان وهو دين الإسلام ووقفكم للأخذ به (فَلَا تَمُوتُنَّ) معناه فلا
يكن موتكم إلا على حال كونكم ثابتين على الإسلام 266.

266 - تفسير الزمخشري، ج 1، ص 135.

من

صفات النبي يعقوب

1. بشرى:

معنى يَبَشِّرُ وَيُبَشِّرُ من البشارة قال وأصل هذا كله أن بَشْرَةَ الإنسان تنبسط عند السرور ومن هذا قولهم فلان يلقاني ببشْرٍ، أي؛ بوجه مُنْبَسِطٍ²⁶⁷.

التساؤل الذي يُطرح هنا:

البشارة أولى أن تكون لإسحاق؛ فلماذا كانت لإبراهيم وزوجه؟

كيف يكون يعقوب بشرى لإبراهيم؟ ولماذا؟

الأمر فيه وجهان:

الأول: من الناحية الاجتماعية في أن يكون يعقوب بشرى لإبراهيم وزوجه وإسحاق في آن واحد ووقت واحد، بمعنى أن تكون ولادة يعقوب بشرى لهم جميعاً.

الثاني: من الناحية العقدية، فيعقوب هو النبي الذي ورث النبوة من أبيه إسحاق الذي ورث من أبيه إبراهيم، فالبشرى كانت هنا بشرى عقدية بمعنى أنّ النبوة والرسالة لن تنقطع.

وهكذا كان يعقوب بشرى من جانبيين:

²⁶⁷ لسان العرب، ج 4، ص 59.

الأول: فيما يتعلق بإنسانية إبراهيم الذي كان يرغب في بقاء نسله رغبة ناهجة من إنسانية هذا الرسول، ثم لما في الولد من فرحة وغبطة متعلقة بما يتحقق من مساندة ومعاونة وتزوين بما هو طيب حلال، فالأولاد زينة الحياة الدنيا مصداقا لقوله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 268.

الثاني: مرتبط بعقيدته إبراهيم الراسخة في الله، ومن علمه بحاجة البشرية إلى مندرين ومبشرين، وفرح وهو يُبشّر باستمرارية التبليغ عن طريق الأنبياء والرسل بما يبعد الناس عن العذاب وهو حق أمر مفرح لإبراهيم الأمة الذي وصفه الله تعالى بأنه: {إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ} 269.

2 . نافلة:

يقول الحقّ جلّ وعلا عن نوع هبته يعقوب لإبراهيم: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 270.

ووهبنا له يعقوب نافلة على ما سأل كالصلاة النافلة التي هي زيادة على الفرض وعلى هذا النافلة يعقوب خاصّة. لأن إبراهيم سأل ربّه الكريم أن يرزقه الولد، فكانت الإجابة أكرم من الطلب أن كان له الولد ثم ابن الولد.

وأصل النفل في اللغة الزيادة على المستحق 271.

268 - الكهف 46.

269 - هود 74.

270 - الأنبياء 72.

271 - الفروق اللغوية، ج 1، ص 378.

والنافلة هنا، ولدُ الولدِ وهو من ذلك لأن الأصلَ كان الولدِ
فصار ولدُ الولدِ زيادةً على الأصلِ قال الله عزَّ وجلَّ في قصة إبراهيم
على نبينا وعليه الصلاة والسلام (ووهبنا له إسحقَ ويعقوبَ نافلةً)
كأنه قال وهبنا لإبراهيمَ إسحقَ فكان كالفرضِ له ثم قال ويعقوب
نافلةً فالنافلةُ ليعقوبَ خاصةً لأنه ولدُ الولدِ أي وهبنا له زيادةً على
الفرضِ له وذلك أن إسحقَ وُهبَ له بدُعائه وزيدَ يعقوب
تفضُّلاً 272.

3. مجتبي بالنعمة:

يقول الحقُّ جلَّ وعلا: { وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِنْ تَأْوِيلِ
الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ
مِنْ قَبْلُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ } 273.

هنا قد يتساءل سائل:

هذه الآية خطاب من يعقوب ليوسف، والاجتباء ليوسف،
فكيف يكون يعقوب مجتبي؟

نقول:

إنَّ سياق الآية يوجب أن يكون يعقوب مجتبي لأن الآية تبين أنَّ:

إبراهيم مجتبي

إسحاق مجتبي

آل يعقوب مجتبون

272 - لسان العرب، ج 11، ص 670.

273 - يوسف 6.

يوسف مجتبي

عليه وجب أن يكون يعقوب مجتبي بدلالة السياق، وبالمنطق أيضا كان الجد مجتبي والأب مجتبي والابن مجتبي وابن الابن مجتبي، وهذا مؤكد لقولنا أن يعقوب مجتبي.

والاجتباء هنا فيه أوجه احتمال لأنه ورد في الآية بصيغة قصد منها التوسع في الدلالة لأن الاجتباء الإلهي مطلق لا يمكن تصور حدود دلالة بأمور بعينها، لذلك وعلى الاحتمال قد يكون الاجتباء:

1- بالنبوة وإتمام النعمة سعادات الدنيا وسعادات الآخرة، أما سعادات الدنيا فالإكثار من الأولاد والخدم والأتباع والتوسع في المال والجاه والحشم وإجلاله في قلوب الخلق وحسن الثناء والحمد. وأما سعادات الآخرة: فالعلوم الكثيرة والأخلاق الفاضلة والاستغراق في معرفة الله تعالى.

2- هناك من فسر الاجتباء بنيل الدرجات العالية، وهنا يفسر إتمام النعمة بالنبوة ويتأكد هذا بأمور منها:

أ- أن إتمام النعمة عبارة عما به تصير النعمة تامة خالية عن جهات النقصان. وما ذاك في حقّ البشر إلا بالنبوة، فإن جميع مناصب الخلق دون منصب الرسالة ناقص بالنسبة إلى كمال النبوة، فتمام النعمة من عند الله في حقّ البشر لا يتم إلا بالنبوة.

ب. معلوم أنّ النعمة التامة التي بها حصل امتياز إبراهيم وإسحق عن سائر البشر ليس إلا النبوة، فوجب أن يكون المراد بإتمام النعمة هو النبوة.

ولما فسرنا هذه الآية بالنبوة لزم الحكم بأن أولاد يعقوب كلهم كانوا أنبياء، وذلك لأنه قال: (وَوَيْتُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ) وهذا يقتضي حصول تمام النعمة لآل يعقوب، فلما كان المراد من إتمام النعمة هو النبوة لزم حصولها لآل يعقوب ترك العمل به في حق من عدا أبناءه فوجب ألا يبقى معمولا به في حق أولاده.

3 - أن المراد من قوله: (وَوَيْتُمْ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ) خلاصه من المحن، ويكون وجه التشبيه في ذلك بإبراهيم وإسحق عليهما الصلاة والسلام هو إنعام الله تعالى على إبراهيم بإنجائه من النار.

4 - إن إتمام النعمة هو وصل نعمة الله عليه في الدنيا بنعم الآخرة بأن جعلهم في الدنيا أنبياء وملوكا ونقلهم عنها إلى الدرجات العلى في الجنة²⁷⁴.

ونحن نقول إن الاجتباء هو درجة من درجات الاصطفاء، أي؛ إن الذي يصطفيه ربه يجتبه بعدها بأشياء أما مخصوصة كختم النبوة عند سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، أو عامة كعلم النبوة الذي يُجتبى به أكثر من نبي أو أكثر من رسول، {وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذَكَرَى الدَّارِ وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} 275، فيعقوب مصطفي اجتباه ربه بأن أتم نعمته عليه وعلى آله وهذا اجتباء اشترك به مع الرسول محمد عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {الْيَوْمَ

274 - تفسير الرازي، ج 8، ص 497.

275 - ص 45-47.

أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضَيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا
فَمَنْ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ {276

هذا ولم يكن الدين في يوم من الأيام غير كاف لأتباعه: لأن الدين في كلِّ يوم، من وقت البعثة، هو عبارة عن المقدار الذي شرعه الله للمسلمين يوماً فيوماً، فمن كان من المسلمين آخذاً بكلِّ ما أنزل إليهم في وقت من الأوقات فهو متمسك بالإسلام، فإكمال الدين يوم نزول الآية إكمال له فيما يُراد به، وهو قبل ذلك كامل فيما يراد من أتباعه الحاضرين.

وظاهر العطف يقتضي: أنّ تمام النعمة منّة أخرى غير إكمال الدين، وهي نعمة النصر، والأخوة، وما نالوه من المغانم، ومن جملتها إكمال الدين، فهو عطف عامّ على خاصّ. وجوّزوا أن يكون المراد من النعمة الدّين، وإتمامها هو إكمال الدين، فيكون مفاد الجملتين واحداً، ويكون العطف لمجرّد المغايرة في صفات الذات، ليفيد أنّ الدين نعمة وأنّ إكماله إتمام للنعمة 277.

4- ذو علم:

كان يعقوب من أصحاب العلم المعلّم من الله عزّ وجلّ مصداقاً لقوله تعالى: {وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةٌ فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 278.

276 - المائة 3.

277 - التحرير والتنوير، ج 4، ص 135.

278 - يوسف 68.

وقوله تعالى: { قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ } 279.

فعلم يعقوب علم مخصوص على درجة من التميز الموصوف من الله عز وجل بقوله (وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِّمَا عَلَّمْنَاهُ)، وهذه الآية تبين أن علم يعقوب يتميز بسمات خاصة أعطته صفة مخصوصة من هذه السمات:

إنه علم إلهي.

اكتسبه يعقوب اكتساباً أمثلاً.

3 - عمل يعقوب به.

وربما يتساءل متسائل فيقول:

كيف كان علم يعقوب مخصوصاً؟

نقول هذه الخصوصية أمران يكشفها هما:

1- اللغة والسياق.

2- المضمون.

أما اللغة والسياق؛ فالواضح لغة أنّ الضمائر المتضمنة في الآية هي ضمائر تختص بدلالاتها بمخصوص واحد والسياق يدل على واحد مخصوص هو يعقوب من حيث ما يظهر في:

الهاء في إنه تعود على يعقوب

تركيب ذو علم يعود على يعقوب

ج - الهاء في علمناه تعود على يعقوب.

هذه كلها دلالات تدل على خصوصية علم يعقوب.

أما المضمون فيجلى خصوصية علم يعقوب من خلال من دار من حوار بين يعقوب ويوسف عليهما الصلاة والسلام بعد أن أخبر يوسف أباه ما رأى في منامه فقال كما يخبرنا العليم الخبير: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} 280.

وكان المنام في ظاهره لصالح يوسف حيث كان يبدو فيه أنّ هناك من يسجد ليوسف محبة وطاعة، لكن التأويل الذي جاء من يعقوب كان مغايرا لظاهر المنام فقد خاف من الكيد بيوسف مصداقا لقوله تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} 281، ويوسف الذي يوصف بأنه عالم بتأويل الأحاديث سأل يعقوب المشورة فيما علم أنه شيء مهم فأشار يعقوب على ابنه ما أشار.

فما هو علم يعقوب على وجه التحديد؟

نعتقد أنّ الله علمه من علم الغيب، ولا عجب في ذلك لأنّ الله عزّ وجلّ أخبر أنّه يظهر على غيبه من يشاء من الأنبياء والرّسل مصداقا لقوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} 282.

280 - يوسف 4.

281 - يوسف 5.

282 - الجن 26، 27.

ويؤكد ذلك سياق الآيات ومنها ما ذكرنا من معرفة يعقوب بالكيد الذي سيصيب يوسف من رؤيا في ظاهرها الخير، والأمر الآخر هو علمه بعودة يوسف وأخيه إليه مصداقا لقوله تعالى: {فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَارْتَدَّدَ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 283.

وفي الآية تأكيد من يعقوب أنه يعلم علم مخصوص بقوله: (قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ).

أما مسألة طلب يعقوب من أبناءه الدخول من عدة أبواب وهي الآية التي وصفه الله بها بأنه ذو علم فقد أغنت ج ملة (ولما دخلوا من حيث أمرهم أبوهم) عن ج مل كثيرة، وهي أنهم ارتحلوا ودخلوا من حيث أمرهم أبوهم، ولما دخلوا من حيث أمرهم سلموا ما كان يخافه عليهم. وما كان دخولهم من حيث أمرهم يُغني عنهم من الله من شيء لو قدر الله أن يحاط بهم، فالكلام فيه إيجاز.

ومعنى (ما كان يغني عنهم من الله من شيء): أنه ما كان يرد عنهم قضاء الله لولا أن الله قدر سلامتهم.

والاستثناء في قوله: (إِلَّا حَاجَةً) منقطع لأن الحاجة التي في نفس يعقوب عليه الصلوة والسلام ليست بعضا من الشيء المنفي إغناؤه عنهم من الله، فالتقدير: لكن حاجة في نفس يعقوب عليه الصلوة والسلام قضاها.

والقضاء: الإنفاذ، ومعنى قضاها أنفذها. يقال: قضى حاجة لنفسه، إذا أنفذ ما أضمره في نفسه، أي نصيحة لأبنائه أداها لهم ولم

يدخرها عنهم ليطمئن قلبه بأنه لم يترك شيئاً يظنه نافعا لهم إلاّ أبلغه إليهم.

والحاجة: الأمر المرغوب فيه. سمي حاجة لأنه محتاج إليه، فهي من التسمية باسم المصدر. والحاجة التي في نفس يعقوب عليه الصلّاة والسّلام هي حرصه على تنبيههم للأخطار التي تعرض لأمثالهم في مثل هذه الرحلة إذا دخلوا من باب واحد، وتعليمهم الأخذ بالأسباب مع التوكّل على الله.

وجملة (وإنّه لدو علم لما علمناه) ثناء على يعقوب عليه الصلّاة والسّلام بالعلم والتدبير، وأنّ ما أسداه من النصح لهم هو من العلم الذي آتاه الله وهو من علم النبوءة.

والمعنى: أنّ الله أمر يعقوب عليه الصلّاة والسّلام بأخذ أسباب الاحتياط والنصيحة مع علمه بأن ذلك لا يغني عنهم من الله من شيء قدره لهم، فإنّ مراد الله تعالى خفيّ عن النّاس، وقد أمر بسلوك الأسباب المعتادة، وعلم يعقوب عليه الصلّاة والسّلام ذلك، ولكن أكثر النّاس لا يعلمون تطلب الأمرين فيهملون أحدهما.

وقد دلّ (وإنّه لدو علم لما علمناه) بصريحه على: أنّ يعقوب عليه الصلّاة السّلام عمل بما علّمه الله، ودلّ قوله: (ولكن أكثر النّاس لا يعلمون) بتعريضه على أنّ يعقوب عليه الصلّاة والسّلام من القليل من النّاس الذين علموا مراعاة الأمرين 284.

284 - تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 295.

5. نبي:

ذكر الله عزّ وجلّ أن يعقوب ممن أوحى لهم المولى سبحانه فقال عز من قائل: {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَيُوسُفَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 285.

والتساؤل هنا:

هل كلّ وحي نبوة؟

نقول: إنّ الله عزّ وجلّ ذكر الوحي مع غير الأنبياء والرّسل كمثل الوحي إلى أم موسى مصداقا لقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَى أُمِّ مُوسَى أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ} 286

وقال: {وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْخَوَارِيِّينَ} 287.

وعليه: فليس كلّ وحي هو نبوة، لكن الوحي الذي ذكر ليعقوب كان في سياق ذكر الأنبياء والرّسل {إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُونُسَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا} 288.

ولهذا، نتساءل:

285 - النساء 163.

286 - القصص 7.

287 - المائدة 111.

288 - النساء 163.

لمن بعث يعقوب؟

وما كانت نبوته؟

ومن عاصر من الأنبياء والرسل؟

بعث يعقوب نبيا لبنيه وذريتهم الذين كونوا مجتمعا سماه الله عز وجل بني إسرائيل، وقد كانت نبوته تواملا لرسالة إبراهيم عليه الصلاة والسلام ونبوة إسحاق صلى الله عليه وسلم، وقد أشار الله عز وجل إلى بعض ملامح هذه النبوة بقوله تعالى: {كَلَّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاَّ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنزَلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 289.

عليه: فنعتقد جازمين أن يعقوب كان حنيفا مسلما، وديانته الحنفية التي كان عليها آباؤه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق مستندين في اعتقادنا على قول الله تعالى: {أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَعْلَمُ أَمْ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ} 290.

الاستفهام هو استفهام للتوبيخ والآن كار وذلك لمبلغهم من الجهل بتاريخ شرائعهم زعموا أن إبراهيم وأبناءه كانوا على اليهودية أو على النصرانية كما دل عليه قوله تعالى: {قل أنتم أعلم أم الله} ولدلالة آيات أخرى عليه مثل: {ما كان إبراهيم يهوديا ولا

289 - آل عمران 93.

290 - البقرة 140.

نصرانيا}291، ومثل قوله تعالى: {يا أهل الكتاب لم تُحاجُّون في إبراهيم وما أنزلت التوراة والآن جيل إلا من بعده أفلا تعقلون}292.

ونبوة يعقوب قبل رسالة موسى وعيسى، وقبل التوراة فكيف يمكن أن يُنسب إلى دين من هذه الأديان وقد سبق في نبوته؟

بقي أنّ نجيب على التساؤل الذي مفاده من عاصر من الأنبياء والرسل؟

نقول لقد عاصر كل من:

إبراهيم ورسالته صلى الله عليه وسلم.

إسماعيل ورسالته صلى الله عليه وسلم.

إسحاق ونبوته صلى الله عليه وسلم.

يوسف ورسالته صلى الله عليه وسلم.

هذه المعاصرة تعكس ولا شك أن التبليغ بالرسالة السماوية كان يعم أغلب أصقاع الأرض ما يجعل من هذه الأقوام لبنة تهيأ للأمة الواحدة التي ستكون على الإيمان، كذلك تعكس أن هذه الأمم على اختلافها كان بينها وبين التبليغ السابق كمثل ما في نبوة نوح عليه الصلوة والسلام فترة من الزمن تباعدت فيها الصلة بينها وبين العقيدة الجديدة لذلك كانت هذه الرسائل والنبوات المتزامنة.

6. صالح:

يقول الحقّ جلّ وعلا عن يعقوب وآبائه:

291 - آل عمران 67.

292 - آل عمران 65.

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ} 293.

يعقوب وآبائه من الصالحين صلاحاً في الدين والدنيا هذه حقيقة مؤكدة بالنص وبالواقع منهم في الدنيا، ففي الدين مؤكدة برسالة ونبوة كلّ منهم فهذه الرسائل والنبوات مصدرها الحقّ وإحقيق الحقّ والحقّ كلّ صلاح، حيث ينتفي الفساد عن مضامين الدعوات السماوية.

أما عن الدنيا؛ فموضح بقوله تعالى: {وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ} 294.

فلفظ الصلاح يتناول الكلّ ويحتمل وجهين:

الأول: أن يكون المراد أنّه سبحانه آتاهم وحياً من الأعمال والصفات ما صلحوا به فكانوا صالحين.

الثاني: أن يكون المراد أنّه سماهم بذلك لأنهم على الصلاح سلوكاً.

ومن المهم الإشارة إلى نقطة مهمة هي: أنّ الإنسان أما أن يكون:

. صالح فهو مصلح.

. فاسد فهو مفسد.

وبين ذلك يصلح تارة ويفسد أخرى.

293 - الأنبياء 72.

294 - الأنبياء 73.

ونحن نسلم أنّ من وصفهم الله عزّ وجلّ بالصلاح فهم
مصلحون، ولكن لنفترض وجود من لا يؤمن هنا وجبت المخاطبة
المنطقية والجدل الحسن فنقول له:

أرنا فسادا من هؤلاء؟

أو أثرا من ذلك؟

فإذا أعيبى بالجواب وجب له أن يسلم أنّ هؤلاء مصلحون لأنّ
الأثر الذي تركوه يدل على الإصلاح ويتنفي، أي؛ أثر للإفساد.

7. ذو أيدي وإبصار:

وصف الله عزّ وجلّ يعقوب وآبائه بأنهم من أولى الأيدي
والإبصار فقال جلّ في علاه: ﴿وَأَذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ إِنَّا أَخْلَصْنَاهُمْ بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى الدَّارِ
وَإِنَّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ﴾ {295}.

وهنا، نتساءل:

هل هذه صفات موجبة؟

هل هي مخصوصة بمن ذُكر؟

هل ترتبط بالعقيدة؟

إنّ هذه الصفة (أولي الأيدي والإبصار) تعد من الصفات الموجبة
لأنّها جاءت في سياق الثناء على هؤلاء الأنبياء والمرسلين هذا من
جهة النص، ومن جهة المنطق فإنه لا يُعاب على الإنسان أن يكون
له يد في عمل أو أي سعي تدخل فيه اليد، لا يعاب كذلك على أنّ

يكون بصيرا بالأمر ماديا كان بصره أم معنوي لذا فسياق النص ومنطقية الإيجاب في الصفة أكدت على أنّها صفات موجبة ليعقوب وآبائه.

بقي أن نقول: أنّ هذه صفات عامة في المذكورين وغيرهم، فما وجه الاختصاص؟

نقول: إنّ العموم لا يلغي الاختصاص، بمعنى أنه من المنطق أن يكون غير هؤلاء له أيدي وإبصار، لكن يعقوب وآبائه اختصوا بأن أيديهم وأبصارهم نقية ما يخالج غيرها من وهن، لأن أيديهم تعمل عملا لله خالص وأبصارهم وبصيرتهم لله خالصة فكان أن اختصوا عن غيرهم بأنهم حملة رسالة يعملون لها بإخلاص العارف بما يجب وبما لا يجب، وليس من وجه احتمال فيما يعلمون.

والأيدي على المجاز جمع يدّ بمعنى القوّة في الدين، كقوله تعالى: {والسماء بنيناها بأيدي} 296.

والأبصار: جمع بصر بالمعنى المجازي، وهو النظر العقلي المعروف بالبصيرة، أي؛ التبصر في مراعاة أحكام الله تعالى وتوحيّ مرضاته.

8. من الأختيار:

يقول الحقّ جلّ وعلا عن يعقوب وآبائه: {وَأَيُّهُمْ عِنْدَنَا لَمِنَ الْمُصْطَفَيْنَ الْأَخْيَارِ} 297. ذكر الله عزّ وجلّ هؤلاء الأنبياء بأحسن الذكر، وأثنى عليهم أحسن الثناء، فإن كلّا منهم من الأختيار الذين

296 - الذاريات 47.

297 ص 47.

اختارهم الله من الخلق، واختار لهم أتم الأحوال، من الأعمال، والأخلاق، والصفات الحميدة، والخصال السديدة²⁹⁸.

وجملة إنَّنا أخلصناهم علة للأمر بذكرهم لأنَّ ذكرهم يكسب الذاكر الاقتداء بهم في إخلاصهم ورجاء الفوز بما فازوا به من الاصطفاء والأفضلية في الخير. و(أَخْلَصْنَاهُمْ): جعلناهم خالصين، أي طهرناهم من درن النفوس فصارت نفوسهم نقية من العيوب العارضة للبشر.

وقد امتاز هؤلاء المصطفين الأخيار بأنهم:

1- نفوسهم زكية امتنعت عن العصيان تطهيرا من الله عزَّ وجلَّ.

2- علمهم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات جعلهم يختارون الطاعة على المعصية.

3- تأكد ذلك العلم بتتابع الوحي والبيان من الله تعالى.

وإسناد الإخلاص إلى الله تعالى لأنَّه أمر لا يحصل للنفس البشرية إلا بجعل خاص من الله تعالى وعناية لُدِّيَّة بحيث تنزع من النفس غلبة الهوى في كلِّ حال وتصرف النفس إلى الخير المحض؛ فلا تبقى في النفس إلا نزعات خفيفة تُقلع النفس عنها سريعا بمجرد استدعائها.

والذكرى والدار المعهودة لأمثالهم هي الدار الآخرة، أي؛ بحيث لا ينسون الآخرة ولا يقبلون على الدنيا، فالدار التي هي محلَّ عنايتهم هي الدار الآخرة، قال النبي عليه الصلَّاة والسَّلام "فأقول ما لي والدنيا"²⁹⁹.

²⁹⁸ تفسير السعدي، ج 1، ص 715.

²⁹⁹ الإفصاح عن معاني الصحاح، 4، ص 234.

وأشار قوله تعالى: (بِخَالِصَةِ ذِكْرِ الدَّارِ) وعطف عليه: (إِنَّمَا)
عندنا لمن المصطفين الأخيار) لأنه ما يبعث على ذكرهم بأنهم
اصطفاهم الله من بين خلقه فقرَّبهم إليه وجعلهم أختيارا 300.

9- إمام:

يقول الحقّ جلّ وعلا عن إسحاق ويعقوب عليها الصلّاة
والسّلام في خطابه عزّ وجلّ لإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم:

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ نَافِلَةً وَكَلَّمَا جَعَلْنَا صَالِحِينَ وَجَعَلْنَاهُمْ
أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ
الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} 301.

ومن الآية يتبين أن يعقوب عليه الصلّاة والسّلام كان أماما، من
المهم فهم معنى إمامة يعقوب ونوعها وطبيعة علاقتها بإمامة أبيه
إسحاق وجده إبراهيم عليهم الصلّاة والسّلام، ونبدأ بالدلالة اللغوية
والاصطلاحية للفظه إمام على النحو الآتي:

في اللغة: الإمام كلّ من ائتمّ به قوم كانوا على الصراط المستقيم
أو كانوا ضالّين مصداقا لقوله تعالى: {يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ
بِإِمَامِهِمْ} 302.

وقال البعض الإمام النبي المشرع.

300 - ابن عاشور، ج 12، ص 242.

301 - الأنبياء 72-73.

302 - الإسراء 71.

والإمام ما ائتمَّ به من رئيسٍ وغيره والجمع أئمةٌ وفي التنزيل العزيز
فقاتلوا أئمةَ الكُفر أي قاتلوا رؤساءَ الكُفر وقادتهم الذين ضَعَفَاؤُهُمْ
تَبِعْ لَهُمْ، والإمام الذي يُقْتَدَى به 303.

أما في الاصطلاح فالإمام: مأخوذ من التقدّم، فهو المتقدم فيما
يقتضي وجوب الاقتداء بغيره، وفرض طاعته فيما تقدم فيه 304.

ومن اللغة والاصطلاح يتبيّن أنّ الإمامة في مفهومها العام تعني
تقدم شخص على الاختيار أو التكليف لجماعة من أجل قيادتها في
شأن من شؤون الدين أو الدنيا.

ومن هنا، ناقش إمامة يعقوب عليه الصلّاة والسّلام التي نص
المولى عزّ وجلّ عليها بقوله جل في علاه: (وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ
بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا
عَابِدِينَ).

والآية توحى بأمر هي:

أَنتُمْ أئمة.

أنهم هادين فهم مهتدون.

أنّ إمامتهم وهداهم من الله.

والآية كذلك تقرر عدد من الأفعال المجتمعة للدلالة على الكثرة
وليست المتعددة للدلالة على الواحد، بمعنى أن يعقوب كان:

إماما.

³⁰³ لسان العرب، ج 12، ص 22.

³⁰⁴ الفروق اللغوية، ج 1، ص 222.

هاديا.

فاعلا للخيرات.

مقيما للصلاة.

مؤتيا للزكاة.

عابدا.

فالآية الكريمة التي يقول فيها الحقّ جلّ وعلا: {وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً
يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ
وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ} 305.

إذا قرأت على نحو

(جعلناهم أئمة) ثم الوقف

في ماذا؟

تكون الإجابة المفسرة من السياق على النحو الآتي:

هم أئمة في الهدى.

أئمة في فعل الخيرات.

أئمة في إقامة الصلاة.

أئمة في إيتاء الزكاة.

أئمة في العبادات.

وهذا أقوى لمفهوم الإمامة من جعل هـ محدود الدلالة بينما السياق القرآني يوسع دلالاته وهو في غاية الدقة والإعجاز، فيعقوب إمام في الهداية من جانبين:

الأول: ما أمره الله عزّ وجلّ به من فعل الخيرات المشتملة على خيرات في الدين والدنيا، وقد ذكر النص خيرات الدين وهي إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ثم بقية العبادات من فروض ونوافل، أم خيرات الدنيا التي لم يذكرها النص فقد أوحى بها من خلال اليقين بأن فعل كلّ هذه الخيرات في الدين لا شكّ تفضي إلى الخير في الدنيا بكلّ أشكاله ووجوهه، فيكفي أن نقول أنّ الاستغفار وحده يفضي إلى المال والقوّة والولد من الله عزّ وجلّ لمن شاء مصداقا لقوله تعالى: {وَيَا قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} 306.

الثاني:

من عمق إيمان يعقوب، فالأنبياء لم يهدوا النَّاسَ لأن الله كلّفهم بذلك فقط، بل لأنهم يملكون شعورا ويقينا عميقين بالحقّ الذي في دعوتهم، فكانوا يدعون طاعة لأمر الله عزّ وجلّ، وقناعة بأحقّية الدعوة إلى الله، بمعنى: أنّهم انطلقوا من التكلّيف، والإيمان معا وهذا هو الذي جعلهم يثبتون على الحقّ، وجعل الدعوات تنجح وكانت تبدأ ضعيفة بالضعفاء ويسيرة بالقلة المتبعة لها.

الآية فيها معنى آخر، فإضافة إلى كون كلّ واحد من المذكورين عليهم الصلّاة والسّلام إماما، فهم مجتمعون أئمة بمعنى أن كلّ واحد فيهم وما جاء به هو في المضمون والغاية والسبيل، وهو يوصلنا إلى

نتيجة قاطعة فيما نعتقد للباحثين عن مضامين رسالة إبراهيم ورسالة إسماعيل ونبوة إسحاق ونبوة يعقوب مفادها أن هؤلاء وكلّ ما جاؤوا به واحد في المضمون، ومعنى آخر جاء كلّ هؤلاء برسالة أو نبوة واحدة، ولم تنسخ رسالة أحدهم رسالة الآخر، والنبوة النبوة التي سبقتها؟

هذا يدعونا إلى القول أنّ في الأمر متغير أظهرته نبوة يعقوب هو:

. أنّه نبي لم تنسخ نبوته نبوة إسحاق وكذلك الأمر مع إسماعيل ولوط الرسول اللذان عاصرا الرسول إبراهيم عليه الصلاة والسلام ولم يحصل نسخ للرسالة الأولى برسالتهم، بل كانت رسالة واحدة فرضت ظروف تبليغا الزمانية والمكانية والاجتماعية والعقدية أن يكون لها أكثر من رسول ونبي في آن متزامن أو قريب من بعضه.

والمسألة تستدعي أدلة أخرى مؤكدة من القرآن، فسلیمان لم ينسخ بنبوته رسالة داود بل ورث ما فيها عقدية ومنهجها مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالَا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَى كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُودَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ} 307.

وعيسى لم يأت ناسخا لمضمون رسالة موسى بل كان مصداقا بالتوراة مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ

يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ
مُبِينٌ {308}.

والنتيجة التي نكاد نجزم بها هي أنه ما من رسالة أو نبوة ناسخة
لما قبلها بالمضمون وصولاً إلى الرسالة الخاتمة التي جاءت لتكون موافقة
لأحوال البشر في كلِّ زمان ومكان إلى أن يرث الله الأرض وما عليها
في العبادات والإحكام والمعاملات.

أما بالنسبة لإمامة يعقوب فهي إمامة تميزت عن غيرها وذلك
بسبب كون يعقوب عليه الصلوة والسلام إماماً لجماعة من الأنبياء هم
يوسف صلى الله عليه وسلم، والأسباط إخوته، وقد بدت إمامة
يعقوب من خلال ما ظهر من فعل يوسف والأسباط مع يعقوب،
فيوسف كان مسلماً بالأمر لإمامة وبدا ذلك واضحاً من العودة إليه
في مسألة الرؤيا التي لم تكن حلماً أو طائف بل كانت حقيقة من
حقائق النبوة مصداقاً لقوله تعالى: {إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي
رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ} {309}.

وكذلك الأسباط الذين وان بدا أنهم عصوا إمامهم في شيء
لكن تظهر لهم مواقف أخرى تدل دلالة واضحة على الطاعة المطلقة
منهم لإمامهم وأبيهم والأوضح ما جرى في نجواهم من حوار، يقول
الحق ج ل وعلا: {فَلَمَّا اسْتَيْسَسُوا مِنْهُ خَلَصُوا نَجِيًّا قَالَ كَبِيرُهُمْ أَلَمْ
تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُمْ مَوْثِقًا مِنَ اللَّهِ وَمَنْ قَبْلُ مَا فَرَّطْتُمْ فِي

308 - الصف 6.

309 - يوسف 4.

يُوسُفَ فَلَنْ أَبْرَحَ الْأَرْضَ حَتَّى يَأْذَنَ لِي أَبِي أَوْ يَحْكُمَ اللَّهُ لِي وَهُوَ خَيْرُ
الْحَاكِمِينَ {310.

المسألة هنا ليست كما يُظن أنها مسألة عائلية بين الأبناء
وأبيهم، لأن الآية تكشف عن أمور في العقيدة مثل:
الموثق من الله.

الإذن من يعقوب النبي.

حكم الله.

والخطاب صادر عن إيمان حقيقي لأنه تحقق في الواقع.

فيعقوب عليه الصلوة والسلام كان إماما لأمر الدين والدنيا،
وما جاء في قصة يوسف يكشف عن جوانب من إمامته الدينية
والدنيوية، بينما يأتي التصديق الإلهي بإمامته الدينية في قوله تعالى:
{ كَلَّ الطَّعَامَ كَانَ حِلاً لِبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ
مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنَّ كُنْتُمْ
صَادِقِينَ } 311

فالتحريم دلالة واضحة على الإمامة الدينية لكون يعقوب لم يحرم
عن هوى وهو النبي الموحى إليه من الله عز وجل بل لا بد أن يكون
التحريم بوحى أو من علم النبوة، لأن التحريم خارج هذين الأمرين
منهي عنه من الله الحق مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا
أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبَتَّعِي مَرْضَاةَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ } 312.

310 - يوسف 80.

311 - آل عمران 93.

312 - التحريم 1.

وقوله: (لَمْ تُحْرَمُوا) استفهام بمعنى الآن كار والآن كار من الله تعالى نهي، وتحريم الحلال مكروه، والحلال لا يحرم إلا بتحريم الله تعالى 313.

أما في تحريم يعقوب فظاهر الآية أنه لم يكن ذلك بوحى من الله إليه، بل من تلقاء نفسه، فبعضه أراد به تقرّباً إلى الله بجرمان نفسه من بعض الطيبات المشتهاة، وهذا من ج هاد النفس وزهداً، وكان تحريم ذلك على نفسه بالندر أو بالعزم. وليس في ذلك دليل على ج واز الاجتهاد للأنبياء في التشريع لأن هذا من تصرفه في نفسه فيما أباح له، ولم يدع إليه غيره ولعلّ أبناء يعقوب تأسّوا بأبيهم فيما حرّمه على نفسه فاستمرّ ذلك فيهم 314.

10 . كظيم:

يقول الحقّ واصفا نبيه يعقوب صلّى الله عليه وسلّم: {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَإِبيضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ} 315.

وكظيم لفظ مشتق من كظم: كَظَمَ الرَّجُلُ غَيْظَهُ: اجترعه. ويقال للإبل: كَظُومٌ، وناقاة كَظُومٌ أيضاً، إذا لم تجتر.

والكَظْمُ: مخرج النفس. يقال: قد غمه وأخذ بكَظْمه فما يقدر أن يتنفس، أي: كرتّه، وهو مكظوم كظيم، أي: مكروب 316.

ويقال: "كَظَمَ غَيْظَهُ يَكْظِمُهُ رَدَّهُ، وَحَبَسَهُ" 317.

313 - تفسير الرازي، ج 15، ص 382.

314 التحرير والتنوير، ج 3، ص 158.

315 - يوسف 84.

316 - العين، ج 1، ص 437.

الآية (وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسْفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ
مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ) فيها ثلاثة محاور هي:

- تولى عنهم.

- الأسف على يوسف.

- ابيضت عيناه.

إنَّ المحقق في الآية يجد أن بلايا عظيمة حلت بنبي الله يعقوب
عليه الصلاة والسلام تتمثل في الوهن الحاصل في الارتباط العاطفي
والعقدي بينه وبين أبنائه كونه نبيهم المكلف بتبليغهم وإمامهم، ولا
شك أن مثل هذا الوهن يولد الحزن لدى الأنبياء والرسل المكلفين
بالتبليغ مصداقا لقوله تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ
عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ} 318.

ثم على أسفه على يوسف، وهنا وجب التأكيد أن فراق يعقوب
لأبنائه مقابل أسفه على يوسف لم يكن تعبيرا عن التمييز من يعقوب
فيما بين أبنائه، بل فارقهم لأنه يعلم أن عز وجل لن يغير فيهم شيء
لا به ولا بغيره إن لم يغيروا هم ما بأنفسهم مصداقا لقوله تعالى: {لَهُ
مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ
مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ
وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} 319.

أما أسفه على يوسف فكان أسف علم على النبوة المخصوصة في
يوسف التي ستكون صلة الوصل بين آل يعقوب وقبلهم آل إبراهيم

317 - القاموس المحيط، ج 3، ص 279.

318 - النحل 127.

319 - الرعد 11.

وبين من سيأتي من الأنبياء والرسل وصولاً إلى الرسول الخاتم محمد
صلى الله عليه وسلم.

هنا وجب التساؤل:

هل كان يعقوب يعلم عن النبي الخاتم؟

هل كان يعقوب يعلم بمحمد صلى الله عليه وسلم؟

هل كان يعلم أنه يتصل به نسباً؟

نعتقد أن يعقوب وكل الأنبياء والمرسلين يعلمون برسالة محمد
صلى الله عليه وسلم، بل نعتقد أنهم كانوا يعرفونه، وربما يمكن إذا أتينا
بالحجة وحاورنا بالمنطق أن نؤكد اعتقادنا في ذلك، وليكن ذلك في
ضوء طرح عدة مسائل للنقاش على النحو الآتي:

المسألة الأولى: هي أن آدم أهبط من السماء إلى الأرض مُنبأ من
الله عز وجلّ بالأسماء كلها ودلالاتها، أي العلم بها مصداقاً لقوله
تعالى: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} 320.

نقول: إن الألفاظ القرآنية هي ألفاظ قاطعة في دلالتها فلفظة
كلها تدل ولا شك على العموم الذي يفرضي أن يكون آدم أنبأ بكل
اسم سمي به مسمى، ومنها اسم الرسول الأكرم محمد صلى الله عليه
وسلم، فلا بدّ بعد ذلك أن يكون آدم أخبر بالاسم لأهمية دلالاته في
مسيرة الإنسانية التي هو أبوها الذي سيخطو خطواتها الأولى على
الأرض.

المسألة الثانية: هي أن إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام دعا ربّه جلّ وعلا فقال كما يخبرنا العليم الخبير: {رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} {321}.

هنا نعتقد أيضا أنّ الإجابة المتحقّقة على أرض الواقع أوحى بها لإبراهيم صلّى الله عليه وسلّم، إذ العلاقة بين الله عزّ وجلّ وبين أنبيائه ورسله علاقة حتمية التصديق لا احتمالية المصداق، بمعنى أن كلّ خطاب من الله عزّ وجلّ لرسول أو نبي يقابله تصديق مطلق من الرّسول أو النبي المخاطب، وكلّ دعاء من الرّسول أو النبي يقابله إخبار من الله عزّ وجلّ بالإجابة أو غيرها على القطعية المطلقة لا على الاحتمال وذلك مؤكّد بالكثير من الآيات نذكر منها إجابة دعاء زكريا عليه الصلّاة والسّلام بطلب الوارث مصداقا لقوله تعالى: {إِذْ نَادَى رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيًّا قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا} {322}، وقد أخبر زكريا بإجابة دعائه.

بينما أخبر النبي عليه الصلّاة والسّلام أنّ استغفاره وعدمه سواء في حقّ عدد من المنافقين مصداقا لقوله تعالى: {اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} {323}.

321 - البقرة 129

322 - مريم 4-7.

323 - التوبة 80.

وهذه الآية في المنافقين، قالوا: يا رسول الله استغفر لنا. فقال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام سأستغفر لكم، وأشتغل بالاستغفار لهم، فنزلت هذه الآية، فترك رسول الله عليه الصلّاة والسّلام الاستغفار لهؤلاء.

وكانوا يأتون رسول الله، فيعتذرون إليه ويقولون إن أردنا إلا الحسنى وما أردنا إلا إحسانا وتوفيقا، فنزلت هذه الآية 324.

والمهم من الآية يتبن أنّ دعاء الأنبياء مجاب وخلاف الإجابة يُخبر بها النبي أو الرسول لئلا يكون للناس عليه حجة.

المسألة الثالثة: أنّ الرسول الكريم مذكور في بشارات الرسالات السابقة كمثل رسالة موسى وعيسى مصداقا لقوله تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْآنَ جِيلٌ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ} فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ {325.

وقوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ} 326.

المسألة الرابعة: الميثاق المأخوذ من الأنبياء والمرسلين

324 - تفسير الرازي، ج 8، ص 107.

325 - الأعراف 157.

326 - الصف 6.

يقينا أنه ما من نبي أو رسول يكلف بنبوة أو رسالة إلا ويأخذ منه ميثاقا بالتصديق بالنبي محمد عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَضْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَضْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ} {327}.

هذا الميثاق ليس ميثاقا سرىا بين الله وأنبيائه بل هو جزء من العقيدة التي كلف الأنبياء والمرسلين بتبليغها، لذلك نعتقد أن في نبوة يعقوب تبليغ بالرّسول الخاتم وبالرسالة الخاتمة.

لذلك كلّه كان اعتقادنا أنّ يعقوب كان يعلم عن محمد عليه الصلاة والسلام بوحي من الله عزّ وجلّ كما أوحى لمن قبله وبعده، فأمر رسالته من الأمور المهمة في العقيدة ولا يمكن تصور ألا يكون للأنبياء والرّسل علم بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام وبرسالته الخاتمة.

ونصل إلى القول: أنّ أسف يعقوب على يوسف لم يكن صادرا عن هوى أو ميل أو تفضيل، بل كان مصدره علم النبوة والعلم المؤتى ليعقوب.

11 . مستغفر:

لا شكّ أنّ استغفار يعقوب واستغفار الأنبياء والمرسلين موضوع جدلي، لأنّه قد يتبادر إلى الذهن أن للاستغفار قاعدة هي:

الاستغفار للذنب.

فكّل مستغفر مذنب.

هذه القاعدة لا يمكن مناقشتها دون فهم حقيقي لدلالة اسم الله الغفور لأنّه بهذا الفهم يمكن أن نؤكد ونقبل القاعدة المفترضة أو نرفضها أو نعدل فيها.

اسم الله الغفور "يدلّ على ذات الله وعلى صفة المغفرة بدلالة المطابقة، وعلى ذات الله وحدها بالتضمن، وعلى صفة المغفرة وحدها بدلالة التضمن، ويدلّ باللزوم على الحياة والقيوميّة، والعزّة والأحديّة، والحكمة والعظمة، والرأفة والرحمة، وغير ذلك من أوصاف الكمال واسم الله الغفور دل على صفة من صفات الأفعال"328.

الغفور اسم من أسماء الله تعالى التي تحوي في ثناياها معاني الرحمة والود والقيوميّة وتمنح العبد المؤمن بالله عزّ وجلّ الذي قصّر في حقّ ربّه بارتكاب بعض الذنوب أو تركه لبعض الواجبات، فهذا الاسم يكون بمثابة فسحات متكررة من الأمل تطرد من قلب هذا المؤمن شبح اليأس ذلك لقوله تعالى مطمئنا عباده القانطين: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ}329.

والغفور يدل على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أي عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وهذا ما نلاحظه من سهولة تركيب حروف الاسم (غفور) فحرف المد فيه يفيد الاستمرار ألا محدود وهذا بخلاف اسم الغفّار الذي يفيد استمرار المغفرة اللانهائي أيضا ولكن

328 أسماء الله الحسنى، ج 23، ص 25.

329 الزمر 53.

بشروط وتشديد فيها والبدال على هذا المعنى هي حركة الشدة التي قبل حرف المد في اسم (الغفار).

وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أي شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ} {330}، وكذلك قوله عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {331}، وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمَنِ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} {332}، والكثير من الآيات القرآنية تُشعرنا بيسر عملية الغفران وقربها منا وإمكانية الوصول إلى استحقاق مغفرة الغفور عز وجل.

وهناك أيضا ارتباط للمغفرة بالرحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدل على أنّ المغفرة الميسرة للعباد نوع من أنواع اللين والرحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكل شيء سترته فقد غفرته والمغفرة التغطية على الذنوب.

330 البقرة 225.

331 آل عمران 31.

332 البقرة 198، 199.

من هذه الدلالات ومن قاعدة أنّ الاسم الواحد من الأسماء
الحسنى يتضمن صفات مطلقة نقول:

يكون الاستغفار لمن أذنب أو أخطأ طلباً للمغفرة وفق قاعدة
مطلقة أقرها الغفور الرحيم جلّ وعلا وبشر عباده بما مصداقاً لقوله
تعالى: {وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا
رَحِيمًا} 333،

وكمثل ما فعل يعقوب عليه الصلّاة والسّلام حين طلب المغفرة
والرحمة لمن أخطأ من أبنائه مصداقاً لقوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا
اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ
الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 334.

ويدل قولهم استغفر لنا ذنوبنا على توبة واعتراف بالذنب، فسألوا
أباهم أن يطلب لهم المغفرة من الله. فوعدهم يعقوب بالاستغفار في
المستقبل إذ قال: (سوف أستغفر لكم ربّي) للدلالة على أنّه يلازم
الاستغفار لهم في أزمنة المستقبل. ويعلم منه أنه استغفر لهم في الحال
بدلالة الفحوى؛ ولكنه أراد أن ينبّههم إلى عظم الذنب وعظمة الله
تعالى وأنّه سيكرر الاستغفار لهم في أزمنة مستقبلية. وقيل: أحرّ
الاستغفار لهم إلى ساعة هي مظنة الإجابة 335.

وربّما أراد أن يتأكد هل تابوا في الحقيقة أم لا، وهل حصلت
توبتهم مقرونة بالإخلاص التام أم لا؟ وهل ينبئ فعلهم اللاحق بما
يجعل الاستغفار لهم حقّ؟

333 - النساء 110.

334 - يوسف 97، 98.

335 تفسير ابن عاشور، ج 7، ص 317.

والملاحظ في ظاهر الآية أنّ يعقوب استغفر لخطأ أبنائه ولم يستغفر لنفسه معهم لأن يعقوب عليه الصلّاة والسّلام لم يخطأ بحق أحد، وهذا تأكيد أنّ يعقوب لم يميل أي ميل لأحد من أبنائه على الآخر، بل كان أسفه على يوسف دون غيره من الأبناء أمرا متعلقا بالعقيدة كما قلنا.

2 - يكون الاستغفار لغير خطأ أو ذنب، بمعنى أن يكون لغايات أخرى، مثل:

أ - دفع العذاب والبلاء مصداقا لقوله تعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} 336. في تفسيره وجوه:

الأول: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار وفيهم مؤمنون يستغفرون، فاللفظ وإن كان عاما إلا أنّ المراد بعضهم.

الثاني: وما كان الله معذب هؤلاء الكفار، وفي علم الله أنّه يكون لهم أولاد يؤمنون بالله ويستغفرونه، فوصفوا بصفة أولادهم وذريتهم.

الثالث: أي لو استغفروا لم يعذبوا، فكان المطلوب من ذكر هذا الكلام استدعاء الاستغفار منهم. أي لو اشتغلوا بالاستغفار لما عذبهم الله. ولهذا ذهب بعضهم إلى أن الاستغفار ههنا بمعنى الإسلام والمعنى: أنّه كان معهم قوم كان في علم الله أن يسلموا 337.

ب - الاستغفار رجاءً

336 - الأنفال 33.

337 - تفسير الرازي، ج 7، ص 399.

يكون الاستغفار لرجاء الله عزّ وجلّ أن يمنح المستغفر حاجته،
كطلب الغيث أو القوّة أو المال أو الولد مصداقا لقوله تعالى: {وَيَا
قَوْمِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ
قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ} 338

وقوله تعالى: {فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا يُرْسِلِ السَّمَاءَ
عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيُمِدِّدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ
أَنْهَارًا} 339.

ج- الاستغفار حمدا

يكون الاستغفار حمدا لله عزّ وجلّ على النعم التي ينعم بها على
العباد، فالرسول الكريم محمّد عليه الصلّاة والسّلام لم يكن استغفاره
إلا حمدا وشكرا لله عزّ وجلّ، وتنص الأحاديث الصحيحة على ذلك
كما في الحديث الذي يؤكد استغفار الرسول عليه الصلّاة والسّلام
الدائم الذي لا يرتبط بذنب أو خطأ، ما يدل على أنّ الاستغفار لا
يرتبط بالخطأ أو الذنب.

"حَدَّثَنَا يَحْيَىٰ بن يَعْلَى، عَنْ يُوسُفَ بن حَبَّابٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ، عَنْ
ابْنِ عُمَرَ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي مَجْلِسٍ
يَسْتَعْفِرُ اللَّهُ مِائَةَ مَرَّةٍ، يَقُولُ: رَبِّ اغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي وَتُبْ عَلَيَّ، إِنَّكَ
أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ" 340.

وهذا الاستغفار حمدا لله عزّ وجلّ من الرسول عليه الصلّاة
والسّلام للنعم التي انعم عليه وعلى أمته ويؤكدها حديث صحيح آخر

338 - هود 52.

339 - نوح 10-12.

340 مسند أحمد، ج 12، ص 6.

يقول: "عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يُكْتَبُ مِنْ قَوْلِ "سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ". قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَرَأَيْكَ تُكْتَبُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَالَ "خَبَّرَنِي رَبِّي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي؛ فَإِذَا رَأَيْتَهَا أَكْثَرْتُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. فَقَدْ رَأَيْتُهَا (إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ) فَتُح مَكَّةَ (وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا وَيَسْبَحُونَ بِحَمْدِ اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ وَيَتُوبُونَ إِلَيْهِ)"³⁴¹.

د - الاستغفار عبادة:

نقول: إنّ الاستغفار هو طاعة من العبد لربه وهو رجوع إليه في كلّ أمر يهم أمره ويشغل باله وفكره، وهو بالفعل عودة إلى الله عزّ وجلّ وهذه العودة ليس لها أن تقتن بالذنب، أو الخطأ؛ فهي مطلقة في كلّ زمان ومكان.

وعليه لا استغفار إلاّ للغفور المطلق؛ فهو غافر الذنب لمن استغفره، ولهذا اكتسب يعقوب صفة الاستغفار من ربه الغفور المطلق؛ والغفور يدل على استمرارية المغفرة أو الغفران بدون أي عوائق أو موانع، بل بيسر وانسياب، وهذا ما نلاحظه من سهولة تركيب حروف الاسم (غفو) فحرف المد فيه يفيد الاستمرار اللامحدود وهذا بخلاف اسم الغفّار الذي يفيد استمرار المغفرة اللانهائي أيضا ولكن بشروط وتشديد فيها والبدال على هذا المعنى هي حركة الشدة التي قبل حرف المد في اسم (الغفّار).

³⁴¹ صحيح مسلم، ج 2، ص 50.

وقد جاءت صفة (غفور) في القرآن الكريم بدون أي شرط أو قيد أو صعوبة في مواضع عدة منها قوله تعالى: {لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبْتُمْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ حَلِيمٌ} {342}، وكذلك قوله عز وجل: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {343}، وأيضا قوله سبحانه وتعالى: {لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ فَإِذَا أَقَضْتُمْ مِنْ عَرَافَاتٍ فَأذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَقَاضَ النَّاسَ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ} {344}، والكثير من الآيات القرآنية تُشعرنا بيسر عملية الغفران وقربها منا وإمكانية الوصول إلى استحقاق مغفرة الغفور عز وجل.

وهناك أيضا ارتباط للمغفرة بالرحمة في آيات كثيرة من القرآن الكريم وهذا يدل على أن المغفرة الميسرة للعباد نوع من أنواع اللين والرحمة من الخالق لعباده التائبين، فمن رحمة الله تعالى تيسير المغفرة للبشر الخطائين وفي هذا أيضا استشعار ليسر والسهولة في اسم الله (الغفور).

فالله عز وجل يغفر الذنوب لمن أراد بقوته وإرادته ولا يغفرها خوفا أو طمعا بل رحمةً بعباده ولطفا بهم.

وأصل الغفر في اللغة التغطية والستر فكل شيء سترته فقد غفرته والمغفرة التغطية على الذنوب.

³⁴² البقرة 225.

³⁴³ آل عمران 31.

³⁴⁴ البقرة 198، 199.

واسم الغفور ورد في إحدى عشر موضعا من القرآن الكريم مطلقا ومنونا مراد به العلمية ودالا على كمال الوصفية كما في قوله تعالى في كتابه الكريم: { نَبِيُّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْعَفُورُ الرَّحِيمُ } {345} وقوله تعالى أيضا: { وَرَبِّكَ الْعَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا } {346}، وورد في صفة غفور اثنين وسبعين موضعا من القرآن مثل ما جاء في قوله تعالى: { إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلَ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنْ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ } {347}، وقوله أيضا: { وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنْتُمْ فِي أَنْفُسِكُمْ عِلْمَ اللَّهِ أَنْتُمْ سَتَدْكُرُونَهُنَّ وَلَكِنْ لَا تُؤَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَنْ تَقُولُوا قَوْلًا مَعْرُوفًا وَلَا تَعْرِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّى يَبْلُغَ الْكِتَابَ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُورٌ } {348} حَلِيمٌ.

ومن خلال القرآن الكريم وما ورد فيه من قصة خلق الإنسان وجدنا أنّ الخطيئة لم تكن موجودة قبل خلقه، فقد كانت الملائكة تسبح لله وتحمده وتطيعه وحتى الشيطان نفسه كان في طاعة الله لا يخرج عنها لمعصية إلا بعد أن خلق الله تعالى آدم وأمر الملائكة بالسجود له، هنا ظهرت أول معصية وبدأ البغض والحقد وظهر الغرور والتكبر من جانب الشيطان الذي توعد بنشر الفساد والضلال بين البشر الذين سيتبعونه، كما جاء في قوله تعالى: { وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ

345 الحجر 49.

346 الكهف 58.

347 البقرة 173.

348 البقرة 235.

طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْت عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ
لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ
جَزَاؤُهُمْ جَزَاءَ مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرُ مَنِ اسْتَطَعَتْ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبُ
عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجْلِكَ وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا
يَعِدُّهُمْ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى
بِرَبِّكَ وَكَيْلًا {349}.

وعندما ننظر في قصة خَلَقَ اللهُ للإنسان نجد والله الحمد أن أسماء
الله تعالى وصفاته الأزلية تمثل الغطاء التام لحاجات الإنسان الكثيرة،
فلا يمكن للإنسان قضاء أي حاجة من حاجياته بدون اللجوء لله
تعالى، فاسم (الرَّحِيم) مثلا يعطي معنى الرحمة التي نزلت من الله القوي
بالإنسان الضعيف لخير ذلك الإنسان، واسم (الغفور) يمثل حاجة
الإنسان للمغفرة عند الخطأ واسم الشافي يحتاج إليه الإنسان المريض،
واسم الغني يحتاج إليه الفقير وهكذا. وبما أن الله تعالى بعلمه المطلق
يعلم أن الإنسان مخلوق ضعيف وهناك من يتوعد بتضليله فإن
الذنوب والأخطاء تحتاج لمن يغفرها، ونجد هذه الحاجة أول ما نجدتها
في قصة سيدنا آدم، فعندما خلق الله آدم وخلق منه حواء وأسكنهما
الجنة وضح لهما الحلال والحرام، ولكنهما وقعا في الذنب باستماعهما
لوسوسات الشيطان الرجيم الذي أغراهما بالمحرّم فكان لا بدّ من أن
يتوبا لبارئتهما وهنا كانت مغفرة الله التي يحتاجها الإنسان لتقبل توبته
فكانت التوبة بابا للمغفرة، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا
لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ
اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ
الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا

فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 350، وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوءَاهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَمَا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا} 351، فخطأ سيدنا آدم وزوجه أظهرت حاجة الإنسان الضعيف إلى مغفرة الغفور المطلق الأزلية.

ومن هنا نجد أن أسماء الله تعالى وصفاته كلها رحمة للإنسان من حيث أنه يتضرع بها إلى خالقه عز وجل كل حسب احتياجه، فالفقير مثلاً يسأل الله الغني أن يعطيه، والمريض يسأل الله الشافي الشفاء، والضعيف يتضرع إلى الله القوي أن يسانده وينصره، والمذنب يسأل الله تعالى المغفرة حتى ينجو من عذاب الجحيم.

ونحن البشر لنا حالات حياتية معينة قد تختل فيها الموازين لدينا فلا نعود قادرين على التصرف الصحيح في الموقف الذي نتعرض له، فنجد أنفسنا تارة نسعى في عمل الخير ونحاول قدر الإمكان أن نبتعد

³⁵⁰ البقرة 34 . 37.

³⁵¹ طه 116 . 125.

عن الذنوب والأخطاء، وتارة أخرى نجد أن ذنوبنا التي نعتبرها بسيطة أو صغيرة تختلط ببعضها البعض فنحاسب أنفسنا بعد التدبر والتمعن والتفكير في ما قدمنا من عملٍ نافع ووضعه في ميزان مع ما ارتكبناه من ذنب، ونجد أنفسنا أحيانا نخلط بين عمل صالح وآخر سيء، كما جاء في قوله: {وَأَخْرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {352، فإذا أحس العبد أن عمله السيئ قد غلب على الحسن تملكه اليأس والخوف والحزن فيأتي اسم الغفور ليزرع فيه الأمل لكي ينهض من جديد فيتوب ويجدد أعماله ويقلبها إلى أعمال حسنة.

اسم الله الغفور يجعل الإنسان يشعر بضآلة حجمه وضيق قدراته في هذا الكون إذ أنه كثير الأخطاء والذنوب، وهذا من شأنه أن يجعله متواضعا شاعرا بغيره من البشر، وكذلك يجعله هذا الاسم يدرك أنه لن يضر الله شيئا إذا أذنب ولكنه لو تاب واستغفر الغفور وتراجع عن خطئه يستره الله ويغفر له.

الغفور هو المحاسب: فالحساب واقع لا محالة يوم الدين فلا يمكن أن يفلت أحد من حسابه عز وجلّ وذلك تصديقا لقوله تعالى: {إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا هَٰذَا يَوْمَئِذٍ نُوْحِدْتُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا يَوْمَئِذٍ يَصُدُّرُ النَّاسَ أَشْتَاتًا لِيُرَوُا أَعْمَالَهُمْ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ

352 التوبة 102 : 104.

شَرًّا يَرَهُ} 353 فالله تعالى لن يترك العباد سدى فيساوي بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، وكذلك لا يساوي بين كبائر الذنوب وصغائرها، وكذلك العلم بها والجهل بها، فكل ذلك يدخل في حساب الله تعالى للإنسان، فمثلا من يعمل سوءا وهو عالمٌ بذلك يحاسبه الله على علمه بذلك فيكون الحساب أشد من الذي يعمل السوء على جهلٍ منه، وذلك كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} 354.

فالمحاسب المطلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وليس للإنسان حجة على الله بعد أن أرسل رسله بالدعوة للتوحيد والتبشير بالجنة والتحذير من النار مع توضيح طرق الوصول لكل منهما وهذا بحد ذاته يرفع أي ستار من الممكن أن يختبئ الكافر أو العاصي خلفه يوم الدين ليبرر ما كان عليه في الحياة الدنيا فلا مغفرة تصيبه بما قدّمت يده.

فالحساب يتضمن المغفرة والعقاب، المغفرة لمن يستحقها والعقاب لمن يستحقه، وكل إنسان حسابه وجزاؤه رهين بما قدّم من أعمال كما في قوله تعالى: {وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا مَنْ اهْتَدَىٰ فَأِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا} 355، فهذه الآية الكريمة توضّح للإنسان أنه:

353 الزلزلة 1: 8.

354 النساء 17.

355 الإسراء 13 . 15.

*الوحيد الذي يستطيع أن ينجو بنفسه التي أعطاها الله له أمانة من النار بأن يستحق مغفرة الخالق بما يقدم من أفعال.

*إن صاحب العمل هو الذي سيجازى عليه ويحاسب لا أقرباءه وأهله، فلن يشاركه أحد في أعماله وأفعاله التي قام بها.

* لا حجة للإنسان يوم القيامة بعد وجود كتاب أعماله وفيه مسجل كل صغيرة وكبيرة، لأن حساب الخالق عز وجل دقيق إلى درجة أن الإنسان سيقول يوم الحساب: {وَيَوْمَ نُسِِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُعَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا وَعَرَضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مَا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَا لِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} 356.

* إن الله عادل لا يعذب ولا يحاسب الإنسان إلا بعد أن يرسل الرسل والأنبياء كما جاء في قوله تعالى: {رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حِجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ قَدْ ضَلُّوا ضَلَالًا بَعِيدًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا} 357.

356 الكهف 47 . 49.

357 النساء 165 . 170.

إذن بهذا الحساب العادل ستكون مغفرته لمن يستحقها بعلمه
 وقيامه على أمر العباد، لأن أمر الحساب يتطلب أن يكون المحاسب
 قائما على الأعمال والأقوال فكان الغفور حيا قيوما كما في قوله
 تعالى: {اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي
 السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا
 بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ
 كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ لَا
 إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ
 بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ
 عَلِيمٌ} 358، بهذا يكون الحساب عادلا والمغفرة تشمل العباد
 المستحقين لها.

فعلى خليفة الله أن يحاسب نفسه أولا قبل أن يُحاسب، فيعلم
 متى يستحق أن يغفر لنفسه ولغيره ممن حوله، فبحسابه للآخرين
 سيصل إلى معادلة صحيحة يدرك من خلالها كيف ومتى يغفر ويعفو،
 فيكون الخليفة بحق في الأرض فلا يتعدى على حق أحد ولا يتجاوز
 الحد في العقاب، ويغفر متى كان ذلك ميسرا له ولمن حوله.

الغفور هو الغني: من صفات الخالق عز وجل أنه الغني المطلق
 فهو ليس بحاجة شيء أو مخلوق، والغني لا يحتاج أن يستأذن أحد في
 أن يغفر أو أن يعاقب، وبما أنه الغني فالبشر هم الذين بحاجة إليه وإلى
 مغفرته وعفوه، فلا نجاة لإنسان إلا أن يغفر له المولى عز وجل،
 فالخالق قوي متكبر عن كل الخلق، والعباد هم الضعفاء كما جاء في
 قوله تعالى: {وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} 359، وكذلك

³⁵⁸ البقرة 255 . 256.

³⁵⁹ آل عمران 97.

قوله تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنْ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ} 360.

فالضعيف هو دائما بحاجة إلى عفو وكرم القوي، والله عز وجل لا يقهره كفر الكافرين وذلك لغناه عنهم، ولكنهم لا غنى لهم عنه سبحانه وتعالى، فلا ملجأ للإنسان إلا خالقه ولا معين له إلا هو الواحد الأحد، فالكافر سينقلب كفره عليه، قال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ} 361 ولن يضر الله شيئا ولن ينفعه بكفره وجحوده.

وهذا أساس التفكير السليم الذي يقوي العلاقة بين العبد وربّه فيستحق أن يكون خليفة في الأرض، وهو يحمل في قلبه وعقله اعتقادا راسخا بأنه الضعيف المحتاج إلى الخالق وهو الغني سبحانه وتعالى عن الخلق، فيتودد هذا الخليفة إلى الله تعالى طالبا مغرفته لأنه لا يغفر الذنوب إلا هو عز وجل، وهذا من شأنه مساعدة الخليفة على الارتقاء بنفسه فيستغنى عن رذائل الأمور وصغائرها فيكون غنيا عن كل الخلق بتوجهه لله تعالى ولجوئه إليه في كل أمره صغيره وكبيره.

وعلى الخليفة أن يعلم أنّ الغنى ليس بالمال والأولاد فكم من غني لم تسعفه أمواله من دفع الضرر عنه وأكبر شاهد على ذلك قارون إذ أنّ الغني المطلق وهب له من الأموال ما لا يستطيع إنسان حصرها وبالرغم من ذلك ظل ضعيفا ومحتاجا لله كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ

³⁶⁰ لقمان 12.

³⁶¹ آل عمران 96 . 97.

مَفَاتِحُهُ لَتَنُوهُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُفْلِحُهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَنَّ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَحَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَنَّ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ {362}، فقد كان قارون في الحساب البشري الدنيوي من الأغنياء وبالرغم من ذلك كان فقيرا في الحقيقة إلى رضا الغني المطلق وإلى مغفرته عز وجل، لأن الغنى الحقيقي هو استحقاق مغفرة الله فيكون رصيد الإنسان مليئا بالعمل الصالح والتوبة الصادقة لتحل عليه مغفرة الله تعالى وعفوه، ولكن الغنى قد يكون مع فقر الإنسان، كما جاء في قوله تعالى: {لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا نُفْسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِخْفًا وَمَا

تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {363}.

الغفور هو الكريم: من صور كرم المولى عزّ وجلّ للإنسان مغفرته له على ما تاب ورجع عنه من ذنوب فيعفو الله تعالى عنه ويرضى عليه، فقد كرم الخالق تعالى الإنسان بحمل الأمانة، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ} {364}، فكان خليفته على الأرض، قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} {365}، وبعد ذلك كرمه بالعفو والمغفرة التي لا تنزل إلا على عباده المؤمنين الذين يوحدونه ويطيعونه، فاستحقوا كرمه عزّ وجلّ واستحقوا مغفرته، قال تعالى: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاطِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ فَعَسَىٰ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْفَائِزِينَ} {366}، وَالدُّنُوبَ إِلَّا اللَّهَ وَمَنْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ أُولَٰئِكَ جِزَاءُ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} {367}.

363 البقرة 272 . 274 .

364 الأحزاب 72 .

365 البقرة 30 . 33 .

مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ
الْعَامِلِينَ {366}.

فالكريم المطلق لم ييخل بمغفرته وعفوه عن المذنبين بل ودعاهم
لطلب المغفرة فيستجيب لهم كما في قوله تعالى: {الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ
آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ
نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ وَإِنْ اسْتَغْفَرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تَوَبُوا إِلَيْهِ يُمْتَعِكُمْ مَتَاعًا حَسَنًا إِلَى
أَجَلٍ مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْلٍ فَضْلَهُ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} {367}،
فقد طلب الخالق عزَّ وجلَّ من عباده على لسان رسله وأنبيائه أن
يستغفروه فيغفر لهم ويتوب عليهم، كيف لا وهو الرحيم الغفور
الكريم؟

وليسم من خلفاء الله من ييخل على نفسه بالعمل الصالح أو
التوبة الصادقة، فخليفة الله هو من اتصف بالكرم في عفوه عن أساء
إليه وأخطأ في حقّه فلا ييخل عليه بالسماح والغفران، وأن لا يكون
بخيلا في طلب المغفرة من الغفور الكريم كما جاء على لسان الأنبياء
والمرسلين في قوله تعالى في دعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام: {وَالَّذِي
أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ} {368}، وكذلك قوله تعالى في
طلب سيدنا موسى عليه السلام الغفران منه سبحانه وتعالى: {قَالَ
رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ} {369}،
وأیضا قوله تعالى: {وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا

³⁶⁶ آل عمران 133 . 136.

³⁶⁷ هود 1 . 4.

³⁶⁸ الشعراء 82.

³⁶⁹ الأعراف 151.

وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ {370}، فمن الآيات الكريمة السابقة يتضح لنا قيمة الاستغفار، فإذا كان هذا حال الرُّسل والأنبياء والصالحين الذين اصطفاهم الله تعالى وميَّزهم بالصفات النبيلة فكيف الحال بنا نحن البشر؟

فلا تبخل أيها الخليفة في طلب المغفرة والعفو واجعل من المرسلين قدوة ومثل تسير عليه في كل أمر ومنها طلب الغفران وقبول التوبة، فلا تبخل في طلب المغفرة لنفسك ولوالديك وأهلك وجميع المسلمين.

12 . صابر:

امتاز يعقوب بكونه صابرا محتسبا بالصبر على الأذى مصداقا لقوله تعالى: { قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ } 371.

ونتساءل:

هل كان يعقوب صابرا في هذا الأمر فقط؟

ألم يكن صابرا من قبل؟

نقول: إنَّه كان صابرا على كلّ ما يمر به، ولكن استدعاء الصبر لا يكون وقت الرخاء، بل يرتبط الصبر بأوقات الشدة، لذا؛ فيعقوب متحلي بصفة الصبر المستمدة من اسم الله الصبور، ولكن إظهار فعل الصبر لم يحصل إلا بعد الشدة التي أملت بيعقوب.

هنا نتساءل:

370 الحشر 10.

371 - يوسف 83.

على ماذا صبر يعقوب؟

أعلى أبنائه؟

أم على سلوكهم النفسي (سولت لكم)

أم على فراق يوسف؟

أم على الإتيان بهم جميعاً؟

أنَّ يعقوب عليه الصلاة والسلام لما سمع من أبنائه ذلك الكلام لم يصدقهم فيما ذكروا كما في واقعة يوسف فقال: (بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبِرْ جَمِيلًا).

فاستدعى الصبر على ما سولت به نفوسهم وعلى فراق من ذهب من أبنائه، وعلى وعد الله عزَّ وجلَّ برد الأبناء إلى يعقوب، فصبره يعني: أن فرجا لما أهم به واقع باليقين الذي عنده من الله عزَّ وجلَّ، وبالوحي الذي يوحى إليه.

ومن المهم التوقف هنا مع قوله تعالى: (يأتيني بهم جميعاً).

يتبين من هذه الآية عدة دلالات مهمة منها:

1- السياق هنا يدل على الجماعة

2- عدم تحديد الإتيان بالإتيان المادي

3- أبوة يعقوب المنزهة عن الميل، أو الهوى، أو التفضيل.

هذه الدلالات تؤكد عدد من الحقائق هي أن يعقوب لم يفرق بين أبنائه مطلقاً، وأنه كان يأمل في الله أن يأتيه بهم جميعاً دون تمييز، أو تفضيل لأحد على آخر ودون استثناء.

أما الإتيان فلم يكن يُقصد به الإتيان المادّي فقط، بل كان يُقصد به الإتيان المادّي والمعنوي، بمعنى عودة يوسف وأخوه ومن لم يبرح من الأسباط، كذلك عودة المخطئين من أبناء يعقوب إليه مستغفرين نادمين مقرين بالذنب مصداقا لقوله تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 372.

وهكذا تحقّق الإتيان المطلق الذي كان بمثابة المكافأة لصبر يعقوب إلى يجب أن يكون أسوة يؤتسى بها في الصبر على المحن.

وعليه فالصبر لا يكون صفة إلا من الصبور المطلق سبحانه وتعالى؛ والصبور: مصدر لكل صبر، يستمد الصبر منه وهو لا يستمد من شيء سبحانه، ولذا فالصبر دليل قوة العزيمة وسلامة الرأي والقرار والفعل والعمل وذلك لأنه المستمد من الصبور المطلق، ومن اتصف به كان من المستخلفين فيها.

والصبر في حقّ الله تعالى يكون درسا في التوازن والنظام، أي أنه سبحانه وتعالى لا تحمله العجلة على تقديم ما لا يجب تقديمه، أو تأخير ما لا يجب تأخيره بل حكمته هنا تتدخل لتعمل على تسيير أمور خلقه وفق نظام وسنن ثابتة، لا يمكن أن تتبدل هذه السنن أو تتغير لتعجل أو تسرع في أمر من أمور عبادته.

والصبور سبحانه وتعالى بقدرته فهو القادر وبقوته فهو القوي يستطيع أن يفعل ما يشاء، في الوقت الذي يشاء، قال تعالى: {فَعَالٌ لِمَا يُرِيدُ} 373، فصبره دائما على حكمة مطلقة وبالغة فهو يأمر

³⁷² يوسف 97، 98.

³⁷³ البروج 16.

بالكاف والنون ولكنه يُمهّل ويصبر بشكل متوازن وعادل دون أي خلل في ذلك، وكيف يكون ذلك وهو المنزه عن كل نقص أو عيب من شأنهما أن يسببا أي ضعفٍ أو خلل؟

وكلّ شيءٍ عنده بميزان وبمقدار وبميعاد، قدره الخالق مسبقا مع التوافق بسرعته في تسيير الأمور، وهنا نجد أن السرعة المتوازنة صائبة لا خلل فيها ولا عيب، فمثلا نجد أنّ الله سبحانه وتعالى في مواطن كثيرة من حياتنا يعطينا ما نطمح إليه ونحتاجه في وقته، وفي أحيانٍ أخرى يمسك تلك الحاجة فيمهلها أو يؤخرها علينا، وكأنه عزّ وجلّ يدلنا على أصوب الطرق للصبر الذي علينا أن نستمدّه منه.

فالصبور تبارك وتعالى يعلمنا ماهية الحكمة في العطاء وفي منع هذا العطاء، ويُشعرنا بهيئته الكاملة على كل شيء في الحياة والكون بصفة عامة، وأن بيده كل الأمور يقبّلها ويدبّرهما حسب علمه المطلق وحكمته البالغة، قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} {374}، إذن هو الصبور بالرغم من استطاعته وقدرته وقوته على كل شيء مطلقا فهو الكامل في صفاته وأفعاله الجليلة العظيمة الحكيمة، وصبره نابع من ذلك الكمال كله، ولو تأملنا جيدا في هذا الاسم لوجدناه الخير كله يجمعه ويوزعه على الخلق بكرمه ورحمته وحكمته، بالرغم من أنه يصبر على العباد إلا أنه في أحيانٍ أخرى قد ينزل عقابه سريعا ويرسله كعبرة للبشر وموعظة، قال تعالى: {وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ كَأَنَّ لَمْ يَعْنُوا فِيهَا أَلَا إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدًا لِثَمُودَ} {375}، وهنا صفة الصبر لا تنتفي مع تنزل

³⁷⁴ يس 82، 83.

³⁷⁵ هود 67، 68.

العقاب والعذاب ليكي يُحدث التوازن في إحقاق الحقّ والانتقام من الظالمين الذين لن يرتدعوا بأية وسيلة، ولا نجد أي نوع من التناقض في ذلك أو الظلم، قال تعالى: { كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُذَّابًا فَآخَذْنَاَهُمْ آخَذًا عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ } 376، فعلمه المطلق عزّ وجلّ والمسبق أدرك مسبقاً أن الخير والنفع للعباد سيكون على هذا الشكل، فالصبور بصير بعباده وعليم بهم وبما يكتمون ويظهرون.

الصبور: هو من لا قلق فيه، وهو الذي يعلم بالأمر ويعلم ما يقوله ويفعله ويظنه الظانون، وهو بكل شيء عليم، ومع ذلك يترك الأمر إلى حين، ولهذا قال: { فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ } 377.

الصبور في صبره إبداع، وفي إبداعه صبر عظيم، فهو الخالق المبدع لكل شيء منذ أمره بنشأة الحياة والكون، فهو سبحانه دائم الخلق والإبداع حيث أنه الخلاق، قال تعالى: { أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ } 378، فكم من أعدادٍ للبشر جاءوا ورحلوا عن هذه الأرض؟ وكم من أنواع للنباتات والدواب والطيور جميعها كانت سواء في الفناء، فنستشعر هنا بالصبور الذي لا يكلّ ولا يملّ ولا يتعب، إذ أنه بواحديته المختص الأوحدي في فعل كل ذلك سبحانه الأحد الصمد، الذي لا يشاطره أي شيء آخر في قدرته وخلقته، قال تعالى: { وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا

376 القمر 42.

377 الروم 60.

378 يس 81 . 83.

بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ {379}، ففي الآية الكريمة السابقة جعل الله تعالى قدرته على الخلق دون تعبٍ أو مشقة درسا ومثلا لتعليمه أنبيائه ورسله الصبر على صعاب الأمور، وكأنه يقول للبشر ما هو الأمر الأصعب من الخلق وتكوين هذا الكون؟ وبالرغم من ذلك فقد نفذ أمره دون ملل أو تعب، فعلى الخليفة الذي استخلفه الخالق في الأرض أن يكون صابرا على أموره وثابتا لا يهزمه الملل ولا يقضي عليه التعب والضيق.

ولله المثل الأعلى: فالإنسان عادةً ما يقوم بعملٍ ما أو يكون مسؤولا عنه نجده في يومٍ من الأيام متدمرا منه ضائقا به، ولا بد أن تمر عليه لحظة يشعر فيها بالملل والتعب والضجر منه، فيؤثر ذلك على سير عمله بالاختلال أو النقص، فيضطر للاستعانة بغيره لمساعدته على ضبط العمل والعودة إلى سرعة الإنتاج وتجاوز الخلل الذي سبق وأن حدث، لكن الخالق عزّ وجلّ منزّه عن كلّ نقصٍ أو عيبٍ أو خلل فلا يكابده التعب أو الضجر لقدرته الكاملة لاستيعاب كل شيء في آن واحد، فهو الصبور بقوته ومتانته وجبروته عزّ وجلّ، فنلاحظ اجتماع أكثر من صفة في حقّ المولى عزّ وجلّ، حيث أنه:

. ذو الجلال والإكرام الصبور المستمر في الخلق والإبداع وإحقيق الحقّ بعدله المطلق، قال تعالى: {إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَكِنَّ النَّاسَ أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ} {380}.

. المنتقم من الظالمين على مر الزمان، قال تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفًا وَعَدِهِ رُسُلُهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} {381}.

379 ق 38، 39.

380 يونس 44.

. الرَّحِيمِ بِعِبَادِهِ دُونَ انْقِطَاعِ هَذِهِ الرَّحْمَةِ، قَالَ تَعَالَى: {وَأَهْلِكُمْ إِلَهًا
وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ} 382.

. الْوُدُودِ الَّذِي لَا يَمَلُ مِنْ تَقْدِيمِ الْوُدِّ وَالْحُبِّ لِعِبَادِهِ، قَالَ تَعَالَى:
{وَهُوَ الْعَفُورُ الْوُدُودُ} 383.

. الْغُفُورِ لَذُنُوبِ عِبَادِهِ الْمَذْنُوبِينَ، فَلَا يَتَعَبُ مِنْ كَثْرَةِ ذُنُوبِهِمْ وَلَا
يَمَلُّ مِنَ الْغُفْرَانِ وَقَبُولِ التَّوْبَةِ، قَالَ تَعَالَى: {تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ
وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ
أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْعَفُورُ} 384.

. الْخَالِقِ فِي اسْتِمْرَارِهِ الدَّائِمِ لِلْخَلْقِ وَمِرَاقَبَتِهِمْ وَتَسْجِيلِ أَعْمَالِهِمْ
تَجْسِيدِ عَظِيمِ الصَّبْرِ، فَقَدْ قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا
يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا
وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا يَابِسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ
مُبِينٍ} 385.

إِذْنِ فَالْخَالِقِ الصَّمَدِ هُوَ وَحْدَهُ الصَّبُورِ فِي مَلَكَوْتِهِ عَلَى الْقِيَامِ
بِكُلِّ شَيْءٍ وَبِاسْتِمْرَارِ دُونَ انْقِطَاعِ أَوْ خَلَلٍ، فَكَيْفَ لَا يَلْجَأُ إِلَيْهِ الْعَبْدُ
الضَّعِيفُ الَّذِي لَا تَنْقَطِعُ حَاجَتُهُ إِلَيْهِ.

فَاللَّهُ هُوَ الصَّبُورُ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْأَحَدُ وَهُوَ الْمَلْجَأُ الْوَحِيدُ لِكُلِّ
عِبَادِهِ، فَلَا يَكُونُ مِثْلَهُ أَحَدٌ فِي صَمَدِيَّتِهِ وَبِوَاحِدِيَّتِهِ، قَالَ تَعَالَى: {قُلْ

381 إبراهيم 47.

382 البقرة 163.

383 البروج 14.

384 الملك 1، 2.

385 الأنعام 59.

هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ {386،
 فقد يسّر الله كل هذا الكون لخدمة خليفته في الأرض، فكان هذا
 النسق وهذا النظام البديع في الكون بأسره، قال تعالى: {لَّذِي خَلَقَ
 سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ
 هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ حَاسِنًا
 وَهُوَ حَسِيرٌ} {387، فبهذا يختص سبحانه وتعالى بالوحدانية التي
 ترتبط بالصبر لذلك فهو الصبور لقيامه وحده بكل ذلك وبالشكل
 المتقن الدائم المستمر، كل عمل يتناسب والوضع والزمان والمكان ومن
 هنا نستطيع القول أنه الصبور في أحكامه لأنه يعلم كيف وأين ومتى
 يفعل وينفذ، ولا شيء ولا أحد يستطيع أن يغيّر شيء قدره الواحد
 الأحد.

إنه الصبور على ما يقولون وعلى ما يفعلون، وصفة الصبر تنبع
 منه أساسا، حيث أن كل شيء إيجابي وكل ما هو حق وكل ما هو
 جميل، منبعه منه أولا وأخيرا عزّ وجلّ.

وتكمن صفة القوّة في الصبر، حيث أنه لا قوة بلا صبر، ولا
 صبر إلا عند قوي متين، فالصبر الحقيقي يكون متحدا وملازما للقوة،
 تلك القوّة التي تحتاج إليها عملية الخلق، فكان حقّ الله على خلقه
 توحيده وعبادته، قال تعالى: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ
 مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ
 الْمَتِينُ} {388.

والصبور في حقّ الله له أكثر من دعامة يرتكز عليها منها:

³⁸⁶ الإخلاص 1 . 4 .

³⁸⁷ الملك 3، 4 .

³⁸⁸ الذاريات 56 . 58 .

1- صبره عز وجل عن قوة وقدرة مطلقين:

فصبر الخالق المطلق على عباده يدعمه القوة والقدرة لا الضعف والحاجة، فما حاجة الله لنا وهو المالك لكل شيء وبأمره (كن) يفعل ما يريد، قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 389، فمن يملك كل هذه القدرة بالتأكيد هو بغنى عن كل ما خلق وصور، قال سبحانه وتعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} 390، فبما أنه عز وجل الغني عنا فهو القوي القادر على كل شيء وبالتالي من يملك هذه القدرة المطلقة لا يمكن أن يكون صبره عجزاً أو ضعفاً أو حاجة، فهو المنزه عن النقائص والعيوب عز وجل، ولا يمكن أن يكون إلا الكمال له في صفاته.

ولكن بالرغم من قدرته المطلقة إلا أنه صبورٌ على أخطائهم مفسحاً لهم المجال للرجوع عن ذنوبهم والتوبة منها إذ أنه عز وجل لا يمكن أن يظلم أحداً بسبب خطيئة غيره، قال سبحانه وتعالى: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ} 391.

2- صبره عن علم لا عن غفلة:

قال تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} 392، فالله تعالى ينتفي عن نفسه صفة الغفلة والنسيان والتلاهي عن أي أمر، وصبره لا يعني أنه

389 النحل 40.

390 لقمان 26.

391 الأنفال 33.

392 إبراهيم 42.

غافلا عما يفعله العباد وطول الفترة لا يعني نسيان أمرهم، بل صبره فيه تأخير لهؤلاء البشر وذلك لحكمته المطلقة وعلمه اللذان يقدمان ويؤخران الأمور حسب مشيئته وإرادته عز وجل، فالغفلة تتنافى مع علم الله المطلق بكل شيء، وما صبره المطلق بعباده إلا لعلمه المطلق بما هو نافع وضار بهم.

وفي الآية الكريمة السابقة توضيح لعدم غفلة الله بدليل تحضير العقاب المناسب لهم والذي استحقوه بظلمهم، فمن كان على علم بالعقاب كيف يكون غافلا عن العمل المستحق لهذا العقاب؟

الله بعلمه المسبق والمطلق على علمٍ بكل شيء لا يخفي عليه شيء في الأرض ولا في السماء، لهذا فقد كان جزاؤه وعقابه حاضرين وهذا يدل على انتباهه لأصغر وأدق الأمور، قال تعالى: {يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْعَفُورُ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ} 393.

3- صبره عز وجل على عباده لا يعني إسقاط العقاب:

العقاب قائم بإذنه تعالى على من يستحقه كما سبق وأخبرنا الله تعالى بذلك في كثير من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: {مَنْ قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ

393 سبأ 1، 5.

شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ {394، وكذلك قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ ازدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ {395، إذن فالعقاب قائم رغم عدم وقوعه عليهم في الدنيا بصبر الله تعالى عليهم، ولكن هذا الصبر لم يكن بمثابة عفوٍ أو إسقاطٍ لهذه العقوبة.

فقد حذّر الله تعالى عباده من العقاب الشديد الذي ينتظرهم جزاء ما اقترفوه من ذنوبٍ وشرور وفساد، كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهَدَى وَالْعَذَابُ بِالْمَعْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ {396، وهذا تأكيد على أن العقوبة قائمة رغم الصبر عليهم، فلا يلغي الصبر على كفر الكافرين العقاب الشديد، الذي يستحقونه دون نقصٍ أو زيادة.

بذلك لا بدّ أن نفرّق بين صبر الله تعالى وصبر العباد لأن صبر الصبور يكون عن قدرة مطلقة كاملة، وأيضا لا يكون صبره لقضاء حاجة له عند عبيده في الأرض، وكذلك لا يكون صبره حاملا الألم والحزن لعدم تمام ما يريد أو تأخيره، قال تعالى: {وَرَبِّكَ الْعَظِيمُ ذُو الرَّحْمَةِ إِنَّ يَشَاءُ يُدْهِبُكُمْ وَيَسْتَخْلِفُ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ

394 آل عمران.

395 آل عمران 90، 91.

396 البقرة 174، 175.

مِنْ ذُرِّيَّةٍ قَوْمٍ آخِرِينَ {397، أما الإنسان فقد يكون صبره عن ضعف وعدم استطاعة، أو لقضاء غاية والوصول إليها عند غيره من البشر، ويكون في صبره شعورا يحرك الألم والحزن في داخله، وقد يؤدي به إلى اليأس والإحباط.

من مظاهر صبر الصبور سبحانه وتعالى على عباده، منع الله تعالى للطبيعة عن معاقبة الكافرين، قال تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} {398، وكذلك قوله تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ بَلْ إِنَّ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَعِنَ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لِيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ يَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا} {399، فما الذي يمسك عقاب الطبيعة للمجرمين؟

واسم الله الصبور على الخلق جميعا مسلمهم وكافرهم، عاصيهم ومطيعهم، تائبهم ومدنّبهم، فقد اجتمع البشر مسلمهم وكافرهم، وفقيرهم وغنيهم، وصحيحهم ومريضهم في الابتلاءات لكنهم اختلفوا عن بعضهم في الصبر الذي استحق الثواب.

397 الأنعام 33.

398 إبراهيم 46.

399 فاطر 40 .42.

والله هو الصبور على جميع الخلق، ولكن رحمة الله بصره وحلمه على العباد العصاة، بالرغم من شدة كفر هؤلاء الناس وإشراكهم به عز وجل، هو الصبور الذي يُخفي بين طياته الكرم والرحمة، فصبره هو الذي أحر هذا العقاب الدنيوي للكافرين جزاء لهم على كفرهم وعنادهم، فصبر الصبور هنا تمثّل في المنع عن تنفيذ العقاب الفوري لأولئك الكافرين وهذا ما ترغب به السماء والأرض من شدة كفرهم وطغيانهم إلا أن الصبور يمسكهما بصره وحلمه عز وجل.

فعلى خليفة الله أن يكون صابرا امتثالا لأمر الخالق في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ } 400، لأن الصبر فيه حكمة التصرف والتحكم في النفس ليصل الإنسان إلى أفضل وأسلم النتائج.

الصبور: يهب الصبر لمن يشاء من عباده بعلمه وخبرته بهم، ويجعلهم يتحلون به ليعينهم على تحمل ما يلاقونه من مشاق ومصاعب في الحياة الدنيا، فيكون صبرهم سندهم في تكملة طريقهم في الدنيا الذي رضي المولى عن سلوكه، وقد وهبهم الله الصبر لحيه فيهم مظهرا لهم مكانتهم عنده فيبادلونه هذا الحب الكبير برضاهم بقضائه وقدره وطاعتهم له سبحانه وتعالى، قال عز وجل في كتابه الكريم: { إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ } 401، من هنا تتضح مكانة العبد الصالح المخلص عند الله فهو مخلوقٌ غالي على الخالق استخلفه في الأرض وأكرمه أكثر من جميع خلقه، علما بأن الخالق بعلمه المسبق

400 آل عمران 200.

401 البينة 7، 8.

وخبرته بخلقه جميعا يعلم أنهم سيفسدون ويسفكون الدماء ولكنه أيضا علم أنه من عباده الصالحين المصلحين فصبر على الظالمين وقرب المخلصين وأثابهم وأعطاهم أكثر ما يمكن أن نتصوره ليستطيع أن يتحمّل العبء المنوط به، فيكفي الإنسان أن يتأمل في اسم الصبور ليستشعر بينه وبين نفسه أنه مخلوق مكرم وغالي عند ربه، والدليل على ذلك أنه حين يخطئ أو يُذنب أو ما شابه ذلك يجد الخالق أحيانا ساترا له لا يفضحه بين الناس بل يستره، وهذا لا يكون إلا بوجود الحب والمودة بينه وبين خلقه، وصبره على خطيئة العبد مع القدرة والاستطاعة على العقاب فلا لشيء إلا لتقدير الخالق لهذا المخلوق.

لذلك فلا بدّ لخليفة الله تعالى أن يكون عاشقا لله مستشعرا بمكانته عنده، فلا يفرط فيها ولا يجب أن تنقص بل يجب أن تزيد، ومكانة هذا الخليفة لا تزيد إلا بالعمل الصالح والطاعة لله تعالى وخشيته والإخلاص له والصبر على حكمه، قال تعالى: { مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّهُ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْتَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } 402، وكذلك قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ } 403.

والصبر ليس شعورا يزرعه الصبور فينا فقط، بل هو منهج حضاري راقٍ يصل بالبشرية إلى الهدف الأسمى وهو سيادة المحبة والعدل والنظام، والدليل على ذلك يتطلب من الإنسان أن يتأمل في الكون من حوله ليدرك مظاهر الصبر الظاهرة فيه، فالشمس مثلا

402 النحل 96، 97.

403 الملك 12.

تشرق رويدا رويدا وتغرب كذلك لا عجلة في حركتها بل تتحرك وهي مقدره بنظام ودقة، وكذلك فقد خلق الله السماوات والأرض على مراحل وأيام ولم يكن خلقها في لحظة مع إمكانية تحقيق ذلك بالنسبة لقدرة الله تعالى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ} {404، وكذلك قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} {405، فالسمااء والأرض كان في خلقهما آية للناس في الصبر مع توفر القدرة لخلقهما في لحظة واحدة، وكذلك لو تأملنا إلى خلق الإنسان نفسه منذ بداية تكونه جنين في رحم أمه، فينمو شهرا بعد آخر ولا يتم تكوينه في يوم واحد بل يكون في تكوينه تجسيدا لنوعين من الصبر أولهما صبر الأم تسعة أشهر مزوجة بالمعاناة والألم والتعب، وكذلك رضاعته لم يجعلها الله أياما أو ساعات بل امتدت لعامين كاملين، قال تعالى: {وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ} {406.

والنوع الآخر صبر يتمثل في تكوين الإنسان نفسه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ

404 الأعراف 54.

405 الحديد 4 . 6.

406 لقمان 14.

مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا} 407، إذن فالصبر له صور متعددة وواضحة في حياتنا ولكننا لا نلتفت إليها ولا نتخذها مسلكاً ومنهجاً لنا.

فوائد الصبر:

أ- قهر الشهوات والتحكم فيها:

خلق الله الإنسان وخلق فيه الشهوة والرغبة، وقد تباين البشر في إتباع شهواتهم، فمنهم من كان عبدا لها تأمره فيطيع، لا يستطيع الصبر على ما يشتهي فيسرع إليه دون إعطاء الفرصة لنفسه أن يحاورها عن مدى صحة أو خطأ هذه الطاعة لشهوته، فلا يتأني ولا يصبر على زينة ومتاع الدنيا اللذان من شأنهما أن تدمران حياته، قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَاِبِ} 408، فالشهووات متعددة في الدنيا وكثيرة وكل نوع منها يحتاج إلى إرادة قوية يدعمها الصبر والجلد، والصبر لا يأتي إلا بالطمع فيما عند الله تعالى ومد البصر إلى النعيم الآخروي الذي ينتظر الصابرين في الدنيا والمتمسكين بصبرهم أمام إغراءاتها المتنوعة.

ومنهم الخليفة الذي كان مالكا لشهوته مسيطرا عليها بصبره وجلده، لعلمه بأنها مخلقت لكي تكون عوناً للإنسان في نيل رضا رب العالمين، ولا تكون فتنة ودماراً للإنسان في الدنيا والآخرة،

407 الحج 5.

408 آل عمران 14.

فالخليفة المحب لله تعالى تجده صابرا على هذه الزينة البالية لعلمه بأن صبره عليها هو أكثر فائدة ومتعة من الغرق فيها، فالعلم يمنح الإنسان اتساعا في مداركه وفهمه للأمور وإذا توصل هذا الإنسان للفهم الصحيح لأمر دينه ودنياه وصل إلى معرفة قيمة الصبر وفائدته العظيمة التي تجعل منه إنسانا مترفعا عن الرذائل مسيطرا على نفسه ومعتزا بها، فيصل إلى حدود حب الله وطلب رضاه وعفوه.

ب- التوكل على الله واللجوء إليه:

في هذه الحياة نقابل الكثير والعديد من الامتحانات لما كانت عليه حال الدنيا من أهما دار ابتلاء وامتحان كما جاء في قوله سبحانه وتعالى: {وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} {409}، وبالصبر فقط نستطيع أن نجتاز هذه الامتحانات والابتلاءات، فكثيرا ما نجد أنه في موقف نعيش فيه أشد لحظات الحزن بفقد أعز الناس لدينا، فنشعر بالعجز وعدم القدرة على تحمل الألم وصعوبة الفراق، ولكن بالرغم من ذلك نجد أننا نتجاوز هذه الساعات والأيام ونكمل حياتنا العادية، فكيف يحدث ذلك؟

يحدث ذلك بأن الله تعالى خلق الحزن وخلق معه الصبر وأعطاه لمن طلبه، فمن المستحيل أن يطلب الإنسان العون والصبر من الله على ما أصابه ولا يستجيب الله تعالى له، فهو الصبور المطلق الذي يهدي صبره لمن يستحقه ويطلبه، فلا يستعين الإنسان المؤمن بأي وسيلة أخرى للنسيان وتجاوز محنته وحزنه، كما يحدث مع بعض الناس الذين يبتعدون عن الله فيبتعد عنهم الله، نجدهم يلجئون إلى وسائل

409 المائدة من 48.

أخرى للغرق فيها ونسيان ما هم فيه، كأن يتجه بعضهم لشرب الخمر أو تعاطي المخدرات أو محاولة الانتحار أو اللجوء للسحرة والدجالين للتخفيف عنهم وغيره من أشكال البدع والخرافات والفساد والضياع، لأنه في مكان يبتعد فيه عن الصبور الذي يمنحه الصبر الجميل فتسير حياته على نسقٍ مرتب وتقوى نفسه على المصاعب فيكون مستحقاً لحمل أمانة الخالق له وهي إصلاح الأرض، ولا أروع من الاحتذاء بالرّسول الكريم - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فقد كان دائم لطلب الصبر والعون من الله على ما مر به من محن ومصاعب في سبيل تبليغ رسالته للبشرية، فما هو مع صديقه أبو بكر الصديق في غار ثور عندما أوشك المشركين اللحاق والفتك بهم، فقد استعان بالله وتوكل عليه فألهمه الله الصبر والثبات ونجا منهم، وكذلك في خروجه للطائف وتحمله الأذى العنيف من أهل الطائف لم يكن الرّسول عليه الصّلاة والسّلام مستعينا إلا بخالقه يتصبر بحبه له على ما بلّاه، وقد كان الصبر أمراً لازماً لكل الرّسل ليستعينوا به على شدائد الأمور، قال تعالى: {فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنْ نَّهَارٍ بَلَاغٌ فَبَلِّغْ لَهُم بَلَاغُ الْفَأْسِقُونَ} 410.

فلتكن يا خليفة الله في الأرض صابراً متوكلاً على الله الذي لا يمنحك الصبر غيره فممن تطلبه إلا منه عزّ وجلّ الذي جعلك خليفته في الأرض لتصلح فيها ولا تفسد ولا تسفك الدماء بغير حقّ.

فلا بدّ إذن أن تفرد الله وحده بالرجاء والأمل والعون، فهو الدافع للضر والماسك للخير والمعطي له إذا أراد، قال تعالى: {وَإِنْ يَمْسَسْكَ

410 الأحقاف 35.

اللَّهُ بِضُرِّهِ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرَدِّكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ
بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ {411

ج - الصبر يأتي بالنصر:

بما أن حياة الإنسان كلها كانت ابتلاء وامتحان من الله كان لابد أن يخلق معه الصبر، ولا يكون الصبر إلا بالحق وللحق، فعندما يدرك الإنسان المؤمن أنه على حق يستمد قوته على التحمل وصبره على الأذى ليقينه بأنه على حق ولهذا فإن الله سينصره لأن الحق دائما هو المنتصر ولو بعد حين، فالصبر إذن يأتي بالنصر أي لا نصر إلا مع الصبر والأمثلة على ذلك كثيرة فمن كان يصدق أن رسول الله - عليه الصلاة والسلام - والصحابة رضي الله عنهم سيفتحون العالم وهم قلة وتجعل دعوته في الآفاق لولا صبرهم على الشدائد والمصائب كما حدث حينما قام أهل مكة بمقاطعة الرسول عليه الصلاة والسلام وإخراجه إلى شعاب مكة مع قطع التعامل معهم لسنوات وهم صابرون لم يتراجعوا عن الحق المتمثل في الدعوة إلى توحيد الله عز وجل، وقد كانت نتيجة صبرهم هو ما نراه الآن من انتشار الإسلام في كل بقاع الأرض وانتصارهم على جبابرتها.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يستمد حبه لانتصار الحق من صبره على الوصول والنضال فيكون بذلك عبدا صبورا منتصرا على الظلم والباطل والفساد، لأن من شأن الخليفة أن يكون معمرا للأرض ولا يتحقق ذلك إلا بانتصار الحق وزوال الباطل والشر من عليها وهذا يتطلب منه الصبر الكثير والقرب الشديد من الخالق عز وجل.

واسم الصبور ينطوي على أسماء وصفات لله تعالى مثل:

⁴¹¹ يونس 107.

الصبور هو العليم:

صبر الخالق على عباده منبعه علمه المطلق بهم فهو خالقهم والعالم به، فيؤخر عنهم العذاب لعلمه المطلق بما هو أصلح وأنفع، وعلمه يتعدى الظواهر إلى البواطن والخفايا، قال تعالى: {إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى} 412، لذلك فقد كان صبره على عباده على أساس ثابت ومتوازن ووفق قانون إلهي عادل، فعلم الخالق بعباده الصادق منهم والمنافق، الكافر منهم والمؤمن، العاصي منهم والمذنب علمٌ حقٌ فيوزع على حسب علمه صبره على كل منهم ما يستحقه بلا زيادة ولا نقصان، وهو بالتالي يعلم مقدما من الذي من عباده سيصمد ويثبت أمام الشدائد ومن هو الذي سينهار ويضيع.

وبالرغم من علم الخالق المطلق بعباده إلا أنه لا يعجل لهم العقاب أو الثواب، فشدّة جحود الكافرين وعصيانهم وظلمهم لم تجعل العليم يغير في توقيت وقوع عقوبته عليهم، وكذلك حبه القوي لعباده المؤمنين الصالحين لم يجعل الخالق يتعجل في منحهم الثواب والخير الكبير والنعيم الدائم، فكان صبره على جميع العباد ولكنهم افرقوا في نتيجة هذا الصبر فمنهم من كان عاقبته سيئة ومنهم من كان عاقبته خير ونعيم، قال تعالى: {فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَى بِجَهَنَّمَ سَعِيرًا إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصَلِّيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضَجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَمْ يَكُنْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَوُدَّخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا} 413.

412 الأعلى 7.

413 النساء 55 . 57.

فعلى خليفة الله أن يصبر على تلقي العلم المفيد الذي من شأنه أن يجعله مدركا للأمور وعواقبها، عالما بما هو نافع له في دينه ودنياه، فلا يغفل عن السعي لطلب العمل، ولا يتكاسل عن تنمية حب المعرفة والفائدة، فلا يمكن أن يصل الإنسان إلى التحلي بالصبر وهو جاهلٌ بمزاياه ونتائجه، فالإنسان يصل بالعلم إلى حدود فهم الصبر فهما صحيحا فينأى بنفسه عن العجلة والتهور، لأن علمه يكون رادعا له عن التسرع المذموم، ولكن بالعلم نصبر على الأمور وبالعلم نصل إلى معرفة هذا الخلق الكريم، ومن هنا كان لا بدّ للخليفة أن يصبر على تلقي العلم مهما كانت طريقه صعبة وغير ميسرة له.

الصبور هو الحكيم الخبير بعباده:

الله الصبور سبحانه وتعالى على ما يصدر من عباده من ذنوب وأخطاء أحيانا يتبادر إلى أذهاننا فورا أنه سبحانه يترك عبده المسيء الظالم دون أن يعاقبه على ما يقتضيه، ولكن في حقيقة الأمر فإنّ الله تعالى بصبره يعطينا درسا رائعا في التعامل مع بعضنا البعض، فهو يترك العبد أحيانا يسيء ويخطئ في حقه عزّ وجلّ ومع ذلك نجده عزّ وجلّ يعطيه ويهب له وذلك لأمرين:

أولهما كي يتمادى في كفره وعصيانه فيستحقّ بذلك العذاب الأشد، كما حدث مع قارون إذ أن الله أعطاه من المال والخيرات ما لم يعطه لغيره، ولكنه بدل أن يشكر الله على ذلك ويحمده فقد تجرّب وأخذ الغرور وجحد نعمة الخالق عليه، ولكن الله لم يمنع عنه نعمته مباشرة بل صبر عليه وتركه يزيد في غروره وظلمه إلى أن علم المولى عزّ وجلّ بخبرته في تسيير أمور العباد أنه لا بدّ من إنزال عقوبته به، قال تعالى: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ فَحَسَفْنَا بِهِ وَبَدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَآنَ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَآنَ لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} 414، فالعطاء هنا كان بخبرة الخبير المطلق لكي يفصل بين من تمنوا ما أنعم الله على قارون ورأوا فيه الإنسان المحظوظ وبين من صبروا على عدم امتلاكهم لهذه النعمة، فالصبر فرّق بين الفريقين وخبرة الخبير المطلقة أوضحت هذا الفرق عند حلول العقاب ووقوع الجزاء عليه في الدنيا، ولا يستطيع أن يقوم بذلك إلا من كانت له القدرة الكافية لتدبير الأمور بخبرة وحكمة.

ثانيهما: كي يرجع هذا المخطئ عن خطئه ويتوب:

الخالق عزّ وجلّ بخبرته المطلقة يعلم أن من عباده من هو قابل للتوبة والرجوع عن الخطأ إذا أتحت له الفرصة لذلك، قال سبحانه وتعالى: {وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ} 415، فيصبر بخبرته على هؤلاء المذنبين متيحاً الفرص

414 القصص 76 .82.

415 الشورى 25.

لهم، وقد يعود البعض إلى ارتكاب الذنوب والأخطاء فيصبر عليه الله عزّ وجلّ لعلمه المسبق بما سيكون عليه حال هذا الإنسان بعد حين، لذلك كان صبر الخبير على عباده المذنبين.

فصبر الصبور المطلق ترافقه الحكمة المطلقة لما كان ذلك علاجاً لأمر كثيرة، فالله المثل الأعلى: فقد نجد إنساناً صبوراً لكنه بالرغم من ذلك لا يرى أبعد من أنفه، فلا يستطيع أن يحسب الأمور بشكل صحيح وواضح، فلا يصل لنتيجة مع نفسه أو مع غيره ترضيه وتجعله راضياً أو مدركاً، ولكنّ الصبور المطلق هو الذي يرى ويحسب ويدقق ويدرك الأمور بروية تامة لا تأخذه العجلة ولا التسرع، لذلك لا بدّ أن يجتمع في نفس خليفة الله بالإضافة الصبر الممزوج بالحكمة والوعي التام والعلم المفيد الذي يدعم الحكمة في الإنسان.

فالإنسان الحكيم تجده يعالج أموره من زوايا عدة فلا يضعها تحت زاوية واحدة فقط، بل إنه يقلّبها حيث يجد الأفضل والأنسب لها، إذن فهو هنا يعالج المشكلة بحكمة ولا بدّ أن يصل إلى أفضل الحلول والنتائج، فقد يضطر الإنسان أحياناً في المجتمع أن يقف أمام مشكلة ما بعد أن يستنفذ جميع المحاولات لعلاجها والوصول إلى حل واضح وإيجابي، فلا بدّ وقتها لهذا الإنسان أن يصبر أكثر وأكثر لأن علاجها يكمن في المزيد من الصبر، فتأخذ المشكلة وقتها وتبدأ بالانتهاء، وبذلك تبدأ هذه المشكلة بالتلاشي بعد أن كانت ذات تأثير كبير في نفوسنا، ومثال ذلك حينما يتوفى الله تعالى أحب الناس إلى قلوبنا، هذا الأمر يكون صعب الاحتمال لشعور الإنسان وقتها أن الموت أمر يصعب تحمله للإحساس المذهل ساعة الفراق، ولكن هذا الأمر الذي كان عظيماً كبيراً نشعر أنه مع طول الفترة الزمنية يبدأ بالتضاؤل والصغر في النفوس شيئاً فشيئاً، وذلك باحتساب الأجر والثواب عند

الله سبحانه وتعالى، فإذا كان الحزن ساعة الموت هو من أكبر الأشياء التي نمر بها في حياتنا الدنيا ويأتي الصبر لكي نقوى عليها ونتجاوزها، فما بالك بمشاكل وهموم الحياة الأخرى.

إذا من الأكيد أننا لو استعنا بالصبر والحكمة لاستطعنا حل كافة المشاكل الاجتماعية التي تحيط بنا، ولأمكننا القضاء على الكثير من الأمراض الاجتماعية التي طغت على حياتنا في مجتمعاتنا الإسلامية الحديثة، ولكانت لدينا القدرة لمواجهة أي ظاهرة اجتماعية سلبية، فمثلا لو أخذنا بعض الأحداث المنحرفين سلوكيا وقمنا بدراسة حالاتهم بصبرٍ وحكمة وخبرة لكل الدوافع لهم التي من شأنها أن تدفع بهم للوصول لذلك لكننا قد وصلنا إلى حلول أكثر إيجابية من تلك الموجودة الآن، لأن الصبر على المعرفة والبحث والتقصي هو من أروع وأفضل أنواع العلاج الرادع الذي سيغينا عن الكثير من المؤسسات الاجتماعية، بل سيكون لدينا طاقات فردية في داخل المجتمع الإسلامي هائلة تفيده وترقى به إلى مكانة مرموقة بين باقي المجتمعات الأخرى، وكذلك نلاحظ في حالات كثيرة بين الطلاب في المدارس أنهم يملكون مواهب وقدرة على الإبداع إذا أُتيحت لهم الفرصة لذلك، وذلك لا يحتاج من المرشدين والمشرفين إلا قليل من الصبر والمراعاة لأولئك الطلبة المميزين، لكي نجد أمتنا المسلمة مبدعة منتجة، وهذا من شأنه أن يجعلنا ندرك ما للصبر من جوانب إيجابية ومفيدة تعود على الإنسان وعلى من حوله.

الصبور هو الرحيم:

نستشعر أن في صبره رحمة لعباده منهم الكافر والمسيء والمذنب، فبالصبر تتولد الكثير من الفرص للعباد لمراجعة النفس ومحاسبتها لعلها ترجع إلى الحق أو تتوب عما كانت فيه، فتكسب بذلك آخرتها، حتى

مع عباده المؤمنين فإن في تعليمهم للصبر والثبات رحمة لهم، إذ أنه ما من صابرٍ على ابتلاءٍ ومحتسب أمره لله إلا وكانت الجنة جزءاً له على صبره، فتتجلى هنا رحمة الخالق بعباده الصابرين، قال تعالى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمُ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ} 416، فقد خلق الله الصبر ليكون عوناً للمؤمن فيرضى بنصيبه ويعلم بأن ما من شيء يصيبه إلا فيه خير لا يدركه هو بعقله المحدود، فالصبور سبحانه وتعالى لا يمكن أن يظلم أحداً من عباده بل هو العادل في حكمه وبين خلقه، فلا يصيب المؤمن إلا ما فيه الخير، فرحمة الله في صبره تتجلى فيم يلي:

1 . عدم تعجيل العقوبة على العصاة والكافرين:

تبارك في علاه يتجلى لنا المعنى العظيم والعميق لهذا الاسم في أنه لا يعاجل في عقابه وانتقامه كل مستحقّ لهما، مهما كانت درجة الخطأ والجحود، فقد وصل الأمر ببعض البشر بالتطاول عليه عزّ وجلّ في تشكيكهم في وجوده أصلاً مثل الملحدين وأصحاب النظريات التي تُرجع وجود هذا الكون للطبيعة منكراً بذلك وجود الخالق عزّ وجلّ، والبعض الآخر من العباد الظالمين لأنفسهم والكافرين الذين نسبوا إلى الله الأبناء وافتروا عليه الكثير من الأكاذيب على مر الزمان، قال سبحانه وتعالى: {أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيماً} 417، وكذلك قوله تعالى: {قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَ هُوَ الْعَنِيِّ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ إِنَّ

⁴¹⁶ البقرة 155 . 157.

⁴¹⁷ الإسراء 40.

عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بِهَذَا أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ قُلْ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ {418، وبالرغم من ذلك فقد أرسل الصبور الرُّسل والأنبياء هدايتهم وإرجاعهم للحق ولكي يصلوا إلى اليقين المثبت في حق الله تعالى، مع قدرته سبحانه وتعالى على أن يخسف بهم الأرض في أي وقت، لكنه فتح لهم باب التوبة والتراجع بإعطائهم الفرص المتتالية للإصلاح.

وقد وصلت درجة كفر الكفرة إلى مرحلة يستحقون معها أن يسخطهم الله في حينها وينزل عليهم عقابه في وقتها، قال تعالى: {وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمَلَيْتُمْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا تُمْ أَخَذْتُمُ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} {419، وكذلك قوله تعالى: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ} {420، فالخالق عز وجل قادر على أخذ الكفار في أي وقت يشاء ولكن حكمته المطلقة ورحمته وصبره عليهم يؤخر عقابه عنهم في الدنيا، ومن يتمادى في كفره فإن عذاب جهنم ستكون له بالمرصاد، ولن يغفر لهم ولن يعفو عنهم بصبره بل يمهلهم الوقت من رجوع للحق كان له الفوز والنجاة، فقد نلاحظ حتى في أيامنا هذه أن الكثير من الأوروبيين أو أصحاب الديانات الأخرى يعتنقون الإسلام ويتركون ما كانوا عليه من الباطل، قال تعالى: {وَرَبِّكَ الْعُفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلَّ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلاً وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا} {421.

418 يونس 68، 69.

419 الرعد 32.

420 الأعراف 182، 183.

421 الكهف 58، 59.

2- خلق الفرص للتوبة لمن أذنب:

هناك الكثير من المسلمين الذين يقتربون الذنوب والكبائر في حياتهم، ويمضي بهم العمر وهم غافلون عن ضياع حياتهم سدىً، ومع ذلك فإن الرحيم بصبره عليهم وعدم تعجيل عقابه لهم على ذنوبهم يمنحهم الفرص المتكررة للتوبة والتكفير عما صنعوه، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾{422، فبصبر الصبور المطلق يريد الخالق أن يصحح من سير المسلمين ويغفر لهم بحبه الذي يمنحهم الوقت لمراجعة أنفسهم والعودة لطريق الحق والصواب، فيأتي صبر الخالق عليهم في مواجهة إغراءات الدنيا ووسوسات الشيطان الرجيم، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَابَ مِنْ بَعْدِ ظُلْمِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّ اللَّهَ يَتُوبُ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾{423، وقوله عز وجل أيضا في كتابه الكريم: ﴿وَأَخْرَجُوا عَنْكُمْ أَزْوَاجَهُمْ حَلْطًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾{424، فكم من ناجٍ من العذاب بسبب صبر الله تعالى عليه مانحا له الفرصة لتغيير مسار حياته أحيانا بكلمة أو موقف أو فعل أو ابتلاء فينجو من عذاب الحريق بالعودة عما كان فيه والتوبة من ذنوبه.

3- ضرب الأمثال للعباد بصبر رسله:

422 النساء 27، 28.

423 المائدة 39، 40.

424 التوبة 102.

من كرمه تعالى على عباده أن أمرهم بالصبر علاجا لما قد يتعرض له الإنسان من ضيق وبلاء بأشكاله المتباينة، وقد جعل الله عز وجل الرسل صلوات الله عليهم وسلامه أمثلة للصبر على الابتلاءات والمحن، فما من رسولٍ أو نبيٍّ إلا وكان الصبر من صفاته، ومن شأن هذا أن يدعم فينا هذه الصفة، حيث أن الصبر كان وسيلة من ضمن الوسائل التي لجأ إليها المصطفين والأخيار في مشوار دعوتهم ومسيرة تبليغهم لرسالات الخالق عز، قال تعالى: {وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ} 425، وقوله تعالى أيضا: {وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا} 426، وكان أمر الله بالصبر لرسله علاجا يتعامل به مع الكفرة والعاصين، وليس مجرد توقيت فيه تأخير أو مَاطلة، وهو عبارة عن مبدأ اعتمد عليه الرسل والأنبياء يركزون عليه في تحمل معاناة تبليغ الرسالة لتوحيد الخالق سبحانه وتعالى، ولولا ذلك لما بلغت الدعوة إلى توحيد الله هذا المدى بإذنه تعالى، فصبرهم كان سلاحا قويا يدعم شعور النصر فيهم وليس شعور بالضعف والاستسلام والهزيمة، بل أن صبرهم على الشدائد والأذى حتى من أقرب الناس إليهم كان نابعا من حبهم لله سبحانه وتعالى وحرصهم على رضاه، فهذا كان حد مبتغاهم مرضاته عز وجل، ونستطيع أن نذكر هنا أن الرضا متبادل بين الصبور وعباده الصالحين، قال تعالى: {لَا يَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ

⁴²⁵ النحل 127، 128.

⁴²⁶ المزمل 10.

حَزَبَ اللَّهُ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 427، فهنا يتجلى لنا الحب المتبادل وهو أرقى درجاته وأسمى أنواعه، هذا الحب الخالص الذي لا يمكن لإنسان أن يعبد الله تعالى ويصل بحبه له هذه الدرجة من الحب إلا وتجد الله تعالى قد أهدها بين جنبيه قلبا صابرا على الشدائد ما يجعل المؤمن صابرا لا يتذمر لعلمه أن صبره في الله لهذا الخالق الذي يحبه ويعظمه، والحبيب يسعى دائما لإرضاء حبيبه، والله لن يضيع صبره أبدا، قال تعالى: {أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ} 428، من هنا يتضح لنا حب الله لعباده الصابرين، ومن هنا أيضا نستطيع أن ندرك مصدر القوة التي يتحلى بها عباده الصابرين، وهو الحب النقي الصادق.

فعلى خليفة الله أن يكون حبه لله دافعا لصبره، محتذيا بالصالحين والأنبياء والرسل من قبله، فلا ينكسر أمام حزنه أو يستسلم أمام فشله، أو يضعف أمام مصيبة أو بلاء قد يحلان به، بل عليه أن يستحضر الصابرين في سبيل الله ليشد عزيمته وأن يكون على يقين بأن الله يزيد من محبته لعباده الصابرين، فيكون مضربا مثل بصبره فلا يستطيع أي كان أن يخترق هذا الحصن المنيع الذي لا بينه ولا يعمره إلا الرضا والقبول بقدر الله ولا يأتي هذا الرضا إلا بحبه.

لذلك فخليفة الله هو عنوان الصبر في الأرض، يتعامل مع أمور دينه ودينه بالصبر الجميل الذي من شأنه أن ينصره على نفسه أولا وعلى من يؤذيه ثانيا فلا يشعر باليأس لمجرد امتناع حاجة من الحاجات عنه أو نقصها بل أنه يرى في ذلك حب الله له فيكون رده على هذا الحب بالصبر الذي يرتضيه الله لخليفته في الأرض.

427 المجادلة 22.

428 آل عمران 142.

الصبور هو الصمد:

الله هو الصمد وهي صفة دائمة لله تعالى تنطوي تحتها علمه وحكمته وصبره وحلمه، فهو الذي يعطي كل محتاج حاجته بتعجيلها أو بتأخيرها فالعطاء سواء كان عاجلاً أم آجلاً هو دائماً لخير العبد ومصالحته، قال تعالى: {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} 429، وبما أنه الصمد الذي لا يشاركه أحد في ملكه فهو القادر على كشف الضر والأذى عن الإنسان، بالرغم من أن الكثير من البشر يفتقدون إلى الوصول إلى هذا الحد من اليقين الذي يخلق الصبر في نفوسهم قال تعالى: {وَلَوْ يُعَجِّلُ اللَّهُ لِلنَّاسِ الشَّرَّ اسْتِعْجَاهُمْ بِالْخَيْرِ لَفُضِيَ إِلَيْهِمْ أَجْلُهُمْ فَنَذَرُ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَنْ لَمْ يَدْعُنَا إِلَى ضُرِّ مَسَّهُ كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} 430.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يكون معيناً لغيره وملجأً لهم عند حلول الأزمات، ليستشعر غيره بما للصبر من فضائل وفوائد تعين الإنسان نفسه وتجعله معيناً لغيره.

واسم الله الصبور يعطينا معنى التسليم له عزّ وجلّ بكل شيء، لأن الإنسان حينما يصبر على مكروه أو أذى فهو بذلك يسلم أمره بالكامل لله القوي العزيز، وهنا تتجلى طاعة العبد لخالقه، وكذلك لرسله وأنبيائه المكلفين بتبليغ رسالاته للبشرية، لما كانوا عليه من صبر وحب لله تعالى ويحضرني هنا كمثل لطاعة وحب الله والصبر على الشدائد قصة سيدنا إسماعيل عليه الصلّاة والسّلام مع أبيه إبراهيم

429 الإخلاص 4.1.

430 يونس 11، 12.

عليه الصلّاة والسّلام، فبمجرد رؤية رآها سيدنا إبراهيم بأنه يذبح ولده بأمرٍ من الله تعالى وبالرغم من حبه الشديد لابنه إسماعيل إلا أنه أخبره بما رأى وامثل ابنه لأمر الله، ففي هذا الموقف نستشعر مدى عظمة الصبر والتضحية، وعظمة مكافأة الصبور لهما جزاء صبرهما على ذلك الأمر، قال تعالى: {فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّ هَذَا هُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ وَفَدَيْنَاهُ بِذَبْحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكْنَا عَلَيْهِ فِي الْآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبْرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُؤْمِنِينَ} 431، أحب سيدنا إبراهيم ولده إسماعيل حبا كبيرا لكنه أحب الله أكثر فصبر على أمره وأطاعه، وصبر سيدنا إسماعيل على مصيره لعلمه برحمة الله وحبه، فكان الله رؤوفا رحيفا بهما مكافا لهما على صبرهما فهو الكريم الذي لا يظلم أحدا أبدا.

وعلى خليفة الله في الأرض أن يسلم أمره لله تعالى، ليتعلم كيفية الصبر على البلاء، لأن نفوسنا البشرية أحيانا تخوننا عند حلول الأزمة أو وقوع البلاء، فإن لم يستطع الإنسان الصبر فعلى الأقل يجب أن يحاول التصبر، وأن يدرّب النفس على الصبر ويهيئها لتحمل الشدائد والمصاعب، فلو أنّ كل مسلم تعرض للأذى والبلاء على يد غيره من أعداء الإسلام قد استسلم وانهار لما امتلأت الأرض بالمجاهدين والشهداء والمدافعين عن الإسلام، فمثلا لو أن أهل بيت المقدس تركوها من شدة المعاناة والضغط عليهم من اليهود لما وجدنا أثرا للإسلام هناك ولا مطالبا بعودتها للمسلمين، ولكن بصبر أهلها

⁴³¹ الصفات 102 . 111 .

وجلدتهم وإيمانهم بالله تعالى جعل الأمر أسهل على قلوبهم لتسليمهم الأمر لله خالقهم وطاعتهم له في كل شيء.

فلو أنّ كلّ إنسان عوّد نفسه على الاستسلام لله فقط والطمأنينة والرّاحة في ظله عزّ وجلّ لأراح نفسه من مسألة الغير والاعتماد على بعض النّاس في حلّ أموره، فيصبح بذلك حرا معتزا بنفسه راضيا بنصيبه، ولما كنا سند هذه الدرجة من القلق والتوتر اللذان يسودان المجتمعات المسلمة هذه الأيام، فنجد الخوف يتصاعد في النفوس وعدم الإحساس بالأمان وتصاعد القلق النفسي بين الشباب بصفة خاصّة مع أنه لا بدّ أن يكونوا مثلا للصبر والجلد والقدرة على الاحتمال.

وقد حبا الله عباده المتقين بصفة الصبر، تلك الصفة النبيلة الكريمة التي إذا انغرست في النفس البشرية تنبت صفة الإيثار والتضحية، فالإنسان يصبر أحيانا على أذى يأتيه من أحبّ النّاس إلى قلبه وأقربهم إليه، ويتقبله برحابة صدر وطيبة خاطر ليعلم هذا المخطئ أن يكون متسامحا عطوفا، فيقابل هو بدوره الأذى بإحسان، فكثيرا ممن يسيئون لأقربائهم وفي المقابل حين احتاجوا أولئك المسيئين للعون وجودوا من أساؤوا إليهم يمدون يدّ المساعدة والعون لهم على طبق من الحب والتسامح، والأمثلة في الدنيا وبين البشر على ذلك كثيرة، فمثلا أروع ما يمكن أن نضرب به المثل في هذه الحالة هي الأم، فهي تفني أيام عمرها وزهرة شبابها في تلبية متطلبات أبنائها وخدمتهم أطفالا وكبارا على السواء، ولكن في كثير من الأحيان والأحوال يقابل هذا الآن الحب والعطاء والتضحية بالنكران والقسوة والجحود، فيتجسد الصبر على هذا الشعور في شخص الأم، في احتمالها لهذا الأذى النفسي الذي من شأنه مثل هذا الرد أن يسبب صدمة نفسية عليها،

حيث إن ولدها جزءٌ منها لا يمكن الاستغناء عنه، سواء كان بيولوجيا أو عاطفيا، فتصبر الأم وتصبر مع اختلاط صبرها بدعواتها بالخير والصلاح والهداية له، وأن يرزقه الله ويوفقه ويعطيه من نعمه، فهنا الأم تجسد الصبر على شديد الاحتمال وصعب التحمل فيصبح الصبر هنا قمة العطاء وقمة التضحية، فبذلك نخلص إلى أن صبر الأم على أبنائها نابعٌ من شدة الحب الذي يحمله قلبها لأبنائها هو منبع السكينة والرضا على أذى من تحب، إذن الصبر هنا يعكس فوائده الصحية على نفس الأم التي لولا صبرها الذي منحها الله به لكان عقلها لا يحتمل هذا الجحود، لأنه من الصعب أن تعيش الأم صدمتها في أعلى الناس على قلبها في الدنيا، فهذا الصبر أحدث التوازن النفسي الذي منع الضرر الصحي والعقلي أن يصيب أي أم تعاني من هذا الأمر الذي أصبح أكثر شيوعا في عصرنا هذا.

فالصبر بالأساس هو عنوان التضحية والإيثار على النفس والدافع هنا راقٍ جدا، فكم من صابر في الدنيا على كثير من أذى الأحبة لأتته يؤثرهم على نفسه، والصبر هو الذي أعطاه هذا الارتياح والرضا، فيصبح إنسانا متصفا بالكرم والعطاء اللامحدود، ويجعله واثقا بالله عز وجل فيستشعر بقربه منه دائما ودعّمه له ما يمنحه القوة والمناعة ضد أي مرض نفسي يؤدي في نهايته للدمار أو الفساد أو الضياع، كما نلاحظ في المجتمعات الأوروبية بصفة عامة تزايد نسبة الانتحار، إذ أنهم يصلون لمرحلة يأس وضيق ووحدة لا يمكن أن يشغلها إلا حب الله والقرب منه، على عكس عباد الله الصالحين الذين حتى مع ضيق الحال تجدهم أصحاب عطاء وتضحية وتسامح وحب، مثلما ذكرهم الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ

عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} 432، فطبيعة البشر تجعلهم من محبي المال والدنيا ولا يكتفون من حب المال رغم سعة الحال عليهم، ولكن من كان يبتغي وجه الله وهم عباده المخلصون فإنهم بالرغم من ضيق الحال تجدهم يكرمون غيرهم ويؤثرونهم على أنفسهم لما تحلوا به من صبر على ضيق الحال.

13 . مهدي هادي:

لا شك أنّ الأنبياء والمرسلين على الهدى لأنهم مكلفون من الهادي عزّ وجلّ، والهادي سبحانه هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أفقوا برّبوبيّته وهدى كلّ مخلوق إلى ما لا بدّ له منه في بقائه ودوام وجوده، وهو الذي أرسل الرّسل للهداية، فهدى كلّ نبي أو رسول إنما هو هدى الله، ومن هنا كان يعقوب عليه الصّلاة والسّلام مهديا هاديا مصداقا لقوله تعالى: {وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كَلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} 433.

ويعقوب مهدي في:

العقيدة.

القول.

السلوك.

432 الحشر 9.

433 - الأنعام 84.

وقوله: كلاً هدينا يعني: أي كلّ هؤلاء هديناهم يعني إبراهيم وإسحاق ويعقوب، وفائدة ذكر هديهما التّنويه بإسحاق ويعقوب، وأتّهما نبيان نالا هدى الله كهديّيه إبراهيم.

وهدى يعقوب لم يكن لذاته بمعنى: أنّ الله هداه ليكون مهتدياً، بل هداه ليكون هادياً لنفسه ولغيره، وإلا ما فائدة الهدى إذ لم يظهر بعد العقيدة في السلوك ليكون أسوة.

هنا نتساءل:

هل يكون الهدى بالتبليغ فقط؟

أم يكون بوسائل أخرى؟

للإجابة عن هذه التساؤل نقف مع أنواع الهداية وهي:

1- هداية دلالة.

بمعنى: أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهدوا ووهبهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياساً ومنطقاً واستدللاً ونتيجة واقتناعاً وسلوكاً واقتداءً وتأثيراً وتأثراً، فمن قبل وعمل استحقّ النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2 - هداية معونة: بأن يعينه الله ويثبته على الهداية.

3 - هداية تسديد: للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى

الصحيح

- هداية تأييد: للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

5- هداية الإئتساء: بمعنى: أنّ يأتي الإنسان بغيره من المهتدين فيصبح مهتديا.

ويعقوب عليه الصّلاة والسّلام كان مهتديا بكلّ هذه الآن واع من الهداية لأنّه من المصطفين الأخيار الذين اصطفاهم الله عزّ وجلّ وهداهم.

هنا يأتي التساؤل:

فبعد أن عرّفنا بهداية يعقوب، فكيف يكون هاديا بدوره؟

هذا التساؤل الإجابة عليه تستدعي عدة أمور منها:

نبوة يعقوب.

أسوة يعقوب.

بيت يعقوب.

سلوك يعقوب.

نقول: إنّ الأنبياء والرّسل بما جاؤوا به من الحقّ المبين لا شك أنّهم هداة للحقّ، وهذا وصفهم عند أصحاب اليقين من المؤمنين، وكذلك عند العقلاء من غيرهم، فمن لا ينظر إلى هؤلاء على أنّهم أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم ليس له بد إلا أنّ ينظر إلى سلوك الإصلاح فيسميهم مصلحين والمصلح هاد.

ولو نظرنا في أسوة يعقوب وبيته يظهر لنا أنّ أسوته كان إبراهيم وإسحاق عليهما الصّلاة والسّلام وهما هداة مهتدون.

أمّا سلوك يعقوب المتمثل في سلوكه مع أبناء عقوه بما يكره من مخالفة الحقّ فيدل ولا شكّ دلالة واضحة على أنّ يعقوب هاد مهتدٍ.

وعليه فإنّ يعقوب عليه السّلام كان هاديا بهداية الله الهادي الذي استمد صفة الهداية منه، والهادي هو الذي يعلم بالمطلق ما لم يعلمه من يُهدى إلى ما يُهدى إليه، ويعلم بصلاحه قبل بلوغه منه، وبعد الهداية إليه وبلوغه تكون الهداية حقّ بالفعل الحقّ بالقوّة والقدرة الحقّ.

الهادي هو مغير الأحوال من حال إلى حال أفضل، وهو على كل شيء قدير، والهادي هو الخالق الذي خلق المهتدين، {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ} 434 وهو منزلّ نصوص وحكم وكلم الهداية إليهم حتى لا يضلّون وإن ضلّ بعضهم فإن الهداية من ورائه تلاحقه بالفعل وتسابقه بالقول حتى بلوغها ومن ضلّ بعد ذلك كان من الضالين.

ولأن الهادي صفته الكمال، والمخلوق صفته النقص، فالمنقوص دائما في حاجة للكامل الذي يهديه إلى ما يجب.

وهو الله الهادي إلى سواء السبيل، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، وليس كهديه هدي، فهو المنزه عن المثلية في الذات والأفعال والصفات.

والهادي من أسماء الله عزّ وجلّ قال: {قل إن هدى الله هو الهدى} 435، أي الصراط الذي دعا إليه هو طريق الحقّ وقوله تعالى: {إنّ علينا للهدى} 436، أي إنّ علينا أن نبيّن طريق الهدى من طريق الضلال.

434 الإسراء 97.

435 البقرة 120.

436 الليل 12.

وجاء في كتب اللغة إن الهادي سبحانه هو الذي بصَّرَ عِبَادَهُ وَعَرَّفَهُمْ طَرِيقَ مَعْرِفَتِهِ حَتَّى أَقْرَبُوا بِرَبُّوَيْتِهِ وَهَدَى كُلَّ مَخْلُوقٍ إِلَى مَا لَا يَبْدُ لَهُ مِنْهُ فِي بَقَائِهِ وَدَوَامِ وَجُودِهِ، وهذا لأن هداية كل مخلوق لبقائه ولدوام وجوده، وهذا هو المعنى الذي يدور عليه بحثنا في أسماء الله الحسنى ودور الخليفة المتخلق بأسمائه، لأن كل ما في ملك الله عبيد له كرها وطوعا، وعليه فإن الهادي سبحانه وتعالى تكرم وتفضل فهدانا إلى الصراط المستقيم، وهو سبحانه وتعالى فعل ذلك جودا وكرما منه، ومن استجاب لهدايته فقد عرف طريق البقاء الأبدي، وضمن لنفسه دوام الوجود في جنّة الخلد هداية من الله الهادي.

والله خلق خلقا من خلقه جبلهم على الطاعة، فهداية هؤلاء هداية ذاتية لا يغفلون عن ذكر الله وينفذون ما أمرهم دون تقصير، قال تعالى: {يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ الْمَلِكِ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ} 437، فيسبح لله كل ما في السماوات السبع، وكل ما في الأرضين من خلقه، ويعظمونه طوعا وكرها، فهو (الملك القدوس) الذي له ملك الدنيا والآخرة وسلطانهما، النافذ أمره في السماوات والأرض وما فيهما، القدوس: وهو الطاهر من كل ما يضيف إليه المشركون به ويصفونه به ما ليس من صفاته (العزير) الشديد في انتقامه من أعدائه (الحكيم) في تدبيره لأمر خلقه فيما هو أعلم به من مصالحهم، وهنا تكون الهداية من الهادي المطلق للهادي بالإضافة.

الهادي هو الذي أرسل الرُّسُلَ للهداية، ولكن أهل الضلال استحبوا العمى على الهدى. قال الله تعالى: {فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى

الهُدَى}438 وحب العمى عل الهدى انصراف بالكلية عن طريق الرشاد إلى طريق الفساد لا محالة ومن طريق الخلافة إلى طريق الغواية، ومن ارتضى هذا المسلك أوجب على نفسه الضلال، وابتعد عن نعمة الله التي أوجبها على نفسه في هداية خلقه إلى ما فيه خيرهم وبقائهم.

وللهداية أربعة أنواع:

1- هداية دلالة.

2- هداية معونة.

3- هداية تسديد.

4- هداية تأييد.

1- هداية الدلالة: بمعنى أنّ الله الهادي قد وضع طرق الهداية لجميع الخلق ليهدوا وأعطاهم من الوسائل التي تعينهم على تقبل الهداية من عقل يربط بين الأشياء قياسا ومنطقا واستدلالات ونتيجة واقتناعا وسلوكا واقتداء وتأثيرا وتأثرا، فمن قبل وعمل استحق النوع الثاني من الهداية وهو هداية المعونة.

2- هداية المعونة بأن يعينه الله ويثبتته على الهداية.

3- هداية تسديد للمهتدي الذي يريد أن ينشر الهدى الصحيح ويدخل في ذلك النوع الخليفة.

4- هداية تأييد للأنبياء بالمعجزات والوحي وليس لسواهم.

– الهادي وأدوات الهداية الدلالية:

الإسلام العظيم هو الدين الخاتم الذي ارتضاه الله منهجا للهداية والإصلاح حاكي عقول الناس بما يتناسب معها في أدوات الهداية فكانت من أساليب الهداية منها ما هو بصري يقيني وقتي ومن ذلك المعجزات البصرية التي تؤدّي بمن يراها إلى عبادة الله وسلوك مسلك الحقّ وهذا النوع من الهدي موجه للأنبياء والناس على السواء، فمن هدي الأنبياء البصري الملموس المحسوس ما قال الله تعالى عن سيدنا إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أَوْمِ تُؤْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنَّ لِيْطَمِّنْ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 439 وهذه الآية تتعلق بالحياة والموت وهما من الأحوال المشاهدة يوميا ولكي تكون مثل هذه الأشياء من الدلائل الهداية أنزلها الله في كتابه ليدكرنا بها النبي عليه الصّلاة والسّلام اقتداء بقوله تعالى: {وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ} 440 فاذكر يا محمد قصّة إبراهيم يوم قال لربه: أرنى بعيني كيف يكون إحياء الموتى، فقال له تعالى: أَوْمِ تُؤْمِنُ بِأَنِّي قَادِرٌ عَلَىٰ إِحْيَاءِ الْمَوْتَى؟ قَالَ: بَلَىٰ، عَلِمْتُ وَصَدَّقْتُ، وَلَكِنْ لِيَزِدَادَ إِيمَانِي وَيُطَمِّنَ قَلْبِي. قال الله تعالى: خذ أربعة من الطير فضمها إليك ثم جزّهنّ بعد ذبحهن واجعل على كل جبل من الجبال المجاورة جزءا، ثم نادهن فسيأتينك مسرعات وفيهن الحياة كما كانت، واعلم أن الله لا يعجز عن شيء وهو ذو حكمة بالغة في كل شيء، وهذه الأمور من المعجزات التي لا تحدث إلا على أيدي الأنبياء. ولو أننا دققنا النظر يوميا فيما حولنا لرأينا كثيرا من المعجزات في أنفسنا وفي نظام الكون

439 البقرة، 260.

440 الذاريات، 55.

والحياة، لكان الإحياء والموت لنا شيء عادي وأصبحت مثل هذه المعجزات عندنا أمورا عادية. فإن كثيرا من المخترعات الحديثة لو أخبرنا عنها أحدٌ قبل مدة من الزمن لما صدقناه، مع أنها من صنع الإنسان، فكيف بقدرة الله العظيم. فهو بهذه الاختراعات قد وفر لنا أدلة جديدة على وجوب الاهتداء إليه والإيمان به.

- ومن أدوات الهداية الدلالية: الآيات الكونية ومنه الشمس والقمر والنجوم والبحار والسماء والأرض والنبات وغير ذلك تدل كلها على أنه الواحد الأحد قال الله تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسْحَرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 441.

الله هو الخالق بلا منازع ولا شريك وقد أوجد في الخلق مبدأ الفطرة ليعلم الناس المؤمن والكافر أن الخالق والمالك الذي خلق الأجرام العلوية والسفلية في ستة أيام في مقدار ستة أيام والمتعارف أن اليوم زمانُ طلوع الشمس إلى غروبها، ولم تكن المواقيت هكذا يوم خلق الله الخلق، فمقدار الوقت الفعلي للخلق يعلمه الله أو هو شيء تقريبي للأذهان حتى تستوعب، والعلم الكامل يعلمه الله، مع القدرة على إبداعها دفعة واحدة، وهذا الزمن المذكور في الآية دليل على

، 441 لأعراف 54، 57

الاختيار والعظمة، وحثُّ على التأني في الأمور، ثم استوى على العرش والاستواء كما سبق أن أشرنا في الاسم العلي صفة لله تعالى بلا كيفية، فقد استوى على العرش على الوجه الذي عناه منزها عن الاستقرار والتمكن، والعرشُ الجسم المحيط بسائر الأجسام سمي به لارتفاعه أو للتشبيه بسرير الملك، ومن الآيات ذات الدلالة الهادية على أنه الله رب العالمين قوله تعالى: (يَعْشَى اللَّيْلَ النَّهَارَ) يغطيه به (يَطْلُبُهُ حَثِيئًا) يعقبه سريعا كالطالب له لا يفصل بينهما شيء، والحثيئُ من الحث أي السرعة (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره) فهو سبحانه القادر الخالق خلقهن حال كونهن مسخرات بقضائه وتصريفه، (أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ) فإنه الموجد لكل والمتصرف فيه على الإطلاق (تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ) تفرد تعالى بالوحدانية في الألوهية وتعظم بالتفرد في الربوبية، فلا إله غيره ولا رب سواه.

وهو الله الهادي الذي في هديه طريق النجاة للفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة فمن آيات هدايته إنزال المطر بمقدار معين حتى تستفيد الأرض والخلق الذي عليها بالماء فيشربون ويزرعون يصلحون الأرض، وحتى إن هم أهملوا تلك الأرض فالله ينبت منها النبات الطيب مثل الزيتون والنخيل والأعناب، وغير ذلك من الثمار التي فيها لا شك فائدة عظيمة لخلق الله على الأرض، ومن آيات هدايته الليل والنهار والشمس والقمر تلك الدلائل الباهرة التي لا بد لكل متأمل لها أن يدرك أنه الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وغير ذلك من دلائل شاهدة على أنه الواحد الهادي للتي هي أحسن قال الله تعالى: {هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ

وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِ إِنْ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاجِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ} 442 وهذه آيات أخرى على دقيق صنع الله تعالى وعلمه ممزوجة بامتنان، وهذا انتقال للاستدلال والاهتداء بإتقان الصنع على وحدانية الصانع وعلمه، وإدماج بين الاستدلال والامتنان. ونيطت الدلالات بوصف العقل لأن أصل العقل كاف في الاستدلال والاسترشاد بها على الوحدانية والقدرة، إذ هي دلائل بيّنة واضحة حاصلة بالمشاهدة كل يوم وليلة.

الهداية التأملية في الكون وفي النفس:

ومن الشواهد التي تصل بالمرء إلى الهداية عن طريق التأمل الخارجي للوصول إلى الحق من كلام الله تعالى قال الله تعالى: {وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} 443. فقولهُ: (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً) الله سبحانه وتعالى أخرج الناس من بطون الأمهات واستثنى من ذلك آدم عليه الصلّاة والسّلام، وقد فطر الله الإنسان على الفطرة التي هي كما أسلفنا الهداية الدلالية، وفي مرحلة الفطرة جعل الله الإنسان خالياً من العلم والمعرفة لا يهتدي سبيلاً ثم وضع له أدوات للهداية الذاتية التي لا يفترق فيها إنسان عن آخر فقال تعالى: (وجعل لكم السمع

442 النحل 10، 14

443 النحل 78، 79.

والأبصار والأفئدة) فالله سبحانه وتعالى إنما أعطاكم أيها الناس هذه الحواس لتتهتدوا بها من الجهل إلى العلم، فجعل لكم السمع لتسمعوا به نصوص الكتاب وقوله الحقّ، والسنة وهي الدلائل السمعية لتستدلوا بها وتهتدوا إلى ما يصلحكم في أمر دينكم، وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها عجائب مصنوعاته ومعجزاته، وغرائب مخلوقاته، فتستدلوا بها على بواحيته وتهتدوا إليه طائعين غير عاصين. وجعل لكم الأفئدة لتعقلوا بها وتدركوا القول الحقّ والفعل الحقّ، وتفهموا معاني الأشياء التي جعلها دلائل بواحيته، فالله الهادي خلقكم في بطون أمهاتكم وسواكم وصوركم، ثم أخرجكم من الضيق إلى السعة، من ضيق الأحشاء إلى سعة الأنحاء، وجعل الحواس أدوات لإزالة الجهل الذي ولدتم عليه واجتلاب العلم والعمل به، ومن آمن به واهتدى إلى سبيله كان من المستخلفين فيها.

وقوله تعالى: (لعلكم تشكرون) الله سبحانه وتعالى خلق هذه الحواس للوصول إلى الهداية الحقيقية إلى الله وإنعام الله على الإنسان بهذه الحواس ليستعملها في شكر من أنعم بها عليه، ثم نجد دليلاً كونياً ليهتدي به المتأمل في خلق الله (ألم يروا إلى الطير مسخرات) مذلات طائعات لله الذي هداها لسر الطيران بأبسط الوسائل التي تفوق قدرة الإنسان، وإن حاول أن يحاكيها فلا شك إنه لن يصل إلى قدراتها التي ذللها الله لها (في جو السماء) في الجو وفي الفضاء الواسع بين السماء والأرض وهو الهواء المعد كميديان مناسب لطيرانها (ما يمسكهن إلا الله) يعني في حال قبض أجنحتها وبسطها في جو السماء، وهذا حث على الاستدلال بها على أن لها مسخراً سخرها، ومذلاً ذللها، وممسكاً أمسكها في حال طيرانها ووقوفها في الهواء، وهو الله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون) وقد أفرد وخصص

المؤمنين بالذكر؛ لأنهم هم الذين يعتبرون بالآيات ويتفكرون فيها
وينتفعون بها دون غيرهم فيهتدون.

ومن الشواهد التأملية التي تؤدّي إلى الهداية والإيمان بالله موقف
سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام وهذا ما بيّنه قول الله تعالى:
{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ
الْمُوقِنِينَ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِ
لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأِن
لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ
هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي
وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ
الْمُشْرِكِينَ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا
تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا
تَتَذَكَّرُونَ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ
يُنزَلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ
تَعْلَمُونَ} 444.

(فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي) ويقال: إنما قال
ذلك على سبيل الاستفهام أهذا ربّي؟ (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: غاب
الكوكب (قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) يعني: لا أحب ربّيًا يتغير عن حاله
ويزول (فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا) يعني: طالعا. ويقال: إن ذلك كان في
وقت السحر، وكان ذلك في آخر الشهر. فرأى كوكبا: فلما ارتفع
ذلك الكوكب وطلع الفجر نقص ضوءه (قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ) لا
أحب ربّيًا يتغير. فلما رأى القمر فرأى ضوءه أكثر (قَالَ هَذَا رَبِّي)
على سبيل الاستفهام (فَلَمَّا أَفَلَ) يعني: نقص ضوءه حين أسفر

الصبح (قَالَ لَيْنٌ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لِأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ) يعني: لئن لم يحفظ ربِّي قلبي. لقد كنت اتخذت إلهًا ما لم يكن إلهًا (فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَارِزَةً) يعني: طالعة قد ملأت كل شيء ضوءًا: {قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ} يعني: أعظم وأكثر نورا (فَلَمَّا أَفَلَّتْ) يعني: غربت. علم أنه ليس برَبِّ دائم. فجاءته أمه فقال لها: من ربِّي؟ قالت: أنا. قال: ومن ربِّك؟ قالت: أبوك. قال: ومن ربِّ أبي؟ قالت: نمرود بن كنعان. قال: ومن ربِّه؟ قالت له: اسكت. فقال لها: كيف هو؟ هل يأكل ويشرب وينام؟ قالت: نعم. قال: هذا لا يصلح أن يكون ربًّا وإلهًا. فرجعت الأم إلى أب إبراهيم، فأخبرته بالقصة فخرج إليه فسأله مثل ذلك. ثم قال له في آخره: تعال حتى تعبد الذي خلقتي وخلقك وخلق نمرود. فغضب أبوه، فرجع عنه، ثم دخلت عليه رافة الوالد لولده، فرجع إليه. وقال له: ادخل المصْرَ لتكون معنا، فدخل فرأى القوم يعبدون الأصنام. فدعوه إلى عبادة الأصنام فقال لهم حينئذٍ: {قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} فقبل له من تعبد أنت يا إبراهيم؟ فقال أعبد الله الذي خلقتي وخلق السماوات والأرض فذلك قوله: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ} يعني: أخلصت ديني وعملي (للذي فَطَّرَ السماوات) خلق السماوات (والأرض حَنِيفًا) يقول: إني وجهت وجهي مخلصًا مستقيماً (وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ) على دينكم. ويقال: إن قوله (هذا ربِّي) قال ذلك لقومه على جهة الاستهزاء بهم 445. كما قال: {قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ} 446 ويقال: أراد بهذا أن يستدرجهم فيظهر قبيح فعلهم، وخطأ مذهبهم وجهلهم. لأنهم كانوا يعبدون النجوم والشمس، والقمر.

445 سنن ابن ماجه، ج 1، ص 84

446 الأنبياء 63.

وأكثر المفسرين ذكروا أنّ ملك ذلك الزمان رأى رؤيا وعبرها المعبرون بأنّه يولد غلام ينازعه في ملكه، فأمر ذلك الملك بذبح كل غلام يولد، فحبلت أم إبراهيم به وما أظهرت حبلها للناس، فلما جاءها الطلق ذهبت إلى كهف في جبل ووضعت إبراهيم وسدت الباب بحجر، فجاء جبريل عليه السّلام ووضع أصبعه في فمه فمصه فخرج منه رزقه وكان يتعهد جبريل عليه السّلام، فكانت الأم تأتيه أحيانا وترضعه وبقي على هذه الصفة حتى كبر وعقل وعرف أن له ربّا، فسأل الأم فقال لها: من ربّي؟ فقالت أنا، فقال: ومن ربّك؟ قالت أبوك، فقال للأب: ومن ربّك؟ فقال: ملك البلد. فعرف إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام جهلهما برّبهما فنظر من باب ذلك الغار ليرى شيئا يستدل به على وجود الرّب سبحانه فرأى النجم الذي هو أضواء النجوم في السماء فقال: هذا ربّي إلى آخر القصّة 447.

إنّ إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام كان قد عرف ربّه قبل هذه الواقعة بالدليل. والدليل على صحة ما ذكرناه أنه تعالى أخبر عنه أنه قال قبل هذه الواقعة لأبيه آزر: ﴿أَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ 448.

فقال تعالى مخبرا عنه أنه دعا أباه إلى التوحيد وترك عبادة الأصنام حيث قال: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا﴾ 449.

قال تعالى: (قال يا قوم إني برئ ما تشركون) يعني أنه لما أثبت إبراهيم عليه الصّلاة والسّلام بالدليل القطعي أن هذه النجوم ليست

⁴⁴⁷ سنن ابن ماجه، ج 1، ص 85.

⁴⁴⁸ لأنعام 74..

⁴⁴⁹ مريم 42.

بالله تعالى ولا تصلح للربوبية تبرأ منها وأظهر لقومه أنه برئ ما يشركون ولما أظهر خلاف قومه وتبرأ من شركهم أظهر ما هو عليه من الدين الحق فقال: (إني وجهت وجهي) يعني إني صرفت وجه عبادتي وقصرت توحيدني (للذي فطر السماوات والأرض) يعني للذي خلقهما وأبدعهما (حنيفاً) يعني مائلاً عن عبادة كل شيء سوى الله تعالى. وأصل الحنف: الميل، وهو ميل عن طريق الضلالة إلى طريق الاستقامة والهداية. وقوله: (وما أنا من المشركين) تبرأ من الشرك الذي كان عليه قومه.

وقوله عزّ وجلّ: (وحاجّه قومه) خاصمه قومه وذلك لما أظهر إبراهيم عليه السّلام عيب آهتهم التي كانوا يعبدونها وأظهر التوحيد لله عزّ وجلّ خاصمه قومه وجادلوه في ذلك فقال: أتُحاجونني في الله، يعني تجادلونني في توحيدني لله وقد هداني وقد بين لي طريق الهداية إلى توحيدهِ ومعرفةهِ. وجادله قومه في دينه فقال إبراهيم {أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ} إلى توحيدهِ ومعرفةهِ (ولا أخاف ما تشركون به) وذلك أنهم قالوا له: احذر، الأصنام فإننا نخاف أن تمسك بجبل أو جنون لعيبك إياها فأجابهم بقوله ولا أخاف ما تشركون به فإنها جمادات لا تضر ولا تنفع وإنما يكون الخوف ممن يقدر على النفع والضرر وهو قوله (إلا أن يشاء ربّي شيئاً) يعني لكن أن يشأ ربّي شيئاً كان ما يشاء لأنه قادر على النفع والضرر وإنما قال إبراهيم ذلك لاحتمال أن الإنسان قد يصيبه في بعض حالاته وأيام عمره ما يكرهه فلو أصابه مكروه نسبوه إلى الأصنام فنفي هذه الشبهة بقوله (إلا أن يشاء ربّي شيئاً) وهذا استثناء منقطع وليس هو من الأوّل في شيء. والمعنى ولكن إن شاء ربّي شيئاً كان (وسع ربّي كل شيء علماً).

الهادي اسم من الأسماء الحسنى، والهادي "هو الذي بصّر عباده وعرفهم طريق معرفته حتى أقروا برّبوبيته وهدى كل مخلوق إلى ما لا بد له منه في بقائه ودوام وجوده، والهدى ضد الضلال وهو الرشد والدلالة، وقوله عزّ وجلّ: قل إن هدى الله هو الهدى، أي الصراط الذي دعا إليه" 450 الهدى من الهادي هو الطريق الحقّ كما جاء في قوله تعالى: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ} 451 أي أن الله سبحانه وتعالى بمقتضى حكمته بين طريق الهدى من طريق الضلال، وأعطى كل خلق رشده وهداه كما أعطاه خلقه ورزقه، فما كان لله تعالى أن يخلق خلقه دون المتيمات التي أوجد من أجلها هذا الخلق الذي وجد أصلا للعبادة: {وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ} 452، فالعبادة بالضرورة تحتاج إلى هداية من أجل التعرف عليها وعلى كیفيتها وشروطها وأوقاتها ومواقيتها، فالذي يهدي إليها هو الهادي تبارك وتعالى، وحيث إنه خلق الخلق للعبادة فالضرورة تقتضي أن يبين لهم طريق الهدى وما يؤدّي إليه من صلاح ورشاد، وبهداه أيضا يبين لهم نقيض ذلك من طريق الغي والضلال وما يؤدّي إليه من الهلاك، وقد فعل ذلك بما تقتضيه الحكمة الإلهية رحمة بالعباد من جهة، وحتى يقيم عليهم الحجّة من جهة أخرى، وقد بين الله تعالى حال من سلك كلا من الطريقتين رغبة أو رهبة، ومن هنا يظهر لنا أن الهداية هي مظهر من مظاهر الدلالة على الحقّ بما يتوصل به إلى البغية والمنال، فالله الهادي ضمن الهدى لعباده بوسائل أمّنها لهم في خلقهم وتكوينهم من أجل أن يستدلوا على الهادي، فهدى الإنسان بالإرشاد إليه عن طريق وسائل حسية وإدراكية، خارجية من حيث الآيات الماثورة في هذا

⁴⁵⁰ لسان العرب، ج 15، ص 353

⁴⁵¹ الليل 12

⁴⁵² الذاريات 56

الكون الرحيب، أو داخلية ما يتمتع به الإنسان من قدرات خلقية ظاهرة وباطنة، فالظاهرة هي الجوارح من الحواس، والباطنة هي الإدراكات النفسية والعقلية والذهنية، والجمع بين هذه وتلك يكون الإنسان قد استوفي حقه من الهادي من وسائل الهدى، وبالتالي لأنّ الهادي عزّ وجلّ منح وأعطى فيكون قد أقام الحجّة على الذين لا يهتدون لذلك قال تعالى: {أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ} 453 فبنور العقل وإدراك الحس والجمع بين الدلالة العقلية التي تأتي عن طريق الفكر والتأمل، والدلالة السمعية التي جاء بها الخبر الصادق والجمع بينهما يؤدي إلى التمكين من جاني الدلالة وصولاً إلى الهدى من أجل الاستدلال على الهادي واستبصاره.

ونحن بداية نسلم في ما جاء به الخبر الصادق المتواتر من القرآن الكريم، والخبر المنقول أيضاً من العدل الضابط عن العدل الضابط عن رسول الله عليه الصلّاة والسّلام من الأحاديث النبوية الشريفة، في الهدى والرزق والأجل وما إلى هنالك من هذه الأمور المتعلقة بخلق البشر ورزقهم وهداهم وإضلالهم وشقائهم وسعادتهم ومدى آجالهم، كل ذلك كان عند الله مكتوباً قبل أن يخلق الخلق، والهدى والضلال يدخل ضمن هذا الحيز ممن كتب عليه شقي هو أم سعيد، وبمعنى أوضح أمهتد هو أم ضال، وقد قال تعالى في محكم التنزيل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 454 فمهما تكن شديد الحرص على هداية أحد تحبه، فإنك لا تستطيع أن تدخل الهدى إلى عقله أو الإيمان إلى قلبه، ولكن

453 البلد 8، 10

454 القصص 56

الله يهدى للإيمان من علم فيه قبول الهداية واختيارها، وهو الذي يعلم علما ليس فوقه علم من سيدخل في صفوف المهتدين، فالبعيدون عن الهدى يقولون أنّ الله تعالى وهو الهادي إلى سبيل الرشاد لم يرد لهم الهداية وأن الضلال والغي مكتوب عليهم، والأمر هنا من وجهين، أما الأول فإن الله سبحانه وتعالى ما أراد شرا بالعباد وحاشا لله وتعالى عن ذلك علوا كبيرا، ذلك أن الخالق عزّ وجلّ أعطى الإنسان عقلا مميزا، وبين له الخير والشر والهدى والضلال، وبين كذلك المسالك والمعابر والطرق والدروب التي تؤدّي إلى كل واحد ما ذكرنا، وبهذا فإن الله تعالى أقام الحجّة على الخلق وتبرأ من الظلم حيث قال تعالى: {ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ} 455 ومن هذه الآية يتضح لنا الوجه الثاني وهي قضية العلم، فإن هذا الإنسان مع عقله ووضوح رؤيته وتمييزه بين الصالح والطالح فقد ترك طريق الهدى واتخذ الغي سبيلا، وأما الآخر فبعقله وتمييزه ووضوح رؤيته أيضا اختار الهدى واتخذ سبيلا، فبعلم الله المسبق لما سيقع قبل وقوعه كتب هذا من الأشقياء الضالين، وكتب ذاك من السعداء المهتدين، وعلى هذا فالعلم سابق على القدر بما ستكسب أيدي الناس، وبما أن الله تعالى هو خالق الخلق، فهو أعلم بهم وبما سيفعلون وبما سيعملون قبل أن يفعلوه وقبل أن يعملوه؛ ولأن علم الله بهم سبق أفعالهم وأعمالهم لذلك سبق على خلق كل واحد منهم كتابه الذي كتبه عليه، وهذا مصداق لقوله صلّى الله عليه وسلّم: "يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغّة مثل ذلك ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيقول: اكتب عمله وأجله ورزقه وشقي أم سعيد فوالذي نفسي بيده إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى

ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها"456، فالله سبحانه وتعالى لم يرد ظلماً بالعباد، ولذلك بث آياته الدالة على وجوده ليهتدي إليها الخلق ومن خلالها يهتدون إلى الخالق، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل من بعثه الأنبياء والمرسلين، فالله سبحانه وتعالى آمن ضرورات الهداية لخلقه من الأسباب التي عن طريقها تتم معرفة الهدى وصولاً إلى الهادي، وضرورة الخلق إلى معرفة الحق عن طريق الهدى ودين الحق فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم، من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من جهة الهداية، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من النبوة والرسالات وما جاء به الأنبياء والرسل من الكتب التي تحمل الهداية كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً، فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلاً والعشب الكثير، وكان منها أجادب فأمسكت الماء فنفع الله بها الناس، فشربوا منها وسقوا وزرعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به"457 وبالإضافة إلى آيات الهادي المبثوثة في هذا الكون التي تهدي الخلق إلى الصراط المستقيم، فقد أرسل الله الأنبياء والرسل دعاء

⁴⁵⁶ سنن ابن ماجه، ج 1، ص 84

⁴⁵⁷ صحيح البخاري، ج 1، ص 170

إلى سبيل رشاده وهداه مبينا لهم بما أتى أنبياءه من الكتب، وهي الحجج والبراهين الساطعة التي يوضح الله بها الحق، ويدفع بها الباطل، فأنزل مع الرّسل الكتاب الذي فيه البيان والهدى والإيضاح، وأنزل معهم الميزان، وهو العدل الذي ينصف به المظلوم من الظالم، ويقام به الحق وينشر به الهدى ويعامل الناس على ضوئه بالحقّ والقسطاس المستقيم، وبهذا فإن الله تعالى قد أوجد ضرورات الهدى لخلقه عن طريق الرسالات والأنبياء، إضافة إلى آيات الكون الماثوثة أمام أعين الخلق، ذلك أن ضرورة الخلق إلى معرفة ما جاء به الرّسل والأنبياء من الهدى ودين الحقّ فوق كل ضرورة، وحاجتهم إليه فوق كل حاجة، فإنه لا سبيل إلى معرفة الطيب من الخبيث، والصحيح من السقيم من الاعتقادات والأقوال والأفعال والأحوال على التفصيل إلا من هذه الجهات، ولا سبيل إلى الفوز بالسعادة في المعاش والمعاد إلا من هذا الطريق، فالله سبحانه وتعالى كما أوجد ضرورات العيش من الرزق، كذلك أوجد ضرورات السبل من الهداية، فأى حاجة فرضت، وأي ضرورة عرضت، فحاجة الخلق وضرورتهم إلى معرفة سبل الرشاد وطرق الخير إلى الهدى ودين الحقّ فوقها بكثير وهذه المعرفة الضرورية لا تتحقق إلا بأخذ الأسباب الماثوثة والآيات المنتشرة والرّسل المبلغة، ولكن لا تؤتى إلا لمن ألقى السمع ودقق النظر وأجال الفكر حتى يصل إلى طريق الهداية الذي بينه الهادي تبارك وتعالى فيما ذكرنا وبالوسائل التي أشرنا إليها.

ومن الخلق من تتوفر له الوسيلة لكي يرى نور الهدى والإيمان ويقنع بذلك في عقله ولكن قلبه غير مطمئن، وهؤلاء أصحاب الأهواء أو من الذين يستعلون على الآخرين كونهم على هدى فيفعلون بعد ذلك ما يبدو لهم أنه الصواب لذلك قال تعالى: {وَإِخْتَدَّ

قَوْمٌ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ خُلِيِّهِمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُوَازٍ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ} 458 فدل ذلك على أن عدم التكلم والهداية نقص، وأن الذي يتكلم ويهدي أكمل ممن لا يتكلم ولا يهدي، غير أن المهتدي الذي يقف على حقيقة الهادي يعمل بحقيقة الهدى على الوجه الأكمل، فيؤثر بعمله الخيرات، ولا يدع الشهوات تتسرب إلى رشاده، ويكون عقله معيناً له، فهو الذي يدعوه إلى الهدى، ويعصمه من الردى، ويلجم هواه عن الفواحش، ويطلق سجيته في المكارم حتى يبرّ نفسه ويكون من المهتمدين، فمن استظهر اليقظة انتفع بها ونال ما أراد، ومن استهدى الأعمى عمى عن الهدى، ونقصد به عمى البصيرة الذي يبعد الإنسان عن الهدى والرشاد، كما قال الله تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} 459 والمقصود في هذه الآية الكريمة حقيقة الإنسان نفسه لسببين:

أولهما: أنه من الذين يدبون على الأرض.

وثانيهما: أن الدواب هم من البكم حقيقة، ولهذا فالخطاب موجه لبني البشر، أو لبعض منهم، لأنهم يتصامون ويتباكمون عن الحق والهدى، ولو كانوا صما بكما وكانوا هم لا يعقلون، لما غيرهم بذلك، فالله سبحانه وتعالى لم يُعر من خلقه معنوها لم يعقل، ومن خلقه أعمى لم يبصر، وكما لم يُلْمُ الدواب، ولم يعاقب السباع، ولكنه سمى البصير المتعامي أعمى، والسميع المتصامم أصم، والعاقل المتجاهل جاهلاً. ونحن لا نقول إن طريق الهداية إلى الهادي مقتصر على العقل فحسب، ودليلنا على ذلك أننا نرى أناساً من أعقل الناس وعابرة

458 الأعراف 148

459 الأنفال 22

البشرية بعيدون كل البعد عن الهدى، وذلك لاعتمادهم على قدرة القوة العقلية الخالصة، وهذا يعني استنارة العقل وفراغ القلب كما قال تعالى: {فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 460 فموجبات الهدى إلى الهادي إضافة إلى العقل، هي القلوب التي في الصدور حيث يصل بها الإنسان إلى يقين ما يؤمن به، وعلى هذا يكون يقين الإيمان العامر في القلب هو دليل العقل إلى الهدى، ولو لجأنا نلتمس الهدى عن طريق قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا، ومنتهى تجاربتنا، بما أدركته حواسنا، وشاهدته نفوسنا، إذا لقلت المعرفة بالهادي، وقصرت المهمة عن إدراكه، وضعف الاجتهاد في كنهه، فيعتقم بنا الرأي ويموت الخاطر، ويتبدل العقل، ويستبد بنا سوء الظن، ولذلك كانت رحمة الله الواسعة أن أنعم على عباده بالتبليغ عن طريق الرسل والأنبياء وما آتاهم من الرسالات التي فيها الهدى والرحمة، والإخبار عن كل عبرة، وتعريف كل سيئة وحسنة، وبث آيات الهدى للإنسان من المخلوقات على اختلاف أنواعها من الحيوانات والنباتات والجمادات التي ترشد إلى الهادي، وإلى هذه الآيات في ما يمتلكه الإنسان نفسه من الوسائل الدالة على الهدى والمؤدية إلى الهادي حيث قال تعالى: {سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} 461 فهذه الآيات دلائل صدق في أقطار السماوات والأرض وفي أنفس البشر من السمع والبصر والعقل والإدراك والجوارح وبقية الحواس، فهذه بعض أدوات الهداية التي توصل الإنسان إلى الهادي في نفس خلق الإنسان، هذا في جانب المخلوق العاقل بمعنى أنها الدلالات الداخلية التي يمتلكها كل إنسان وهي مرافقة له في حله وترحاله، ونومه

460 الحج 46

461 فصلت 53

ويقظته، ومسيره وإقامته، أي أنها هي الدلائل اللازمة والضرورية الملازمة الموصلة إلى الهادي، وهي وسائل الهداية التي يقيم الله بها الحجّة على من ابتعد عن الهدى اختيارا بما سخره الله له من الوسائل والأدوات، ومن خلال هذه الوسائل والأدوات يتوصل الإنسان إلى الهدى الضروري البسيط الذي يدخل في باب التكليف، بمعنى أن من امتلك هذه الوسائل أصبح بالضرورة مكلفا بالبحث عن الهداية والوصول إليها على قدر ما أوتي من وسائل البحث، لذلك رفع الله القلم عن المعتوه وهو المجنون والصبي والنائم لأن هؤلاء فقدوا تلك الوسائل أو بعضها منها جزئيا أو كليا، أي إما مدى الحياة أو لفترة زمنية محددة متصلة أو منفصلة فقد قال صلى الله عليه وسلم: "رفع القلم عن ثلاثة، عن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم، وعن المجنون حتى يعقل" 462 ويدخل ضمن هؤلاء أيضا من أكره على ما يخالف سنة الله في خلقه من الوصول إلى الهدى مؤقتا أو الابتعاد عنه لسبب طارئ خارج عن الاستطاعة والقدرة البشرية حيث يزول السبب بزوال المسبب كما قال تعالى: {إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ} 463 فوجود الإكراه سبب لرفع الذنب والإثم، وبزوال المسبب يزول السبب، وهذا يعني أن كل إكراه مرهون بوقت، وهو من باب تغيير المسار من أجل المحافظة على النفس من أجل الهدف الأسمى والغاية الأعلى فيما ينشده الإنسان من الهدى.

فالأدوات الداخلية التي تهدي إلى الهادي ما يمتلكه الإنسان هي التي تعرفه الطريق، وبها يأخذ في سبيل الرشاد ويستتير عقله ويستوعب قلبه الدلائل الهادية، وأول هذه الدلائل هي السمع التي نراها أرفع

462 سنن أبي داود، ج 11، ص 481

463 النحل 106

درجة من البصر، ذلك أن السمع يرسم صورة المعاني ويحللها ويقارن بينها عن طريق العقل، وهذه الخاصية لا يمتلكها البصر وإن كان ينقل صورة ذات أبعاد ثلاثية، إلا أنّ الصورة المعنوية أشد تأثيراً وأعظم وقعا على العقل الذي بصور المعاني ويستطيع أن يستنتج منها صورا مركبة غير تلك التي ينقلها البصر، فالصورة المعنوية التي تأتي عن طريق السمع هي مدعاة للتأمل أضعاف ما ترسمه صورة البصر، لذلك يكون الوصول إلى الهداية عن طريق السمع أسرع والتمسك بها أوثق والحجّة بالسمع أشد إقناعاً لذلك قال تعالى: {إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} 464 فإنما يجب دعوة الحقّ مقبلين عليه، الذين يسمعون سماع فهم وتدبر وتحليل وتأمل، وأما الذين لا ينتفعون بسمعهم فهم في حكم الأموات، والذين يسمعون سماع وعي وتدبير وتأمل، فإنما أطاعوا في ما دُعوا إليه واستجابوا للهدى، والاستجابة من الله يعبر بها عن الأمور التي تقع في المستقبل، ودليلنا أيضا على أنّ السمع أدعى إلى الهدى من البصر قوله تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} 465 فمعرفة الحقّ والهدى الذي عن طريقه يتوصل الإنسان إلى الهادي، إنّما تأتي عن طريق سمعه ووعيه لما يسمع، ولكن الذين لا يدعون فهم غير سامعين عن طريق المجاز لا عن حقيقة السمع، أي أنهم سمعوا كلاما ولم يدركوا المعاني والصور التي يحملها هذا الكلام، فمثل هؤلاء أنهم أشدّ شرا من الدواب التي أصيبت بالصمم فلا تسمع، وبالبيكم فلا تتكلم، فهم صمّوا عن الحقّ، فلم يسمعوه ولم ينطقوا به ولم يعقلوه، وصمّوا عن الهداية فلم يقربوا إليها، فهم لا يفهمون عن الله أمره ونهيه ولا يقبلون دلائل الهدى،

464 الأنعام 36

465 الأنفال 21، 22

لذلك سماهم دواب لقلة انتفاعهم بعقولهم عن طريق ما يسمعون، وتتجلى الهداية عن طريق السمع أكثر دقة في المشاهد التي أصل الاعتبار فيها إنما هو بصري الرؤية والهدى فيه عن طريق السمع بقوله تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ} 466 إن سياق الآية في الصور التي أوردتها وجميعها يندرج تحت المشاهدة البصرية التي هي من مهام العين المبصرة في مشاهدة الليل والنهار والآيات الأخرى التي وردت في الآية، غير أن طريق الهداية مرهون بالسمع الذي ينقل صورة غير الصورة المادية الحسية ما ينتاب الإنسان من شعور عميق يؤدي به إلى تحسس الهدى في داخل نفسه لا عن طريق المشاهدة الحسية، وإنما بطريق الشعور والإدراك الذي يولده السمع في النفس الإنسانية، فذكر السماوات والأرض وخلق الليل والنهار بما في ذلك من منافع للسعي والعمل في النهار، وبعد ذلك الهدوء والراحة والسكينة في الليل، وهذا مضيء وذاك مظلم، إنما هي دلائل لمن يسمع ما يقال في ذلك من الآيات من أجل العظة والاعتبار الذي يؤدي إلى الهدى وهو بينة لمن يسمعون ويتدبرون ويعتبرون بذلك.

وأما مسألة الهداية عن طريق الإبصار فلها شأن آخر يختلف كل الاختلاف عن قضية السمع، حيث جاء في محكم التنزيل قوله تعالى: {وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَىٰ لَا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ} 467 فإنك إن تسألهم الهداية أو تطلب منهم أن يهتدوا إلى ما فيه خيرهم لا يسمعون سؤالك ولا يجيبون طلبك فضلا عن إرشادك إياهم، وإنك لتراهم كأنما ينظرون إليك، وهم في الحقيقة لا

466 يونس 67

467 الأعراف 198

يرون شيئاً، فالرؤية هنا بصرية والخطاب للجميع، فهم غير قادرين على الإبصار وهو بيان عجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع، ونعني أن قدرة الإنسان المخلوق إنما تكون بهذه الجوارح، فإنها آلات يستعين بها الإنسان في جميع أموره ويسيرها العقل المدرك، والمخلوقات الأخرى وإن امتلكت هذه الأعضاء والجوارح فهي تفتقد إلى العقل المدبر للاختيار، فالإنسان له الفضل عليها بامتلاكه العقل المسيطر على هذه الأعضاء؛ لأنّ الرجل المشية أفضل من الرجل العاجزة عن المشي وكذلك اليد الباطشة أفضل من اليد العاجزة عن البطش والعين الباصرة أفضل من العين العاجزة عن الإدراك والأذن السامعة أفضل من الأذن العاجزة عن السمع فظهر بهذا البيان أن الإنسان أفضل من هذه المخلوقات بكثير، ومن هنا تأتي أهمية البصر في اختيار طريق الهدى.

إنّ الهادي تبارك وتعالى أمر عباده باتباع سبيله من خلال آياته وأنبيائه وكتبه ورسله، وبين لهم الطرق ووضح لهم السبل حتى يتبين الخلق الرشده من الغي والهدى من الضلال والإصلاح من الإفساد، وميز الصديق الصالح من قرين السوء فقد قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ {468} فالله سبحانه وتعالى ينص في هذه الآية على أنه هو الهادي، لا عن طريق المباشرة، وإنما من خلال الدلائل التي بثها في هذا الكون والمعجزات الدالة على الخالق، والهداية هنا هداية التوحيد والانصياع لأوامر الله تعالى فيما أوجب على الخلق من العبادة، لذلك أنكر على الذين اتخذوا غير الله آلهة أو جعلوا له شريكاً هذا العمل،

إذ ليس من معبودات هؤلاء التي جعلوها شركاء لله من يستطيع التمييز بين الهدى والضلال، فيرشد سواه إلى السبيل الحقّ، فهل القادر على الهداية إلى الحقّ أولى بالاتباع والعبادة أم الذي لا يستطيع أن يهتدي في نفسه، وهو لا يهدي غيره، اللهم إلا إذا هداه غيره، ولو كانت الهداية بوجه من الوجوه فإن أدنى مراتب العبودية هداية المعبود لعباده إلى ما فيه صلاح أمرهم، الله يهدي من يشاء للحقّ دون غيره بنصب الأدلة وإرسال الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق للنظر الصحيح والتدبير الصائب فإن العقول مضطربة والأفكار مختلطة وتعيين الحقّ صعب ولا يسلم من الغلط إلا الأقل من القليل فالاهتداء لإدراك الحقائق لا يكون إلا بإعانة الله وهدايته وإرشاده، فالذي يهدي إلى الحقّ بإعطاء العقل وبعثة الرّسل وإنزال الكتب والتوفيق إلى النظر والتدبير بما نصب في الآفاق والأنفس إلى غير ذلك هو الله سبحانه وتعالى، فبين سبحانه بما هو مستقر في الفطرة أن الذي يهدي إلى الحقّ أحقّ بالاتباع ممن لا يهدي، إلا أن يهديه غيره، فلزم أن يكون الهادي بنفسه له الكمال دون الذي لا يهتدي إلا بغيره، وإذا كان لا بد من وجوب الهادي لغير المهتدي بنفسه فهو الأكمل وهو أحقّ أن يتبع، ولما كان كمال العبد في كونه عالما بالهدى متبعا للحقّ ومعلما لغيره، فهو من الهداة المهتدين، فالهادي من الخلق بالضرورة أن يكون مهتديا، لأنّ الهادي إذا لم يكن مهتديا في نفسه لم يصلح كونه هاديا لغيره لأنه يوقع الناس في الضلال من حيث لا يشعر، وأما الهادي بالإضافة فهو خليفة الله في أرضه ومنه أكسب صفة الهدى، فلذلك وجب عليه أن يبصر عباد الله ويعرفهم طريق معرفته حتى يقرأوا بالهادي وصولا إلى الهدى، ذلك أن الهادي بالإضافة هو الدليل إلى الخيرات والمرشد إلى الطاعات.

إنّ مسألة الهداية والعصمة والتوفيق والإرشاد إلى الهادي جل شأنه أخذت اتجاهات شتى في كلام أهل الجدل وأصحاب التفسير وأقوال المتكلمين، وإن لم يشر البعض إلى اللفظة صراحة، وإنما في قضية الجبر والاختيار بالنسبة للمخلوقين من أصحاب العقول من الجنّة والإنس، ونحن نقول أن الهداية هي حقّ وجب لكل مخلوق ممن ذكرنا، فمن منع ذلك فقد ظلم وأساء، وإن كانت الهداية والإرشاد والعصمة والتوفيق هي حقّ من حقوق الله تعالى فإنه يختص برحمته من يشاء، وهنا يجدر القول أن الله سبحانه وتعالى كتب الهداية لمن علم أنه سوف يأخذ بأسبابها ويتوصل بتلك الأسباب إلى الهادي، فكتبه من المهتمدين لعلمه بأنه سوف يفعل ذلك، وأما الذين اتخذوا طريق الغي سبيلا، فينسحب عليهم ما انسحب على أصحاب الهدى من علم الله المسبق بما سوف يعملون قبل أن يعملوه فكتبهم من الضالين البعيدين عن طرق الهدى وسبل الرشاد، وعلى هذا فيكون خلق فعل الضلال من الله تعالى، كما أن خلق فعل الهدى منه سبحانه، وعلى هذا فإن خلق الفعلين من الله تعالى، وأما اختيار أحد الفعلين والسير في طريق أحدهما دون الآخر فهو اختيار المخلوقين؛ لأن الله تعالى ما كان ظلما للعبيد، وبعبارة واضحة ومثال بسيط نقول: من بين عدد من طلابك مثلا قلّ العدد أو أكثر، تعرف طالبا منهم أنه مجتهد ومتابع وحريص على علمه، فعندما تسأل عنه تقول إنه ناجح على الرغم من أن بينه وبين الامتحان أيام وشهور، فأنت أصدرت حكما صادقا قبل زمن وقوع فعل النجاح لعلمك المسبق بما سيكون عليه مستقبلا، وعلى العكس من هذا يكون طالب مهمل، ويقال لك هل هذا ناجح، فتجيب بكل بساطة: أتريد أن ينجح من هو راسب، وهذا الحكم أيضا قبل وقوع الفعل، والآن نستطيع أن نفهم قوله تعالى: ﴿فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا أَتُرِيدُونَ

أَنْ تَهْتَدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضِلِّ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا {469} فالله تعالى أركسهم ولكن بما كسبوا، وهنا لا يسوغ الاختلاف في شأن هؤلاء أهم مهتدون أم ضالون، وهم قابلون لأن يكونوا مهتدين أم لا ترجى منهم هداية، إنهم قلبت مداركهم بما اكتسبوا من أعمال، جعلت الشر يتحكم فيهم وما كان لك أن تتوقع هداية من قَدَّرَ الله في علمه الأزلي أنه لن يهتدي، فإن من يُكتب في علم الله الأزلي ضلاله، فلن تجد طريقا لهدايته، وبهذا المفهوم على ما نعتقد وإن شاء الله نكون من أصحاب السداد فيما نقول: أن الله تعالى بعلمه الأزلي حكم على مجريات الأبد بما كان وبما سيكون، ومن هنا لا أحد يستطيع أن يفعل حيال نفسه شيئاً ما قدر عليه بفعل نفسه وتم به القضاء ولا أحد أيضاً يضل نفسه ولا يضل غيره من المخلوقين وإنما المضل الهادي هو الله وحده دون جميع خلقه من الإنس والجن والملائكة والشياطين وسائر الخلق أجمعين ومن نسب إليه منهم ضلال فإنما نسب إليه مجازاً لا حقيقة إذ كان هو السبب الظاهر للخلق كما قال تعالى: {قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ} {470} فقد قال تعالى وأضلهم السامري، حيث كان هو المدبر في الفتنة والداعي إلى الضلال بعبادة العجل الذي أبعدهم في هذا الفعل عن طريق الهدى الذي كانوا عليه، فأضاف الإضلال إلى السامري لأنه كان حصل بتقريره ودعوته، وأضاف الفتنة إلى نفسه عز وجلّ لحصولها بفعله وقدرته وإرادته وخلقته، وعلى هذا يكون إضافة الأشياء إلى أسبابها ومسبباتها، فلا يجوز أن يكون المراد أن الله تعالى خلق فيهم الضلال وأبعدهم عن الهدى، لأن الدلائل العقلية والمنطق السليم يعارض ذلك، فلا يجوز من الله هذا الفعل من الجانب العقلي،

469 النساء 88

470 طه 85

ولو كان الله خلق الضلال فيهم لم يكن لفعل السامري فيه أثر وكان يبطل قوله (وَأَضَلَّهُمُ السامري) وأيضا فلأن موسى عليه الصلاة والسلام لما طالبهم بذكر سبب تلك الفتنة فقال: {أَفَطَالَ عَلَيْكُمْ العهد أم أردتُم أن يحلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم} 471 فلو حصل ذلك بخلق الله تعالى لكان لهم أن يقولوا السبب فيه أن الله خلقه فينا لا ما ذكرت، فكان يبطل تقسيم موسى عليه السلام وأيضا فقال (أم أردتُم أن يحلَّ عليكم غضبٌ من ربِّكم) ولو كان ذلك بخلقه لاستحال أن يغضب عليهم فيما هو الخالق له، ولذلك قال فتنا قومك وأضلهم السامري، وذلك لأن الفتنة هنا بمعنى الامتحان، فهنا شدد الله التكليف عليهم وذلك لأن السامري لما أخرج لهم ذلك العجل صاروا مكلفين بأن يستدلوا على الهداية بأنفسهم بما امتلكوا من أسباب تلك الهداية وقد كانوا عليها قبل الفتنة، إذ أن جميع المسببات العادية تضاف إلى أسبابها المؤثرة فيها في الظاهر، ومثل هذا أيضا ما جاء في قوله تعالى: {وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَصُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا} 472 وهنا تتجلى هداية التأيد من الهادي التي تمثلت بالفضل، فلولا أن الله تفضل على نبيه بالوحي ورحمه بالإدراك النافذ، لأرادت طائفة منهم السعي إلى الإضلال، ولكنهم لا يضلون إلا أنفسهم، لأن الله أطلع نبيه عليه الصلاة والسلام على تدبيرهم، وجعل بصيرته نافذة إلى الحق، فلا ضرر عليه من تدبيرهم وتضليلهم، وقد أيده الله تعالى بنور الهداية بما أوحى إليه من القرآن الكريم الذي هو ميزان الحق ومصباح الهدى وسبيل الرشاد، وأودع قلبه الحكمة

471 طه 86

472 النساء 113

وعلمه من الشرائع والأحكام ما لم يعلمه إلا بوحي منه، حيث كان ضمان الهداية من الله تعالى مخاطبا نبيه: إن فضل الله عليك عظيم بما أنعم عليك من مصابيح الهدى في توخي طريق العدل، وأن وبال ذلك الإضلال يرجع عليهم بسبب تعاوهم على الإثم، ومرد ذلك إلى هداية الله تعالى وحكمته في أنه يعصم المؤيدين بالهدى ممن يحاول إضلالهم، فمن تولاه الله بفضله وشمله بإحسانه وكفاه غائلة من أرادته بسوء فلا سبيل إلى فتنته أو إبعاده عن الهداية التي قضاها الهادي جل شأنه له.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرْ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ 473 وإرادة الفتنة من الله تعالى هنا لا تدخل في المشيئة، وإنما تدخل في باب العلم من الله تعالى أن هؤلاء لن يهتدوا أبدا بما تقدم أيديهم من باب الاختيار بين الخير والشر والهدى والضلال والغي والرشاد، فترك الخير والهدى والرشاد، واتباع الشر والضلال والغي، هو من قبيل التمسك بالجهل الموفي بأهل على المهالك، فهؤلاء لا يؤسف عليهم بصنيع أفعالهم من تركهم طريق الهدى الموصل إلى الهادي، فهم ينتقلون في مراتب الضلال من أذناها إلى أعلاها مسارعين فيها، من هؤلاء المخادعين الذين قالوا: آمنا بألسنتهم ولم تدعن للحق قلوبهم فمن يرد الله ضلاله لانغلاق قلبه فلن تستطيع أن تهديه أو أن تنفعه بشيء لم يرد الله له، وأولئك هم الذين أسرفوا في الضلال والعناد لم يرد الله أن يطهر قلوبهم من دنس الحقد والعناد والجهل والضلال، وهم في الدنيا ذل بالفضيحة والهزيمة وهم في الآخرة عذاب شديد عظيم.

إن الله سبحانه وتعالى هو الهادي، يهدي من يشاء ويضل من يشاء، وذلك بخلق أفعال الهدى وأفعال الضلال، وعلى هذا يكون الخلق من الله وممارسة الفعل من الإنسان، سواء أفعال الهدى والرشاد أم أفعال الغي قال الله جل ذكره إخباراً عن كلمه موسى عليه الصلوة والسلام في مناجاته له: {إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاعْفُرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْعَافِرِينَ} 474، والهداية تكون على معنيين أحدهما بمعنى الإيضاح والإرشاد يقال: أهديت فلانا الطريق أي أرشدته إليه، والآخر بمعنى التوفيق قال الله عز وجل: {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ} 475 أي أنك لا تستطيع أن توفق للهداية من أحببت، ولكن الله يوفق من يشاء ولا يجوز أن يريد به هاهنا الإرشاد والأيضاح؛ لأنه لا خلاف بين المسلمين أن النبي عليه الصلوة والسلام أرشد وبين وأوضح وبلغ من يحب ومن لا يحب، فبين بذلك هدي الرسالات السماوية التي قبله، والرسالة التي جاء بها صلى الله عليه وسلم، إذ لا خلاف أن الدين عند الله الإسلام، وجميع الرسالات السماوية كلها مصدرها الهادي وهنا نستطيع أن نقول أن هدي النبي عليه الصلوة والسلام هدي تكليف، وأما بالنسبة للمبلغين فهداهم هدي اختيار لما دلت عليه الآية الكريمة، فالرسول عليه الصلوة والسلام هو الخليفة وهو الهادي بالإضافة، ولأن الهادي هادي الطريق، والهدى واحد من الطرق التي تؤدّي إلى النجاة، فكان الخليفة يأخذ بالمهتدين به إلى نجاحهم وفوزهم، وأما الفتنة فمعناها الامتحان والاختبار إلا أنها مستعملة في عرف التخاطب بمعنى الخذلان، يقال: فُتِن فلان إذا أخذل وضل، وبدل على صحة هذا التأويل أنه قال

474 الأعراف 155

475 القصص 56

الهادي بمعنى الموفق فمعناه والله أعلم أنه الموفق بفضله، والخاذل لمن شاء بعدله لا إله إلا هو الفعال لما يريد.

إنَّ الله سبحانه وتعالى هو الهادي في أسمائه والهادي في خلقه، وهداية الأسماء تختلف عن هداية الخلق، إذ أن هدى الأسماء يحمل دلالات معنوية لا حسية ولا مشاهدة، غير أنّ حصول هذا النوع من هدى الأسماء للذات الإلهية إنما يرتبط بالإنسان عن الامتناع عن نوعين من الأفعال، والإقبال على نوعين آخرين، وقبل أن نذكر تلك الأفعال لابدّ من معرفة كيفية هداية الأسماء، فله الأسماء الحسنى، ونذكر منها على سبيل المثال لا على سبيل الحصر كيفية الوصول إلى الهدى من خلال الأسماء، فالغفور والرحيم والتواب والعفو، كل هذه الأسماء يتوصل بها إلى الهداية، ولأجل الوصول إلى هداية الاسم وجب على الإنسان ترك الأفعال المادية التي تؤدّي إلى الغواية والضلال، ويدخل ضمنها أفعال الأذى قولاً أو عملاً، والإقدام على نوع آخر من الأفعال قولاً وعملاً أيضاً، وقد جمع الأمر والنهي في قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} 476 فالله سبحانه وتعالى من أجل هداية خلقه يأمرهم بأن يعدلوا في أقوالهم وأفعالهم، ويقصدوا إلى الأحسن في كل الأمور، فيفضلوه على غيره، كما يأمر بإعطاء الأقارب ما يحتاجون إليه لدعم روابط المحبة بين الأسر وصلة الرحم، وينهى عن فعل كل خطيئة، خصوصاً الذنوب المفرطة في القبح والسوء والرذيلة، وكل ما تنكره الشرائع والعقول السليمة، كالاعتداء على الآخرين، والله سبحانه بهذا يذكرهم ويوجههم إلى الصالح من أمورهم، لعلهم يتذكرون فضله في حسن توجيهه لهم،

فيمثلوا كلامه من أجل هدايتهم، فالأمر بالعدل هو بجد ذاته نهي عن الظلم، ومن انتهى عن الظلم فقد اهتدى إلى الحق، وليس الظلم هو ظلم الآخرين فقط، وإنما هو أيضا ظلم النفس، لذلك كان الأمر بالعدل بأن لا تظلموا أنفسكم ولا غيركم ولا تجوروا بالتسوية في الحقوق فيما بينكم وترك الظلم، وإعطاء كل ذي حق حقه، وكذلك هو أمر بمراعاة التوسط بين الأمور، والعدل أيضا هو صرف ما أعطاك الله من الجوارح البدنية والأدوات الروحية ومن الأموال الدنيوية وما وهب الله خلقه من صحة وعافية وسمع وبصر كل ذلك يجب إعماله في طلب الهداية والسير في طريقها إليه؛ لأن صرفه في طلب غير هذا الاتجاه ضلال مبين، ومن هنا نتبين الهادي في أسمائه كيف يهدي إلى الحق وإلى العدل وهو الحق العدل.

ونقف على دلالة الهادي لخلقه في أسمائه أيضا في قوله تعالى: {قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} 477 فالذين أكثروا على أنفسهم من المعاصي وأسرفوا فيها لم تعلق أمامهم أبواب التوبة والرحمة والمغفرة، لأن الله تعالى يهدي إلى الغفور، فلا تيأسوا من رحمة الله، لأن الله يتجاوز عن الذنوب جميعا بعظيم رحمته فالإسراف يتجاوز الحد في كل ما يفعله الإنسان وإن كان ذلك في الإنفاق وغيره من الأعمال، وتعدية الإسراف تعني تضمين معنى الجناية والإفراط في المعاصي وارتكاب الكبائر والفواحش، فخصوص السبب لا ينافي عموم اللفظ فدخل فيه كل مسرف، "واعلم أن القنوط من رحمة الله علامة زوال الاستعداد، والسقوط عن الفطرة بانقطاع الوصلة بين الحق والعبد إذ لو بقى شيء في العبد من نوره الأصلي لأدرك أثر

رحمته الواسعة السابقة على غضبه، فرجاء وصول ذلك الأثر إليه لاتصاله بعالم النور بتلك البقية وإن أسرف وفرط في جنب الله وأما اليأس فدليل الاحتجاب الكلي واسوداد الوجه، فالله تعالى يغفر الذنوب جميعا بشرط بقاء نور التوحيد في القلب فإذا لم يبق دخل في قوله "478"، وكذلك من الهادي في الأسماء ما فيه هدي توبة ورحمة، وليس بالضرورة أن يكون الإنسان قد اقترف ذنبا وإنما هي هدي هداية للهادي كما يتضح ذلك في قوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ 479 وهذا دعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بعد أن رفعا القواعد من بيت الله الحرام، والتوبة إلى الهادي هنا هي توبة عصمة وإخلاص، لا توبة عن ذنب قد مضى، ربنا وفقنا واجعلنا مخلصين لك واجعل من ذريتنا جماعة مخلصه لك، وعلمنا طريقة عبادتنا التي ترضى بها عنا أي أهدنا إلى طريقة عبادتك على الوجه الذي يرضيك في بيتك الحرام وما حوله، وطلب التوبة وقبول المغفرة برحمتك عن خطأ أو نسيان وحاشا لأنبياء الله، ولكن مع ذلك قال عليه الصلاة والسلام وتب علينا إن نسينا أو أخطأنا إنك أنت كثير القبول لتوبة عبادك، الغافر لهم بفضلك ورحمتك والهادي لهم لما تحبه وترضاه، فالإخلاص طريق الهداية، والمراد من المسلم أن يجعل نفسه وذاته خالصا لله تعالى بأن يجعل التذلل والتعظيم الواقع منه للسان والأركان والجنان خالصا له تعالى ولا يعظم معه تعالى غيره ويعتقد بأن ذاته وصفاته وأفعاله خالصة له تعالى خلقا وملكا لا مدخل في شيء منها لأحد سواه وكذلك اجعلنا مستسلمين لك منقادين بالرضا بكل ما قدرت وبترك المنازعة في أحكامك، بمعنى

⁴⁷⁸ تفسير حقي، ج 12، ص 308

⁴⁷⁹ البقرة 128

الاستسلام والانقياد والرضا بالقضاء وهذا أعلى درجات الهدى، وعلى الرغم أنهما كانا مخلصين ومستسلمين في زمان صدور هذا الدعاء منهما، إلا أن المراد هو طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان والثبات عليه، فهذا تعليم منهما للناس الدعاء للتثبيت على الهدى، فإنهما لما سألا ذلك مع أمنهما من زواله عنهما فكيف غيرهما مع خوفه، وسألا أيضا الثبات على الانقياد فأجيبا إلى ذلك حتى اسلم إبراهيم للإلقاء في النار وإسماعيل للأمر بالذبح. (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) أي واجعل بعض ذريتنا جماعة مخلصين لك بالعبادة والطاعة، وإنما خص الذرية بالدعاء مع أن الأنسب بحال أصحاب الهمم وخاصة الأنبياء أن لا يخصصوا ذريتهم بالدعاء لكنهما خصاهم لوجهين: الأول كونهم أحق بالشفقة كما في قوله تعالى: {قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ} 480 فدعوا لأولادهما ليكثر ثوابهما بهم، لأنه ما من رجل من المسلمين يخلف من بعده ذرية يعبدون الله تعالى إلا جعل الله له مثل أجورهم ما عبد الله منهم عابد حتى تقوم الساعة، والثاني انه وان كان تخصيصا صورة إلا أنه تعميم معنى لان هدى أولاد الأنبياء سبب وطريق لهدى الناس فكأنهما قالا واهدي عامة عبادك بهدي بعض ذريتنا وخصا البعض من ذريتهما لما علما أن من ذريتهما محسن وظالم لنفسه وربما يفهم البعض أن طلب الهداية والتوبة من إبراهيم عليه الصلاة والسلام من باب تجوز الذنوب على الأنبياء، قياسا على أن التوبة لا تطلب من الله إلا بعد تقدم الذنب، فلو لا تقدم الذنب لم يكن لطلب التوبة مبرر، إلا أننا نقول أن أيوب عليه الصلاة والسلام خلال مدة ابتلائه لم ينفك عن التوبة والاستغفار، ومعنى ذلك أن الإنسان وإن اجتهد في طاعة ربه عز وجل

فإنه لا ينفك عن تقصير في بعض الأوقات، إما على سبيل السهو أو انشغاله بعمل، فكان هذا الدعاء لأجل ذلك، ونحن نعتقد أن الله تعالى لما أعلم إبراهيم أن في ذريته منهم ظالم لنفسه سأل ربه التوبة لأولئك الظلمة، حيث قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} 481 طلب إبراهيم عليه الصلوة والسلام من ربه أن يجعل البلد الذي سينشأ حول البيت بلدا آمنا، وأن يرزق من ثمرات الأرض وخيراتها من آمن من أهله بالله واليوم الآخر، فأجابه الله بأنه لن يضنَّ حتى على الكافر نفسه بالرزق في أثناء حياته القصيرة، ثم يلجئه يوم القيامة إلى عذاب جهنم، والمعنى المقصود بجملة هو طلب التوبة للظلمة من أولادنا حتى يرجعوا إلى طاعتك فيكون ظاهر الكلام الدعاء لأنفسهما والمراد به ذريتهما، أهما لما رفعا قواعد البيت وكان ذلك أحرى الأماكن بالإجابة دعوا الله بذلك الدعاء ليجعلا ذلك سنة وليقتدى من بعدهما في ذلك الدعاء؛ لأن ذلك المكان هو موضع التنصل من الذنوب وسؤال التوبة والمغفرة والهدى إلى سبيل الله تعالى.

وأما الهادي عز وجل من خلال التواب، فإن أول عباد الله وأول خلقه من الإنس من اهتدى بالاسم هو آدم عليه الصلوة والسلام حيث قال تعالى: {فَتَلَقَّىٰ آدَمَ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} 482 فعندما أحس آدم عليه الصلوة والسلام هو وزوجته بخطئهما وظلمهما لأنفسهما، طلب التوبة ليهتدي إلى

481 البقرة 126

482 البقرة 37

الصراط الحقّ الذي يرضى به الله تعالى عنه، فألهم الله تعالى آدم عليه الصلّاة والسّلام كلمات يقولها للتوبة والاستغفار، فقالها: فتقبّل الله منه وغفر له وهذه الهداية من اسم التّواب، وبصرف النظر عما قال العلماء والفقهاء والمفسرون ما جاء في الأحاديث النبوية الشريفة في الكلمات التي تلقاها آدم عليه الصلّاة والسّلام من ربّه، فإنما هي العهود الإنسانية والمواثيق الآدمية والمناجاة الرّبانية من الخليفة إلى الحقّ تعالى، فهي كلمات هداية أوصلته إلى الرشد ليتوب الله تعالى عليه، فتاب آدم عليه الصلّاة والسّلام إلى الله بالرجوع عن المعصية والاعتراف بذنبه والاعتذار عن خطئه وسهوه، فتاب الله تعالى عليه أي فرجع الله سبحانه، عليه بالرحمة وقبول التوبة، وبذلك عاد إلى الهدى، لأنّ أصل التوب الرجوع فإذا وصف به العبد كان رجوعاً عن المعصية إلى الطاعة، وإذا وصف به الله سبحانه أريد به الرجوع عن العقوبة إلى المغفرة لفتح باب الهداية، وتمام التوبة من العبد بالندم على ما كان وبترك الذنب الذي هو فيه، وبالعزم على أن لا يعود إليه في مستأنف الزمان، وبرّد مظالم العباد وإرضاء الخصم بإيصال حقّه إليه باليد والاعتذار منه باللسان، وهذا كله من باب العودة إلى ما كان عليه من الهدى، وربّ سائل يسأل لماذا اكتفي بذكر آدم عليه الصلّاة والسّلام بالتوبة والهداية، دون حواء، وللإجابة على ذلك نقول: إن الأمر من عدة جوانب وأولها أنّها كانت تابعة له في الحكم ولذلك طوي ذكر النساء في أكثر المواضع في القرآن الكريم وذلك لباب القيام حيث قال تعالى: {الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ} 483 والثاني: أن الرجل هو الأصل والمرأة فرع عليه حيث يتضح ذلك في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي

خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً {484} فالله سبحانه الذي أوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها، وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء أي قدر خلقكم حالا بعد حال على اختلاف صوركم وألوانكم من نفس واحدة، أي من أصل واحد وهي النفس الآدمية الواحدة (الإنسان) أي أن النفس من حيث الخلق واحدة ومن حيث التعدد ثنائية مصداقا لقوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ} {485}، والثالث أن اللغة تخاطب المؤنث على التغليب أي تغليب المذكر على المؤنث الذي هو داخل ضمنها وذلك مثل قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا} {486} فالخطاب للناس شمل الذكر والأنثى، وكذلك قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} {487} فالتوكل على الله تعالى يكون من المؤمنين رجالا ونساء، وهذا يعني أن حواء دخلت في التوبة والعودة إلى الهدى ضمنا وإن لم تذكر، كما أنها هي التي بادرت إلى المعصية ودفعت آدم إليها، فكان الحوار مع آدم عليه الصلاة والسلام، والعتاب موجه إليه دون حواء ولم تذكر أيضا إلا في حال إضافتها لزوجها (أنت وزوجك). ومن باب الهداية في اسم التواب أيضا قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ عِنْدَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ} {488} حيث إن

484 النساء 1

485 الذاريات 49.

486 النساء 174.

487 آل عمران 11

488 البقرة 54

خطاب موسى عليه الصلّاة والسّلام يا قوم لقد ظلمتم أنفسكم باتخاذكم عجل السامري معبودا لكم دون خالقكم فهو الضلال بعينه والابتعاد عن طريق الهدى والرشاد، فهذا الخطاب يحمل وجهين من المعاني، فالأول دور الهادي بالإضافة وهو الخليفة الذي يقوم اعوجاج البشر في الأخذ بيدهم إلى طريق الهدى، والثاني أن التوبة هي رجوع عن الباطل والغي والضلال إلى طريق الحقّ الذي هو منارة الهدى، لذلك أمرهم أن يتوبوا إلى ربّهم وخالقهم، وهذه التوبة سوف تكون طريق العون إلى الله الذي يهدي الضالين ويتوب عليهم، فإن هم اتبعوا الخليفة وامثلوا لأمره فقد ترتب على ذلك التوفيق إلى الهدى بترك الضلال عن طريق التوبة، وبقبول التوبة من الله تعالى بإرشاد الخليفة يتم العفو الموصل إلى الهدى. فاقتراف الذنوب هو مخالف لسنة الله تعالى في خلقه بدليل ذكر(بارئكم) والبرء في جملة ما يعنيه أنه برأكم خلقا في الصورة وحُلُوقا في التقويم والعدل والاستقامة وهي فطرة الله الذي فطر عليها عباده بأنهم مهتدون إلى الخالق قبل اقتراف الذنوب، حيث قال النبي صلّى الله عليه وسلّم: "ما من مولود إلا يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون فيها من جدعاء" 489 فالإنسان خلقه الله تعالى بريئا من العيوب والنقصان والتفاوت، ولكنه ميز بعض خلقه من بعض بصور وهيئات مختلفة، فهؤلاء الذين تركوا فطرة الله في هدايته لهم وعصوا أمر الخليفة، فقد بلغوا من الجهالة أقصاها ومن الغباوة منتهاها حيث تركوا عبادة العليم الحكيم الذي هو لا يريد بعباده إلا الهدى والرشاد حيث قال تعالى: {إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَّتِهَا إِنَّ رَبِّي عَلَى صِرَاطٍ

⁴⁸⁹ صحيح البخاري، ج 5، ص 143

مُسْتَقِيمٍ} 490 فالله تعالى على صراط مستقيم، والصراط المستقيم هو طريق الهدى وسبيل الرشاد، الذي يوصل إلى الهادي، وهو الذي آخذ بكل ناصية إلى صراطه، وعلى هذا يكون الله تعالى آخذ بنواصي خلقه إلى هدايتهم إلا من أبي، أي رفض وامتنع واتخذ غير سبيل الله أو عصى ما أمره به الخليفة حيث جاء في الحديث أن رسول الله عليه الصلوة والسلام قال: "كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبي قالوا: يا رسول الله ومن يأبى قال: من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى" 491، وكما أن الله سبحانه وتعالى هو هادٍ في أسمائه، فهو أيضا هادٍ في خلقه، وأول هداية الخلق بالخلق، ما أرسل الله الهادي رسله بالبينات ليبينوا للناس حيث قال تعالى: {وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلْكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ} 492 وهنا تتضح هداية الهادي في خلقه وهي دعوة لاتباع المرسلين من الله إلى الناس، فهم لا يطلبون أجرا على نصحتهم وإرشادهم، وإنما غاية الدعوة هي إيصالهم إلى ما أمر الله به من الهدى، وهنا يتجلى دور الخليفة الهادي بالإضافة، فهو يعلم من الهادي المطلق ما لا يعلمه الآخرون، لأن الله تعالى يختار ويختص من عباده من يشاء، لأنهم مهتدون ينتفع الخلق بهديهم في سلوك طريق الخير والفلاح، وتكون الدعوة إلى الهادي المطلق من الهادي بالإضافة إلى خير الدين والدنيا، لأنه المهتدي إلى طريق الحق الموصل إلى هذا الخير، فإذا كان الذي يدعوك إلى الخير والهدى وطريق الحق ويأخذ بيدك إلى الخيرات وينأى بك عن الزلات هو من هو إنسان عادي فوجب عليك اتباعه، وان لم يكن رسولا ويكفي أنه يأمرك بالمعروف

490 هود 56

491 صحيح البخاري، مجلد 22، ص 248.

492 يس 20، 21

وينهاك عن المنكر، فكيف إذا كانوا رسلا ومهتدين، فإذا هم الخلفاء الذين وجب اتباعهم، لأن الرسول مهتد لا محالة، وكونهم مهتدين فالعقل يسلم بصلاح ومنطقية ما يقوله الهادي بالإضافة، ذلك أنهم يرغبون في اتباعهم لا من أجل عرض الحياة الدنيا ولا يريدون أجرا على ذلك، ومع ذلك فترى بعض الناس يعرضون تكبرا، ونحن نقول لمثل هؤلاء، إن كانت الهداية لا تقدم لكم منفعة آنية في الوقت الحاضر، ولا تؤمنون أنها تقدم لكم منفعة مستقبلا أو في الحياة الآخرة فإن الدعوة إلى مكارم الأخلاق أيضا لا تضركم، ومن هذا الباب وجب اتباعها لأنها تنتزه عن الغرض الدنيوي وتدعو إلى الاهتداء إلى الخير، وعلى هذا فالذين يتبعون هدى الهادي في خلقه لا يخسرون معه شيئا من دنياهم ويكسبون صحة دينهم فيحصل لكم خير الدنيا والآخرة، فالدعوة إلى مكارم الأخلاق هداية من مخلوق لمخلوق وهي في غاية الاستقامة والحسن وذلك من حيث الشعور النفسي والارتياح، ولا شك أنّ الخلق في الدنيا على فطرتهم سالكون طريق الخير في داخلهم وطالبون للاستقامة بدليل أن الإنسان السيئ إذا مدحته وذكرته بخير فإنه يهتز طربا وتنفرج أساريره عن الرضا والارتياح، وإذا ذكرته بما فيه من السوء الذي يعلمه بنفسه ويمارسه فإنه سوف ينكر عليك ذلك ولا يقبله منك لأن طبيعة النفس الإنسانية تميل إلى الخير رغما عن العقل لأنها تعلم الدليل إلى الطريق بالفطرة، والطريق إذا حصل فيه دليل يدل وجوب اتباعه، والامتناع من الاتباع لا يحسن إلا عند أحد أمرين، إما مغالاة الدليل في طلب الأجر، وإما عند عدم الاعتماد على اهتدائه ومعرفته بالطريق، لكن هؤلاء لا يطلبون أجرا وهم مهتدون عاملون بالطريقة المستقيمة الموصلة إلى الحق، فهب أنهم ليسوا بمرسلين هادين، أليسوا بمهتدين، لذلك وجب اتباعهم.

ومثلما أن الله تعالى هو الهادي في أسمائه، والهادي في خلقه كذلك هو هادٍ في الخصوصية التي اختص بها بعض مخلوقاته دون البعض مثل الأنبياء والمرسلين والأولياء والخلفاء، وهذا هدي اختصاص من الله تعالى بالنسبة للبشر، أما المخلوقات غير العاقلة فقد هداها إلى ما هي مخلوقة له بشكل عام، وكذلك جعل لبعضها خصوصية لحكمة أرادها الهادي لقضاء أمر أو لتعريف الإنسان قدر نفسه من خلال مخلوقات ضعيفة تفعل ما لا يستطيع الإنسان فعله فقد جاء في قوله تعالى: {حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ} 493 فالله الهادي هدى هذه النملة لتخاطب قومها خوفا عليهم من الهلاك، وبذلك أرادت هدايتهم إلى ما فيه نجاتهم من الموت الذي قد يسببه جنود سليمان عليه الصلاة والسلام من تحطيم جماعة النمل، فقالت لهم بطريق الهداية: يا أيها النمل ادخلوا محابثكم لكيلا تميمتكم جنود سليمان وهم لا يحسون بوجودكم يا معشر النمل، ادخلوا مساكنكم لا يهلككنم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون بكم. فسمعها سليمان فتبسم ضاحكا متعجبا من قولها، وسأل الله تعالى أن يلهمه شكره على ما أنعم عليه وعلى والديه من علم وملك، وأن يوفقه للعمل الصالح الذي يرضاه، وأن يدخله في رحمته وكرمه وفضله ويجعله من جملة عباده الصالحين. ومن البديهي أنّ سليمان عليه الصلاة والسلام من المهتدين الذين يهدون إلى الهادي، ومع ذلك فإن هدي النملة

لجماعتها جعله يتشبث بهداه أكثر ويدعو الله أن يثبته عليه، وهدى النمل لم يقتصر على هذه الحادثة، ولكن الله هداه أيضا إلى أمور يعجز عنا الإنسان وقد كتب كثير من الكتاب والباحثين عن معيشة النمل ونظامها الدقيق في حياتها، وما لها من عجائب في معيشتها وتدير شئونها، ومثابرتها على العمل، وأنها تتخذ القرى في باطن الأرض، وتخزن قوتها لأيام الشتاء.

وكما هدى النمل كذلك فقد هدى النحل لما هو مكلف به وحيا ليس بمعنى أنه أرسل إلى النحل رسلا من الملائكة تهديها إلى ما يجب عليها فعله، وإنما هو هدى برحمة وإلهام بما أودع الله فيها من تصريف الأمور لتصنع شرابا يهتدي البشر إلى الشفاء الذي أودعه الله فيه بما هدى النحل إلى استخلاصه من أنواع شتى من الزهور والورود والنباتات على اختلاف أنواعها قال تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمَا يَعْرِشُونَ﴾ 494 فقد أهدى الله تعالى النحل أسباب حياتها بما أودع فيها، ووسائل معيشتها بما بث لها من أسباب الرزق وهداها إليه، وكذلك هداها إلهاما بأن تتخذ من الجبال بيوتا في الكهوف، ومن فجوات الشجر وبين الصخور، ومن عرائش المنازل والكروم بيوتا كذلك، فهذا التنوع في الهداية إلى اتخاذ بيوت النحل في مناطق مختلفة من البيئة والطبيعة، إنما هو هداية من أجل الهداية، فلماذا هذا التفاوت؟ إن الله تعالى هدى النحل إلى اتخاذ المساكن في أنحاء مختلفة في الطبيعة ليس فقط من أجل امتصاص رحيق الأزهار وتحويله إلى شراب فيه شفاء للناس، وإن كان يبدو أن هذا هو عملها الأساسي، إلا أن هناك أمرا أكثر أهمية من العسل، خاصة إذا علمنا أن النحل يسقط على أزهار لا يأخذ منها

رقيقا على الإطلاق، فلماذا يقف على أزهار لا ينال منها فائدة؟ وهنا تكمن الهداية الأهم بالنسبة لهذه الحشرة، وهي أنها تنقل حبوب الطلع من الذكر للأنتى ما بث الله تعالى من نباتات في هذه الأرض، وهنا نقف على الحكمة من هداية النحل في اختلاف مساكنها، وأما الجانب الآخر فلكي يكون الشراب الذي يخرج من بطونها في تناول الجميع؛ لأن الله تعالى لم يجعله للخواص وإنما هو عام لكل البشر حيث قال تعالى: {ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 495 فقد هداها الله تعالى للأكل من كل ثمرات الشجر والنبات، وسهّل لها أن تسلك لذلك طرقا هيأها لها ربّها مذلة سهلة وهداها إليها، كي يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس جميعا دون استثناء، إن في ذلك الصنع العجيب لأدلة قوية على وجود صانع قادر حكيم هادٍ، يهتدي الناس للانتفاع به من أجل الغذاء أو الدواء، فهذا الغذاء النافع والشراب الشافي، الذي هدى الله تعالى النحل أن تأكل الأجزاء اللطيفة الطيبة الحلوة الواقعة على أوراق الأشجار والأزهار، وتمتص من الثمرات الرطبة والأشياء العطرة ثم تخرجه من بطونها، وتدخره في بيوتها للشتاء فينعدد عسلا بإذن الله تعالى، فأبي هدى وأي هادٍ أوحى إلى النحل كل هذا، فسبحان الهادي وسبحان الخلاق العظيم، حيث إنه سخرها لما خلقها له وهداها لما فيه خير الإنسان، وألهمها رشدها وقدر في أنفسها هذه الأعمال العجيبة التي يعجز عنها العقلاء من البشر، وهنا نذكر هداية دقيقة من الله تعالى لهذا المخلوق العجيب وإن كنا ذكرناه سابقا في مواطن من هذا البحث، إلا أننا نرى وجه الهداية دقيق جدا في عملية

بناء بيوت النحل، وذلك أن النحل تبني بيوتا على شكل سداسي من أضلاع متساوية لا يزيد بعضها على بعض بمجرد طباعها ولو كانت البيوت مدورة أو مثلثة أو مربعة، أو غير ذلك من الأشكال لكان فيما بينها خلل ولما حصل المقصود فألهمها الله سبحانه وتعالى وهداها، أن تبنيها على هذا الشكل المسدس الذي لا يحصل فيه خلل ولا فرجة خالية ضائعة، وهداها الله سبحانه وتعالى أيضا إلى أنها تخرج من بيوتها، فتدور وترعى ثم ترجع إلى بيوتها، ولا تضل عنها، ولما امتازت هذه الحشرة الضعيفة بهذه الخواص العجيبة، الدالة على مزيد الذكاء والفتنة دل ذلك على الهدي الإلهي فكان ذلك شبيها بالوحي، من هاديتها إلى الطرق التي ألهمها الله أن تسلكها والنبات والأزهار التي تأكل منها وما تلقح من أشجار لولا وقوع النحل عليها ما كان لها ثمار. فالهدي الإلهي في مخلوقات الله تعالى عدا الإنسان إنما هو قائم على طبيعة الخلق المؤثر في السلوك وحيا وإلهاما وتوجيها لما يهدي الله تعالى هذه المخلوقات من تصرفات وأعمال كونها أمم من أمم الخلق مكلفة أيضا بغير ما كلف به الإنسان من العبادة، إذ أن هديها مسخر للإنسان، فسليمان عليه الصلوة والسلام عندما تفقد الطير لم يجد الهدهد بينها، فهو لم يعص نبي الله سليمان، وإنما اهتدى إلى سبب يكون مدعاة لنشر الهدى من الخليفة المكلف من الهادي المطلق حيث جاء ذلك في قوله تعالى: { وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهَدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لِيَأْتِيَنَّ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ نَحْطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ يَقِينٍ } 496 فعندما تفقد جنوده من الطير لم يجد الهدهد، فتعجب من ذلك وقال: مالي لا أرى الهدهد، هل هو

بيننا ولم يقع عليه نظري، أم هو غائب عنا وليس بيننا، فتوعده بأن به عذابا شديدا يردعه، أو ليدبحنه إن كان الذنب عظيما، إلا أن يأتي بحجة بيّنة تُبرر غيابه وكان الهدهد قد مكث في مكان غير بعيد زمانا يسيرا، ثم جاء إلى سليمان يقول له: قد أحطت علما بما لم يكن عندك علم به، وجئتك من سبأ بخبر ذي شأن عظيم وهو مستيقن بذلك، فعفا عنه ثم سأله عن ذلك الخبر الذي أحاط به، علما ومعرفة وحفظا من جميع جهاته، وذلك لأنه كان ما لم يشاهده سليمان عليه الصلّاة والسّلام ولم يسمع خبره من الجن والإنس، حتى اهتدى هذا الهدهد إليه وهدى نبي الله إلى ذلك، وهذا إشارة إلى سمة كرم الله ورحمته بأن يختص طائرا بعلم لم يعلمه نبي مرسل، وهذا لا يقدر في حال النبي والرّسول بأن لا يعلم علما غير نافع في النبوة فإن النبي عليه الصلّاة والسّلام، ولكن هذا العلم بخبر الهدهد وما جاء به أصبح نافعا بأن هدى أهل سبأ إلى الهادي المطلق الذي بينه لهم الهادي بالإضافة، لأن هذا الطائر أخبر أن هؤلاء يسلكون طريق الضلال والغي بتركهم الصراط الحقّ حيث قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَهِيَ عَرْشٌ عَظِيمٌ وَجَدْتُنَّهَا وَقَوْمُهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَرَبَّيْنَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبَاءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ قَالَ سَنَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ أَذْهَبَ بِكِتَابِي هَذَا فَأَلْقَاهُ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّى عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ {497} فأخبر أنه وجد في أهل سبأ امرأة تحكم قوما بعيدين كل البعد عن الهدى،

وأوتيت من كل شيء من أسباب الدنيا، من النعيم والسلطان والقوة والمنعة، ولها سرير كبير يدل على عظمة ملكها وقوة سلطانها، فوجدتها هي وقومها في الغي والضلال يعبدون الشمس ولا يتبعون هدى الله، حيث حسّن لهم الشيطان أعمالهم فظنوها حسنة وهي السوء، فصرفهم بذلك عن سبيل الحقّ فهم لا يهتدون، لأنهم لا يسجدون لله تعالى، الذي يخرج المخبوء في السماوات والأرض ويهديه كيف يجب عليه أن يكون مثل هداية النبات في الاتجاه إلى الضوء وهداية المخلوقات المائية إلى طعامها وكل ما هو مخبوء حدد له الهادي طريق الرشاد ليهتدي إلى ما من شأنه منفعة ومنفعة الآخرين في عملية التكامل والتوازن بين مخلوقات الله تعالى، إذا فهو يعلم ما تسرون وما تظهرون من الأعمال والنوايا وهو الذي يدعوكم إلى سواء السبيل ويهدي إلى الطريق المستقيم، وطالما أنه هو خالق الخلق فهو متكفل بهدائيتهم، وعلى هذا لا تحقّ العبودية لغيره وهو صاحب السلطان المطلق العظيم على كل ما في الوجود، لذلك أراد نبي الله سليمان عليه الصّلاة والسّلام أن يوصل الرسالة المكلف بها، وهو الخليفة والهادي بالإضافة إلى الهادي المطلق فكلف الهدهد أن يوصل بشائر الهدى عن طريق تحري الخبر، فبعثه بكتاب حتى يوصله إليها وإلى قومها ثم تنح عنهم متواريا في مكان قريب، لتنظر فيما يرجع به بعضهم إلى بعض ويرددونه من قول، فجمعت أشرف قومها وأصحاب الرأي والمشورة، وقالت: يا أيها الملأ إني قد وصل إليّ كتاب عظيم الشأن يدعو إلى الهدى. ثم تلت الكتاب عليهم قائلة: إنه من سليمان وإنه مفتح باسم الله ذي الجلال والإنعام الذي يفيض برحمته دائما على خلقه ويدعوهم إلى الهدى فيما تأمرون، وكان أول المهتدين هي الملكة نفسها حيث عارضت قومها عندما فوّضوها في الأمر حيث قال تعالى: { قَالُوا نَحْنُ أَوْلُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ

فانظري ماذا تأمرين {498 فهم مطمئنون بأنهم أصحاب قوة بدنية وأهل نجدة وشجاعة، لا يخافون حربًا ولا يخشون عدوا، لذلك قالوا: انظري في الأمر الذي تأمريننا به فإننا مطيعون، ومن هداها ورشدها أدركت أن الأمر ليس بهذه البساطة التي يتصورها بعضهم، فلما أحست بلقيس منهم الميل إلى الحرب والعدول عن سنن الصواب بادعائهم القوة الذاتية والعرضية شرعت في تزييف مقاتلتهم المنبئة عن الغفلة فكان من رشدها وعقلها وهداها أنها أجابت كما قال تعالى: {قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعْرَآةَ أَهْلِهَا أُذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ} {499. قالت متريثة مسالمة: إن الملوك إذا دخلوا مدينة عظيمة بجيوشهم أفسدوها، فأذهبوا عمرانها، وأبادوا الحرث والنسل، وأهلكوا أهلها، فكان الصواب منها أن تهتدي، وذلك باهتداء الهدهد الذي هو هدي مخصوص من الهادي عز وجل لبعض مخلوقاته لأمر يريد نفاذه.

ومن هدي الهادي المطلق هو الاهتداء إلى العلاقات الإنسانية فيما بين الناس ما شرعه الله لخلقهم وهداهم إليه حيث يتجلى ذلك في أعظم صوره في الزواج والمحارم والمواريث والدين، فأما الصورة الأولى حيث نقف عليها في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا } {500 يا أيها الناس هو خطاب شامل لكل البشر من الذكر والأنثى على اختلاف الألوان والأجناس والألسنة دون استثناء بأن يتقوا ربهم، والتقوى هي من دلائل الهداية، فمن اتقى فقد اهتدى،

498 النمل 33

499 النمل 34

500 النساء 1

والاهتداء إليه عن طريق الأدلة التي تعيشونها وتمارسونها وتعرفونها بأنه هو الذي أوجدكم من نفس واحدة، وأنشأ من هذه النفس زوجها وهدى كل واحد منهما إلى الآخر، وخلق منهما رجالا كثيرا ونساء يهدى منهم من يشاء لمن يشاء، وهذا الهدي هو هدي الزواج والمصاهرة لبيث من تلك النفس الواحدة شعوبا وقبائل، مع أنكم تنتهون إلى نفس واحدة هي نفس آدم عليه الصلّاة والسّلام، واتقوا الله الذي تستعينون به في كل ما تحتاجونه، ودعوة التقى هذه إنما هي دعوة إلى الهداية والصلاح، واتقوا أرحامكم فلا تقطعوها قربة وبعيدة وإنما القريب منها يهدي إلى البعيد لكي تتواصلوا بالعطف والرفق والحنان والشفقة، وهي أيضا دعوة من الهادي لإقامة أفضل العلاقات الإنسانية حيث قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} 501 وهي دلائل رحمة الله أن جعل بين الرجال والنساء من المودة والرحمة ما يهتدي كل منهما للآخر، فقد جعل بين الزوجين المودة والرحمة، فهما يتوادان ويتراحمان من غير سابقة معرفة ولا قرابة ولا سبب يوجب التعاطف، وما شيء أحب إلى أحدهما من الآخر من غير تراحم بينهما إلا الزوجان فهذا من هداية الله تعالى لخلقهما فيما بينهم، ومن جانب آخر أن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان وهداه إلى الطيب من العلاقات الإنسانية وبيّن أن خلق الإنسان لم يكن من الأشياء التي تبقى وتدوم سنين متطاولة في ذات الشخص، بل أبقى نوعه في أشخاص آخرين، وجعله بحيث يتوالد ويتكاثر، فإذا مات الأب يقوم الابن أو الأبناء مقامه لئلا يوجب فقد الواحد تخدم الكيان الأسري، وهذا هدي معونة من الله تعالى في

استكمال سنته في خلقه لاستمرار الحياة وإعمار الأرض وإصلاح النفس، وأمّا ما يخص علاقة السكن (لتسكنوا إليها) فالمقصود أنّ الجنسين الحيين المختلفين لا يسكن أحدهما إلى الآخر أي لا تثبت نفسه معه ولا يميل قلبه إليه إلا بهدي من الله تعالى فيما يخص العلاقات الإنسانية، وأمّا قضية السكن فمن القضايا التي تفضّل الله بها على عباده، وسكن الشخص إلى الآخر هو سكن القلب واطمئنانه وهذا نفسي معنوي، وأمّا سكن عنده، فهو سكن مجاورة بالمادة والمكان، وأمّا اهتداء المودة والرحمة، فلكل منهما شأن عظيم في هدي حامل هذه الخصال، ذلك أنّ الاهتداء إلى المودة هو دون سابق معرفة وهو بمعنى الألفة والتقارب اللطيف بين الجنسين للمحافظة على بقاء النوع، وأمّ الرحمة فهي دائمة مستمرة لمن عرفت وما لم تعرف، ويستوي في ذلك الصديق والعدو، وهذا لأن الإنسان يجب مثلاً ولده، فإذا رأى عدوه في شدة من جوع أو عطش أو ألم قد يأخذ من ولده ويصلح به حال عدوه، وهذا ليس من المودة في شيء، وإنما هو من هدي الرحمة وما ذلك لسبب المحبة وإنما هو لسبب الرحمة، وأمّا ما يخص هدي العلاقات القائم على المودة بين الزوجين وذلك لكون الزوج من جنس زوجه وأحدهما أصل والآخر فرع عليه، وهذا ما يفضي إليه، فهو هدي الجنسية، وهو السكنون إليه، فالجنسية توجب السكنون، والمودة والرحمة في هذا النوع من العلاقات أن أحدهما يفضي إلى الآخر، فالمودة تكون أولاً ثم إنّها تفضي إلى الرحمة، ولهذا فإن الزوجة قد تخرج عن محل الشهوة بكبر أو مرض، ويبقى قيام الزوج بها قائم بالرحمة، وأنّ هدي المودة بينهما آيات، فكذلك لأن الإنسان يجد بين القرينين من التراحم ما لا يجده بين ذوي الأرحام وليس ذلك بمجرد الشهوة والتناسل، فإنّها قد تنتفي وتبقى الرحمة فهي من الله ولو كان بينهما مجرد الشهوة، لكثير الوقوع في الخلافات بسبب

العقم المبطل للشهوة أو العقم المبطل للتناسل، ولو كان ذلك كذلك، لكان كل ساعة بينهما فراق وطلاق، فالرحمة هي التي يدفع بها الإنسان المكاره، وهدى الله الإنسان إليها لاستمرار الحياة ومن هذه الباب أيضا هداية التعرف على الآخرين فقد حض الله تعالى على هذا الجانب وأمر به في قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ } 502 إن الخلق من ذكر وأنثى متساوون لأنهم من أصل واحد هو آدم وحواء فصيرهم الله تعالى بالتكاثر جموعا عظيمة وقبائل متعددة، ليتم التعارف والتعاون فيما بينهم من المصاهرة والنسب، وإن أكرم خلق الله على الله هم المتقون، أي المهتدون إلى التقى وهذا هو عين الهدى فمن حكم عقله ونظره وبرهانه فقد أخذ بهدي الإقبال على ما أمر الهادي عز وجلّ به، لأنّ في التعارف تمكن مصالح الناس، ويسود بينهم السلام والمحبة والأمن، ويطمئن كل واحد إلى من يعرفه، وهذا نظير هدي الامتناع في الاطمئنان، فكما أمر الهادي بالإقبال على أمر يكمن فيها هدى الناس ورشادهم، كذلك وضح في هدي الاجتناب والامتناع ما فيه صلاحهم، ويتضح هدي الاجتناب في النهي عن الخمر والميسر والزنا وبعض أنواع الأطعمة وأنواع المحارم، فمن الأشياء ما لا يهتدي إليها الإنسان إلا بالتجريب، وبعض هذه الأشياء إذا دخلت مجال التجربة لحين حصول النتائج، يكون الإنسان قد أودى نفسه بالتهلكة قبل أن يعلم الضرر المترتب على ما أقدم عليه، لذلك كان هدي الهادي إلى هذه الأمور ومثيلاتها بالأسلوب المباشر عن طريق هدي المنع حيث قال تعالى: { حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالِدَمُّ وَحَلْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهْلِلَ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ

وَالْمَوْقُودَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ {503} والهداية في هذه الآية على نوعين، الأول منهما هداية منع مادّي لأنه يعود بالضرر أو التهلكة على من يقدم على هذه الممنوعات وهي هداية رحمة من الله، وهو ما دخل في باب الطعام ما ذكر في الآية الكريمة من تحريم الله تعالى أكل لحم الميتة وهي كل ما فارقت الروح من غير ذبح شرعي، وكذلك أكل الدم السائل ولحم الخنزير، وما ذكر اسم غير الله عليه عند ذبحه، وما مات خنقا أو التي ضربت حتى ماتت، وما سقط من علو فمات، وما مات بسبب نطح غيره له، وما مات بسبب أكل حيوان مفترس منه، وأما ما أدركتموه وفيه حياة ما يحل لكم أكله وذبحتموه فهو حلال لكم بالذبح، وهذا المنع ليس هدى من الله فحسب، وإنما هي هدية منه لعباده رحمة لهم، ذلك أن الحيوان الذي يموت بغير طريق الذبح إنما يبقى دمه في جسده، ومعروف أنّ الدم عند الميت سرعان ما تتكاثر فيه البكتريا والجراثيم ما يؤدي إلى التفسخ، أي انتشار هذه الجراثيم داخل الجسم، وأن أكل هذا الحيوان الذي لم يذبح سوف يؤدي إلى ضرر كبير ربّما يؤدي إلى الهلاك، فمن هذا الجانب هدى الله عباده هدى تحريم ومنع رحمة بهم، وإذا قال قائل: فما بال المضطر قد رخص الله له أن يأكل الميتة، فنقول إنّ للمضطر شأن آخر يختلف كلّ الاختلاف عن غير المضطرين، والمضطر أيضا هو المشرف على الهلاك من شدة الجوع، وجوعه هذا يمنحه وضعاً فسيولوجياً يختلف تماما عن الإنسان الذي يشعر بالجوع لتأخر وجبة الغداء أو العشاء أو يوم بدون طعام، أما بالنسبة لميتة البحر فالأمر مختلف هنا حيث أحل أكلها، فقد ورد في الحديث أنه:

"جاء رجل إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام فقال يا رسول الله إنا نركب البحر ونحمل معنا القليل من الماء فإن توضعنا به عطشنا أفنتوضأ به فقال رسول الله عليه الصلّاة والسّلام هو الطهور ماؤه الحل ميتته"⁵⁰⁴، وقد بين الهادي هذه الأشياء لعباده بطريق هداية التوجيه والإرشاد لما فيه مصلحتهم ومنافع لهم من الخير ولدفع الضرر عنهم لذلك قال تعالى: {وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} 505 ومن هدي الامتناع والنهي والتحريم ما بينه الله تعالى لعباده من العلاقات فيما بين خلقه من صلة القرابة التي تتميز بنوعين:

الأول منهما المصاهرة والنسب.

والتّوع الثاني هو صلة الرحم وما تعلق به من باب المحارم لشروط مانع، حيث هدى الله تعالى عباده إلى ما أمرهم به وإلى ما نهاهم عنه في هذا الجانب بقوله تعالى: {وَلَا تَنْكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّائِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرِّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّائِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّائِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَخَالَاتُ الَّذِينَ الَّذِينَ مِنْكُمْ أَوْلَادِكُمْ وَأَنْ يَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا رَحِيمًا} 506، وهذه الهداية في العلاقات إنما هي من أجل أن يترفع الله ببني البشر عن بقية المخلوقات الأخرى، وكون الإنسان خليفة فقد

⁵⁰⁴ موطأ مالك، ج 1، ص 55

⁵⁰⁵ الأنبياء 157

⁵⁰⁶ النساء 22، 23

وجب عليه وهو المخلوق العقل أن يتميز بنفسه ويميز الآخرين بأنهم أحقّ خلق الله بخلافة الله في أرضه، لذلك فإن هدي العلاقات يقوم على المحافظة على كرامة الإنسان ومراعاة مشاعره وأحاسيسه وميوله ورغباته النفسية في الحب والكراهية والغيرة والأنفة وما إلى ذلك ما يعتري الإنسان من مشاعر اتجاه هذه العلاقات، لذلك فإن الهادي تعالى وضع هذا الجانب مراعاة لمشاعر الإنسان الذي خلقه ويعلم ما توسوس به نفسه، لذلك فصلّ تعالى هداية النهي في العلاقات الإنسانية، وأول هذه الأمور أن لا تتزوجوا ما تزوج آباؤكم من النساء، لأنّه كان أمراً فاحش القبح، يمقته الله والناس، وهو أسوأ سبيل ومقصد، وأن الله يعفو عما قد سلف منكم في زمن الجاهلية، وهذه حكمة إلهية أهديت لبني البشر، حيث أن هذا النوع من الزواج وإن كان قليلاً ولكنه كان قائماً في الجاهلية، وأقول أنها حكمة إلهية، وهديّة من الله الهادي، لأنه لو كان رجل متزوج وله أولاد وماتت هذه الزوجة ثم تزوج بامرأة أخرى وأنجب منها ثم مات هو فيأتي أحد أبنائه من زوجته الأولى ويتزوج زوجة أبيه التي خلفها وراءه، فكيف يكون شعور أخوته الذي هو زوج لأهمهم ولا نعلق على هذا ولكن نتركه لإحساس القارئ وشعوره وغيرته وهو البعيد عن الموضوع أي أن القضية لا تمس القارئ وأنا أقدر شعوره، فكيف بصاحب القضية، وأنكر من هذا وأشدّ وقعا ما كان يمارسه الفرس قبل الإسلام من زواجهم من بناتهم، حيث أن يزدجرد آخر ملوك الفرس هو ابنٌ لأخته من أبيه وأبيها، أي أن كسرى أنوشروان تزوّج ابنته بوران فأنجبت له يزدجرد، فهذا المولود أمه أخته وخاله أخوه وأبوه أبو أمه وزوجها ولك ما تشاء أن تذكر من اختلال النسب والقرابة والتوازن الأسري، عندما تخرج العلاقات الإنسانية من إنسانيتها إلى الغريزة الحيوانية ومخلقة سنة الله في خلقه ومشيئته، لذلك كان هذا النوع من

الهداية الربانية دليل استقامة وتوازن نفسي وعقلي لدى الإنسان،
 فذلك جاء هدى التوضيح والتفصيل في هذه الأمور حفاظا على
 الكرامة والمشاعر والأحاسيس الإنسانية، ولهذا الأشياء فقد حرم الله
 عليكم أن تتزوجوا أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم
 وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتي أرضعنكم وأخواتكم من
 الرضاعة، وأمهات نسائكم، وكذلك المحرمات لغير النسب: أمهات
 الرضاعة، والأخوات من الرضاعة، وأمهات الزوجات وبنات الزوجات
 من غير الأزواج إذا دخلتم بهن، وزوجات أبناء الصلب، والجمع بين
 الأختين، وما سلف في الجاهلية فإنه معفو عنه، قال تعالى: {حُرِّمَتْ
 عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ
 وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ
 وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِّنْ نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي
 دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ
 أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ
 إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} 507. إن الله غفور لما سلف قبل هذا
 النهج، رحيم بكم فيما شرع لكم وهداكم إليه وبينه لكم، وحرم
 عليكم كذلك نكاح المتزوجات من النساء عامة، حرائر وغير حرائر
 مؤمنات وكافرات، وأدخله بباب الزنا الذي يوجب الحدود، وهنا
 يتجلى دور الخليفة، وهو الهادي بالإضافة إذ أن كثيرا من الناس
 تتجاوز المحارم جهلا أو عمدا، وهو ما نقف عليه في زماننا هذا من
 أمور في هذه العلاقات ما أنزل الله بها من سلطان، فواجب الخليفة
 الهادي النصح والتوجيه والإرشاد وأن يبين للناس هدى الهادي الذي
 أمر به لما فيه صلاح البلاد والعباد.

ومن هذا القبيل في أنواع الهدى من الهادي المطلق، هو هداية الحقوق في الدين والموارث وما إلى ذلك، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله قد قسم لكل إنسان قسمه من الميراث فلا تجوز لوارث وصية" 508 فقد بين عليه الصلاة والسلام أن الله تعالى هداهم إلى فض هذه الحقوق بينهم بهدايتهم إلى تقسيم الموارث بمعرفة نصيب كل وارث من الميراث في ما جاء من القرآن مفصلا وليس مجملا حيث قال تعالى: {يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مَا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ آبَاؤُهُ فَلِأُمَّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمَّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَعْمًا فَرِيضَةٌ مِنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا} 509 إذ أن الله سبحانه وتعالى لما يعلم من جبلة الإنسان وحبّه للعالم وإقباله عليها ورغبته في امتلاك الأموال وغيرها، وما حُب للإنسان منها حيث قال تعالى: {زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَبِإِ} 510 فذلك بين لهم بطريق الهداية المباشرة بالنصوص حق كل إنسان في قضية الإرث، فهو يأمركم في شأن توريث أولادكم وأبويكم بما يحقق العدل والإصلاح، وذلك بأن يكون للذكر مثل نصيب الأنثيين، إذا كان الأولاد ذكورا وإناثا، فإن كان جميع الأولاد إناثا يزيد عددهن على اثنتين فلهن الثلثان من التركة، وإن ترك بنتا

508 سنن النسائي، ج 11، ص 412

509 النساء 11

510 آل عمران 14

واحدة فلها نصف ما ترك. وإن ترك أبا وأما فلكل منهما السدس إن كان له ولد معهما_ ولد ذكر أو أنثى_ فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فقط فلأمه الثلث والباقي للأب، فإن كان له إخوة فلأمه السدس والباقي للأب ولا شيء للأخوة، وتُعطى هذه الأنصبة لمستحقيها بعد أداء ما يكون عليه من دين، وتنفيذ ما وصّى به في حدود ما أجازته الله في الوصية حتى لا يضر بالورثة. هذا حكم الله فهو عدل وحكمة وهداية، فالهادي عزّ وجلّ جعل أنواع الهدايا كثيرة ومتنوعة، وجعل سبلها متعددة ليهدي الناس لما فيه خيرهم وصلاحهم، وليحافظوا على أنفسهم وأموالهم وأهليهم بما هداهم إليه أو بما أوجده لهم من أسباب الهداية وطرقها ووسائلها {فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِيَ الْأَبْصَارِ} 511.

14 . بصير:

من صفات يعقوب التي أخبر بها القرآن الكريم مصداقا لقوله تعالى: {اذهبوا بِقَمِيصِي هذا فَالْقُوَّةُ على وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بِصِيرًا} 512.

لما عرف يوسف إخوته سألمهم عن أبيه فقالوا ذهب عيناه، فأعطاهم قميصه، قال المحققون: إنما عرف أن إلقاء ذلك القميص على وجهه يوجب قوة البصر بوحي من الله تعالى ولولا الوحي لما عرف ذلك، لأنّ العقل لا يدلّ عليه.

ويمكن أن يقال: لعل يوسف عليه الصلّاة والسّلام علم أن أباه ما صار أعمى إلا أنّه من كثرة البكاء وضيق القلب ضعف بصره فإذا

511 الحشر 2

512 - يوسف 93.

ألقي عليه قميصه فلا بد أن ينشرح صدره وأن يحصل في قلبه الفرح الشديد، وذلك يقوي الروح ويزيل الضعف عن القوي، فحينئذ يقوى بصره، ويزول عنه ذلك النقصان، فهذا القدر ما يمكن معرفته بالقلب فإن القوانين الطبية تدل على صحة هذا المعنى، وقوله: (يَأْتِ بِصِيرًا) أي يصير بصيرا ويشهد له 513.

فيعقوب أتى بصيرا، ولم يقل رجع بصيرا، ما أوجب أن تكون صفة جديد وليست قديمة في يعقوب، وهذا يعني أن بصيرة جديدة ستضاف إلى بصر يعقوب هي أن نبوة يوسف عليه الصلاة والسلام بدأت ودليلها البيئات التي أتى بها يوسف عليه الصلاة والسلام مصداقا لقوله تعالى: {وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مَا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ} 514.

وعليه فالبصير هو الله الذي مدَّ يعقوب بالبصر والبصيرة؛ وهو الذي جعل يعقوب بصيرا بعد أن فقد حاسة البصر، ولهذا استمد يعقوب صفته الكريمة من البصير المطلق. والبصير هو: "الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض والسماوات، حتى أخفي ما يكون فيها فيرى دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، وجميع أعضائها الباطنة والظاهرة وسريان القوت في أعضائها الدقيقة، ويرى سريان المياه في أغصان الأشجار وعروقها وجميع النباتات على اختلاف أنواعها وصغرها ودقتها، ويرى نياط عروق النملة والنحلة والبعوضة وأصغر من ذلك. فسبحان من تحيرت العقول في عظمتها، وسعة متعلقات صفاته، وكمال عظمتها، ولطفها، وخبرته

513 - تفسير الرازي، ج 9، ص 108.

514 - غافر 34.

بالغيب، والشهادة، والحاضر والغائب، ويرى خيانات الأعين وتقلبات
الأجفان وحركات الجنان"515.

البصير "هو الذي أحاط بصره بجميع المبصرات في أقطار الأرض
والسماوات يرى ويبصر ما تحت الأرضين السبع كما يبصر ما فوق
السماوات السبع، بصير بأعمال العباد لا يخفي عليه منها
شيء"516.

الحمد لله المنزه عما يخطر بالبال أو يتوهم في الفكر والخيال
المحتجب برداء العز والجلال { لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار
وهو اللطيف الخبير}517 تحيرت العقول في حقيقة ذاته وتخبطت
الأفهام في أسمائه وصفاته واندهشت الأبصار في جلال حضرته
{ ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير}518.

البصير هو الذي يشاهد ويرى حتى لا يعزب عنه ما تحت الثرى،
وإبصاره أيضا منزه عن أن يكون بحدقة وأجفان ومقدس عن أن يرجع
إلى انطباع الصور والألوان في ذاته كما ينطبع في حدقة الإنسان فإن
ذلك من التغيير والتأثر المقتضي للحدثان وإذا نزه عن ذلك كان البصر
في حقه عبارة عن الصفة التي ينكشف بها كمال نعوت المبصرات
وذلك أوضح وأجلى ما يفهم من إدراك البصر القاصر على ظواهر
المرئيات.

حظ العبد من حيث الحس من وصف البصر ظاهر ولكنه
ضعيف قاصر إذ لا يمتد إلى ما بعد ولا يتغلغل إلى باطن ما قرب بل

⁵¹⁵ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 45.

⁵¹⁶ الوجيز في أسماء الله، ج 1، ص 11.

⁵¹⁷ الأنعام 103.

⁵¹⁸ الشورى 11.

يتناول الظواهر ويقصر عن البواطن والسرائر، وأما حظه الديني منه أمران، أحدهما أن يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت السماوات فلا يكون نظرة إلا عبرة قيل ليعسى عليه السلام هل أحد من الخلق مثلك فقال من كان نظره عبرة وصمته فكرة وكلامه ذكرا فهو مثلي، والثاني أن يعلم أنه بمراى من الله عز جل ومسمع فلا يستهين بنظره⁵¹⁹.

البصير هو من لا تُخفي عليه خافية مصداقا لقوله تعالى: { وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ حَرْدَلٍ آتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ }⁵²⁰. فالذي يضع كل شيء بحساب وميزان لا تخفي عليه خافية، ولذلك القاعدة تقول: { الخالق يبصر الأشياء والأشياء لا تبصر خالقها) ولهذا بطبيعة الحال البصير المطلق خالق كل شيء فهو يرى الأشياء وهي لا تراه برغم وجوده وبرغم وجودها، ولهذا فالبصير هو مالك القوّة التي يكشف بها الخفايا مصداقا لقوله تعالى: { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ }⁵²¹.

والبصير: هو الذي يرى الأشياء والأحداث ويعلمها قبل حدوثها، ولذلك فالبصير هو العليم الحكيم، أي أنه يخلق الأحداث مثلما يخلق الأشياء ومثلما يخلق من الأشياء بشرا ومخلوقات لا تخصى ولا تعد بالعقل البشري الذي لم يؤت من العلم إلا قليلا. والخليفة هو المؤمن الذي يعلم هذا الأمر بالعلم الذي أبلغه الله به عن طريق اصطفاء الأنبياء والرسل وما كلفهم به واستخلفهم عليه سبحانه لا إله

⁵¹⁹ المقصد الأسنى ص 91.

⁵²⁰ الأنبياء، 47.

⁵²¹ غافر 19.

إلا هو، ولذا فلخليفة الذي آمن بما أنزل ليس له بدا إلا أن يقول ربِّي
 زدني علما، قال تعالى: {فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ
 مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ
 آدَمَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نُنزِلَ لَهُ الْوَحْيَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ
 فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا
 يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ وَأَنَّكَ لَا
 تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَىٰ فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ
 عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْئَلُ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتَ لهُمَا سَوْآتُهُمَا
 وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ثُمَّ اجْتَبَاهُ
 رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ
 فَأَمَّا يَا تَيْتَبُكُمْ مِنِّي هُدَىٰ فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ وَمَنْ
 أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ قَالَ
 رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا {522.

البصير هو الذي يشاهد الأشياء كلها ظاهرها وخافيها بغير
 جارحة، والبصر هو الذي به تُرى الأشياء هي كما هي، ولا تخفي
 عليه خافية، حتى يستمد الخليفة بصيرته التي يوصف بأنه المصلح في
 الأرض وغير المفسد ولا سافك الدماء فيها بغير حق، والجمع أبصار.
 وفي اللغة بصر به نظر إليه، أبصره إذا أخبر بالذي وقعت عينه عليه،
 ورجل بصير مبصر خلاف الضير، وفي التنزيل العزيز: {لا تدركه
 الأبصار وهو يدرك الأبصار} 523. ولذا فالبصير هو الذي يُدرك
 الأشياء المتجاوزة لحاسة البصر، والمبصر هو الذي يُدرك حقيقة
 وجودها بالمشاهدة العينية، وعليه فالبصير يُدرك العلل والخفايا التي من

522 طه، 114 . 125.

523 الأنعام 103.

وراء خلق الأشياء والمخلوقات، والمبصر فقط هو الذي يصف ما يشاهده ولا يدرك ما خلفه، وهذا الأمر المخفي هو الذي يعلمه ويدركه البصير. قال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُسَيِّرٍ} 524.

البصير هو الذي يعلم ما لا يعلمه المبصر فقط، ولهذا المؤمن المستخلف في الأرض هو الذي لا يقف عند حد مشاهدة الإبل، بل يتعداها إلى معرفة الكيفية التي بها وعليها خلقت، حتى يبلغ مرحلة الإعجاز التي تجعله مؤمنا بأن من ورائها خالق عظيم يملك قوة الخلق كله ويؤمن إدراكا أنه الخالق الذي لا يُخلق.

يقول صاحب اللسان: أعلم الله أنه يدرك الأبصار وفي هذا الإعلام دليل أن خلقه لا يدركون الإبصار أي لا يعرفون كيف حقيقة البصر وما الشيء الذي به صار الإنسان يبصر من عينيه دون أن يبصر من غيرهما من سائر أعضائه، فاعلم أن خلقا من خلقه لا يدرك المخلوقون كنهه ولا يحيطون بعلمه فكيف به تعالى والأبصار لا تحيط به وهو اللطيف الخبير 525.

والأبصار من جهة أخرى هو الاعتبار والاستبصار كما في قوله تعالى: {وَمِنْهُمْ مَّنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعَمَىٰ وَلَوْ كَانُوا لَا يُبْصِرُونَ} 526 الضمير يعود للمخاطب وهو سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فالكفرة الفجرة يعرفون حجة محمد رسول الله ويحددون الحقيقة الآتي بها، ولذا فهم كالأعمى الذي فقد بصره فلا

524 الغاشية، 17 . 22.

525 لسان العرب، ج 4 ص، 66.

526 يونس 43.

يرى شيء. فالله حقيقة لا صورة له ولا شكل، وله وجود الإعجاز،
وتثبته حجج محسوسة وهي جميع المخلوقات التي بطبيعة الحال لا
تكون إلا ويكون من ورائها خالق أعظم منها، ومن هذه المخلوقات
الخليفة الذي خلقه الله تعالى في أحسن تقويم ليدرك خالقه عن بينة
ووعي لا لبس فيه، قال تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ} 527.

بما أنه ليس كمثل شيء، إذن هو المثبت بصفة عدم التماثل، أي
لو لم يكن موجودا ما كان ذا خصوصية مطلقة، وفي هذا تكون جميع
الموجودات {المخلوقات} ذات خصوصيات نسبية تسمح بالمقارنات
وفقا للفروق النسبية، إلا هو عز وجلّ ليس كمثل شيء، وبهذه الصفة
هو مثبت، ومع أنه ليس كمثل شيء، فهو السميع البصير الذي لا
تخفي عنه خافية، يسمع المناادي والمناجي والمستغيث ويستجيب في
ذات الوقت لكل خليفة مطيع بالعبادة وأداء الواجبات ومطيع
بالانتهاز عن كل ما نهى عنه.

ويمكن إيراد هذه الحجّة على وجه آخر، فيقال:

- إما أن يكون المراد لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ: في ماهيات الذات.

- أو أن يكون المراد ليس كمثل في الصفات شيء.

والثاني باطل؛ لأنّ العباد يوصفون بكونهم عالمين قادرين، كما أنّ
الله تعالى يوصف بذلك، وكذلك يوصفون بكونهم معلومين مذكورين،
مع أنّ الله تعالى يوصف بذلك، فثبت أنّ المراد بالمثالة المساواة في
حقيقة الذات، فيكون المعنى أن شيئا من الذوات لا يساوي الله تعالى
في الذاتية، فلو كان الله تعالى جسما، لكان كونه جسما ذاتا لا

527 الشورى 11.

صفة، فإذا كان سائر الأجسام مساوية له في الجسمية - أعني في كونها متحيزة طويلة عريضة عميقة-، فحينئذ تكون سائر الأجسام ماثلة لذات الله تعالى في كونه ذاتا، والنص ينفي ذلك فوجب أن لا يكون جسما⁵²⁸. ومجمل القول: اتفق العلماء على أن الله ليس كمثل شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ولكن لفظ التشبيه قد صار في كلام الناس لفظا مجملا يراد به المعنى الصحيح وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقل من أن خصائص الرب تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته {ليس كمثل شيء} ردا على الماثلة المشبهة {وهو السميع البصير} ردا على النفاة فمن جعل صفات الخالق مثل صفات المخلوق فهو المشبه المبطل المذموم ومن جعل صفات المخلوق مثل صفات الخالق فهو نظير النصارى في كفرهم ويراد به أنه لا يثبت لله شيئا من الصفات⁵²⁹. وأن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقتة، وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسما لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل.

أمّا العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثا مخلوقا قابلا للعدم والفناء قابلا للتفرق والتمزق.

وأما النقل فقولته تعالى: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} فهذا تمام الكلام في تقرير هذا الدليل وعند هذا يظهر أننا لا نقول بأنه متى حصل الاستواء في الصفة لزم حصول الاستواء في تمام الحقيقتة، إلا أننا نقول

⁵²⁸ تفسير الرازي، ج 13، ص 416.

⁵²⁹ شرح العقيدة الطحاوية، ج 1، ص 99.

لما ثبت أن الأجسام متماثلة في تمام الماهية، فلو كانت ذاته جسما لكان الجسم مساويا لسائر الأجسام في تمام الماهية، وحينئذ يلزم أن يكون كل جسم مثالا له، لما بينا أن المعبر في حصول الماثلة اعتبار الحقائق من حيث هي هي، لا اعتبار الصفات القائمة بها فظهر بالتقرير الذي ذكرناه أن حجة أهل التوحيد في غاية القوة، خلافا لمن كان بعيدا عن معرفة الحقائق، فجرى على منهج كلمات العوام.

وبناء على قاعدة: {الخليفة يستمد صفاته الحسان من صفات مستخلفه} فإن البصير بالإضافة هو المستبصر في أمره بأمر خالقه الذي خلقه في أحسن تقويم، وهو من المؤمنين الذين هم في صلاحهم خاشعون فتبارك الله أحسن الخالقين. قال تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَّوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ {530.

بناء على هذه الآيات الكريمة فإن الخليفة هو البصير بالأمور

الآتية:

530 المؤمنون، 17. 1.

1 . بصير بفلاحه أي قيامه بالأعمال الخيرة التي يقدم على أدائها بإخلاص وإيمان ووعي تام بما يترتب عليها من جزاء في مرضات الخالق عزّ وجلّ، ولذا فالفلاح هو التوفيق والفوز بالأعمال الحسنة، ولهذا (فقد أفلح المؤمنون) حكم اعترافي بأنهم قد أفلحوا بما قدّموا عليه من أفعال الخير التي كانت على علم البصير المطلق، ولذا فإنّ المؤمنون هم الذين قد أفلحوا مصداقا لقوله تعالى: (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ).

2 . البصير بالإضافة هو الذي يرى إعجاز الآيات التي يقرأها في صلاته فيخشع لله وحده، ولذا فالبصير هو المدرك لمعقبات ما يقرأ من آيات قرآنية فيزداد خشوعا مصداقا لقوله تعالى: (الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ).

3 . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ، هم: الخلفاء الذين يخشون البصير المطلق الذي يعلموا بواحديته ويؤمنون بها ويعلمون أنه يعلم ما يعلمون وما لا يعلمون، ويتوبون إليه خاشعين فما لا يعينهم من قول أو فعل لا يلتفتون إليه، ولا يجترحون به أحد، وذلك لعلمهم بأمر البصير الذي يعلم أمرهم ولا يغفل عن كبيرة ولا صغيرة إلا أحصاها وعدها عدا، ولأنّ الذنوب تسجل اللغو ذنبا فهم عن اللغو معرضون.

4 . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ، هم المؤمنون حقًا الذين بإيمانهم يُبصرون ويستخلفون في الأرض، يخشون الله ويعملون على إحقاق الحقّ فيخرجون الزكاة طهارة عما يملكون وطهارة لأنفسهم بالطاعة التامة لله ربّ العالمين.

5 . وَالَّذِينَ هُمْ لِأُزْوَاجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ، طاعة لأمر الله تعالى، وتهديبا لأخلاقهم وتمسكا بفضائل المجتمع المستخلف في الأرض على القيم والفضائل

الخالدة بمحبة الله عزّ وجلّ، فالمبصرون بالإضافة هم المسكون لفروجهم عن الحرام، وذلك لأجل حفظ النوع بعد طاعة الله في أمره، ولهذا فهم المستخلفون بالحلّائل لا بالمحرّمات، والحلّائل هي المستثنية وهي: (أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ).

6 . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ، فمن ابتغي ألا يكون من المستخلفين فهو من العادين الذين يتعدون حدود الله في أمره ونهيّه، والبصير من العباد هو الذي يُبصر الحقّ فيتبعه ويعلم الحقّ فيطيعه، ولذا فهو المنتهي عما نهى الله عنه والطائع له بالمطلق.

7 . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ، الرعاية: انتباه وعناية واهتمام من أجل السّلامة والحفظ من كل حاجة أو سوء، ولذا فالمبصرون هم الذين لأماناتهم وعهودهم راعون. أي محافظون على العهد وراعون للأمانة حفظاً بعدم النقص أو الخيانة مع الرعاية التامة لذلك.

8 . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ، البصير هو المدرك للحقّ فيتبعه، ولذا فالذين يحافظون على صلواتهم هم الخلفاء الذين التزموا بأمر الطاعة لله وحده لا شريك له، ولهذا فهم المداومون على أدائها في أوقاتها لإدراكهم إنّها الحقّ الذي يستوجب الطاعة التامة. قال تعالى: {إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ} 531.

9 . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، الذين يمتلكون الصفات الحسان السابقة الذكر هم المبصرون الذين سيرثون جنة الفردوس بالخلود فيها أبداً، ولذا فمن يعمل صالحاً في

531 العنكبوت، 45.

الدنيا يوحد الله طاعة تامة لا شريك له، ويتزكى ويصلي ويصوم ويؤدّي الفرائض وينتهي عن النواهي المنهي عنها، فيفوز بالجنة وهو من الوارثين.

10. وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، العودة إلى أصل خلق الخليفة وهو الطين الذي هو من أديم الأرض ومن مكوناتها، ولهذا فالبصير هو الذي يدرك أصل خلقه فيقدّره ويعرف خالقه فيعبده واحد أحد لا شريك له، ويعرف من أبلغه بالمعجزات أو جاء بها فيصلّي ويسلم عليه ويتبع سنته في مرضات الله، ولهذا فللأرض أهمية، فيعمل البصير على إصلاحها ولا يُفسد ولا يسفك الدماء فيها بغير حقّ، وللخالق الطاعة التامة بالوحدانية ركوعاً وسجوداً حتى الفوز برضاه، ويتبع السنة الشريفة حتى يتشرف بتباع الحقّ هو كما هو، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ {532}.

11 . البصير المطلق يبين للبصير بالإضافة ما خُلق والكيفية التي بها خلق، والتطورات والتغيرات التي تصاحبه في كل فترة زمنية وفي كل مرحلة عمرية ليبصر القدرة التي خلقتة والقوة التي لا تماثلها قوة حتى يؤمن ولا يشرك بعبادة ربّه أحداً، ولهذا جاء قوله تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَا نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ﴾ القرار المكين هو رحم المرأة، المقر المناسب لنمو الجنين والحفاظ عليه مع وافر العناية والرعاية التي لا تجعله في حاجة لسواه مادام في نموه الجنيني في القرار المكين.

12 . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً، تَطَوَّرَ وَتَغَيَّرَ جَدِيدٌ عَلَى الْجَنِينِ
يُضَافُ إِلَى التَّغْيِيرِ السَّابِقِ، أَيِ أَصْبَحَ عَلَى حَالَةٍ مِنَ التَّمَاسِكِ وَالتَّلَوُّقِ
بِالدُّورَةِ الدَّمَوِيَّةِ لِلْأُمِّ فَيَتَغَذَّى مِنْ غِذَائِهَا.

13 . فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، أَيِ بَدَأَ التَّشَكُّلَ مِنَ اللَّحْمِ يَأْخُذُ
صُورَهُ لِيَقْتَرِبَ مِنْ مَرَحَلَةٍ أُخْرَى تَضِيفُ إِلَيْهِ شَيْئًا جَدِيدًا. وَهَذَا قَالَ
تَعَالَى: {وَأَنْفُسُهُمْ أَفْلا يُبْصِرُونَ} 533. وَقَالَ تَعَالَى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا
الْإِنْسَانَ وَنَعَلَّمْ مَا تُوسَّوسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ
الْوَرِيدِ} 534. وَحَتَّى لَا تُوسَّوسَ الْإِنْفَسُ وَتَظُنَّ فِي غَيْرِ مَحَلِّهِ فَإِنَّ
الْخَالِقَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ الْأَشْيَاءَ وَخَلَقَ مِنَ الْأَشْيَاءِ خَلْقَ آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ
أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

14 . فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا، بَدَأَ الْهَيْكَلَ يَأْخُذُ شَكْلًا لِإِظْهَارِ
الصُّورَةِ، بَدَلًا مِنْ كِتْلَةِ اللَّحْمِ الْخَالِصَةِ الَّتِي تَكُونُ مِنَ الْعَلَقَةِ. إِنْ
الْمُتَّبِعَ لَخَطَوَاتِ الْخَلْقِ إِذَا كَانَ بَصِيرًا يَدْرِكُ الْإِعْجَازَ فِي كُلِّ مَرَحَلَةٍ مِنَ
مَرَاكِلِ الْخَلْقِ وَالنَّمُو فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.

15 . فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا: لَا يَدْرِكُ هَذِهِ الْمَعْجِزَةَ إِلَّا بِصِيرٍ ذُو
عَقْلٍ وَبَصِيرَةٍ حَتَّى يَرْتَقِيَ إِلَى مَعْرِفَةِ الْكَيْفِيَّةِ الَّتِي بِهَا تَتِمُّ عَمَلِيَّةُ الْخَلْقِ
وَهِيَ الْقُدْرَةُ الْمَطْلُوقَةُ لِلْخَالِقِ الْمَطْلُوقِ عَزَّ وَجَلَّ، فَكَسَوْنَا: تَعْنِي لَقَدْ تَمَّتْ
تَغْطِيَةُ الْعِظَامِ بِاللَّحْمِ الْمُسْتَمَدِّ مِنَ الْمُضْغَةِ الْمُسْتَمَدَّةِ مِنَ الْعَلَقَةِ الْقَارَةِ فِي
الْمَكِينِ الْمُسْتَقَرِّ فِي رَحْمِ الْأُمِّ الَّتِي هِيَ فِي أَصْلِ خَلْقِهَا مِنْ طِينٍ.

16 . ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ، أَصْبَحَ
الْجَنِينُ مَوْلُودًا مُتَكَامِلًا لَهُ صِفَةُ الْإِنْسَانِ الَّذِي قَالَ عَنْهُ: {لَقَدْ خَلَقْنَا

533 السجدة، 27.

534 ق، 16.

الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ {535}. ولهذا تبارك الله أحسن الخالقين، والتبارك هنا مضاعفة المحاسن حتى يصبح الخليفة موصوفا بأحسن التقويم إذا ما قورن بغيره من الخلائق.

17 . الذي لا بصيرة له لا يدرك المعجزات في صور الخلق المتعددة كما هو مبين في مراحل التطور تلك، والمبصر فقط هو الذي يُرِيكَ الكيفية التي بها تم خلقه، وهذه ميزة تميزه عن بقية المخلوقات التي لم تدرك ما يدركه من خُلق في أحسن تقويم، ومع ذلك فالمؤمن المستخلف في الأرض يعلم أن النهاية مرحلة من مراحل التطور التي بها تُطوى المسافة بين الدنيا وزخرفتها وبين الآخرة والجنة التي هي غايته المطلقة، قال تعالى: {ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ} 536.

18 . ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ، الخليفة البصير كما أدرك مراحل الخلق والتطورات والتغيرات التي تصاحبها نموا، يدرك أيضا أن الموت مرحلة من مراحل النمو التي تؤدي إلى يوم البعث لتكون الحياة الحيوان لمن اتقى فوزا بالجنة، وتكون جهنم لمن كفر وأشرك بربه الواحد الأحد عذابا شديدا.

19 . وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ، تنبيه لا يدركه إلا مبصر، الذي يعلم من علمه تعالى أنه خالق السموات السبع وهي: الطرائق السبع والأراضي السبع، والتنبيه يقصد به: الخليفة في الأرض فقط، والطرائق السبع هي أعلى من الأرض وفي هذا العلو الذي يملأه الله المبصر المطلق فهو لم يكن بغافل عما عملت أيدي الناس وما أضمرت نفوسهم وما ظنت عقولهم في الأرض السفلى فتبارك الله أحسن الخالقين والحمد لله رب العالمين الذي جعل

535 التين، 4.

536 المؤمنون 15.

لنا بصرا وبصيرة ندرك بها الآيات العظام وندركه بها واحدا أحدا لا شريك له ونخلفه بالطاعة والإيمان لا إله إلا هو.

والذي يجب الانتباه إليه أن يكون الخليفة بصيرا فيما يُقال وفيما يُبصر وفيما يُسمع ويتذوق أو يلمس، وذلك لوجود معانٍ وراء كل معرفة ومعرفٍ أو معرفٍ به، فالبصير هو من يتمكن من إدراك الظاهر والتعامل معه وفقا لقاعدة إحقاق الحق وإزهاق الباطل ومعرفة الكامن والتعامل معه بميزان العدل دون ظن في غير محله أو حكم في غير محله، ولهذا فالبصير هو الذي يتبين أولا ويقول رأيا أو يصدر حكما ثانيا.

ولأنّ الله واحد فالبصير بالإضافة دائما لا يراه إلا كذلك، واحدا أحدا، ومع أنّه لا يتمثل في شيء ولا يقارن بشيء إلا أنّ الخليفة هو الوحيد الذي يستمد صفاته من صفات خالقه في القول والسمع والفعل والعمل والسلوك، ولهذا فهو المصلح في الأرض دون غيره وهو بصير بقوله تعالى: (لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) ولهذا الخليفة لا يخلف الله في وجوده بل يخلفه باستمداد صفاته منه.

و(لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ) تدل على أن خالق الأشياء ليس كمثلته شبيهه، ولذا فالشيء مخلوق والله خالق والفرق كبير بين الخالق والمخلوق. وفي حرف التشبيه الدليل الدال على كونه منزها عن المثل، وهذه الآية دالة على نفي المثل 537. وقوله تعالى: (وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى) 538 والمثل الأعلى هو في ذاته التي لا يرتقي للوصف بها أحد، ويقتضي إثبات المثل فلا بد من الفرق بينهما، فنقول المثل هو الذي يكون مساويا للشيء في تمام الماهية والمثل هنا في الآية هو

⁵³⁷ تفسير الرازي، ج 13، ص 419.

⁵³⁸ الروم 27.

الذي يكون مساويا له في بعض الصفات الخارجة عن الماهية وإن كان مخالفا في تمام الماهية.

وختم جلّ في علاه الآية السابقة بقوله تعالى: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) وهي الدليل على أن السمع مغاير لتأثر الحاسة أنّا إذا سمعنا الصوت علمنا أنّه من أي الجوانب جاء، فعلمنا أنّا أدركنا الصوت حيث وجد ذلك الصوت في نفسه، وهذا يدلّ على أنّ إدراك الصوت حالة مغايرة لتأثير الصماخ عن تموج ذلك الهواء. وأما الرؤية فالدليل على أنّها حالة مغايرة لتأثر الحدقة، فذلك لأن نقطة الناظر جسم صغير فيستحيل انطباع الصورة العظيمة فيه، فنقول الصورة المنطبعة صغيرة والصورة المرئية في نفس العالم عظيمة، وهذا يدل على أنّ الرؤية حالة مغايرة لنفس ذلك الانطباع، وإذا ثبت هذا فنقول لا يلزم من امتناع التأثر في حقّ الله امتناع السمع والبصر في حقّه.

فإن قالوا: أنّ السمع والبصر حالتان مغايرتان لتأثر الحاسة إلا أنّ حصولهما مشروط بحصول ذلك التأثر، فلما كان حصول ذلك التأثر في حقّ الله تعالى ممتنعا كان حصول السمع والبصر في حقّ الله ممتنعا.

فنقول ظاهر قوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) يدل على كونه سميعا بصيرا فلم يجز لنا أن نعدل عن هذا الظاهر إلا إذا قام الدليل على أنّ الحاسة المسماة بالسمع والبصر مشروطة بحصول التأثر، والتأثر في حقّ الله تعالى ممتنع، فكان حصول الحاسة المسماة بالسمع والبصر ممتنعا، وأنتم المدعون لهذا الاشتراط فعليكم الدلالة على حصوله، وإنما نحن متمسكون بظاهر اللفظ إلى أن تذكروا ما يوجب العدول عنه، فإن قال قائل قوله: (وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ) يفيد الحصر، فما معنى هذا الحصر، مع أن العباد أيضا موصوفون بكونهم سميعون بصيرون؟ فنقول السميع والبصير لفظان مشعران بحصول هاتين الصفتين على سبيل

الكمال، والكمال في كل الصفات ليس إلا لله، فهذا هو المراد من هذا الحصر⁵³⁹.

والخلفاء على أرضه يجعلون ما قاله الله ورسوله هو الحق الذي يجب اعتقاده واعتماده واتباعه بالإيمان والعمل به بالوجوب. (ليس كمثلته شيء وهو السميع البصير) ففي هذا الإثبات ما يقرر معنى النفي ففهم أن المراد انفراده سبحانه بصفات الكمال فهو سبحانه وتعالى موصوف بما وصف به نفسه ووصفه به رسله ليس كمثلته شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله ما أخبرنا به من صفاته وله صفات لم يطلع عليها احد من خلقه كما قال رسوله الصادق في دعاء الكرب: "اللهم أني أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك أو أنزلته في كتابك أو علمته أحدا من خلقك أو استأثرت به في علم الغيب عندك أن تجعل القرآن العظيم ربيع قلبي ونور صدري وجلاء حزني وذهاب همي وغمي"⁵⁴⁰. لا شيء يعجزه من النفي المذموم فان الله تعالى قال: {وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض انه كان عليما قديرا}⁵⁴¹، فنبه سبحانه وتعالى في آخر الآية على دليل انتفاء العجز وهو كمال العلم والقدرة فإن العجز إنما ينشأ إما من الضعف عن القيام بما يريد الفاعل وإما من عدم علمه به والله تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة وهو على كل شيء قدير، قال تعالى: {تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا}⁵⁴². ولأن الله واحدا أحدا فهو بطبيعة الحال لا يكون له مثل أو شبيه، ولكن يكون هو المتصف بصفات منه تعالى. فالذي يستمد صفاته من صفات عليا

⁵³⁹ للمزيد ينظر تفسير الرازي، ج 13، ص 420.

⁵⁴⁰ شرح العقيدة الطحاوية، ج 1، ص، 110.

⁵⁴¹ فاطر، 44.

⁵⁴² شرح العقيدة الطحاوية، ج 1، ص، 111.

يكون مع العليين، والذي يستمد صفاته التي بها يُعرف من صفات دنيا يكون مع الذين هم في أسفل السافلين. ولهذا قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} 543.

ولأنَّ الإنسان أكثر شيء جدلاً، فهو المختلف عن بقية المخلوقات الأخرى التي آمنت تسليماً بما من شيء إلا ويسبح باسمه {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} 544. إذن كل شيء يسبح بحمده إلا الذي كان أكثر شيء جدلاً لا يسبح إلا بعد إيمان، ومع أنَّ الله قد ميزه بأحسن التقويم إلا أنه بذلك التقويم الخارق إذا ما قورن بغيره من المخلوقات يشك أحياناً في غير محله ويظن وهو يعلم أن بعض الظن إثم، فيضل السبيل الحق الذي اختاره البصير الذي ببصيرته استخلفه الله تعالى في الأرض وعهد له الوراثة في الجنة.

وعليه فالجدل بالحجة يؤدي إلى الاتفاق والتفاهم والتفهم والجدل بغيرها لا يؤدي إلا إلى المعصية القاصية عن الاستخلاف ووراثة الجنة.

543 البقرة، 30 . 33.

544 الإسراء، 44.

والفهم الذي يجب هو ما يحصله العقل ويحيط به ولا ينشغل بما هو أكبر وأعلى وأجل؛ لأن الله تعالى لا يُعلم كيف هو إلا هو سبحانه وتعالى ولبصر وحده يعرفه سبحانه بصفاته وهو أنه أحد صمد {لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد} 545، وهو {الله لا اله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم له ما في السموات وما في الأرض} 546، و{هو الله الذي لا اله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} 547.

ففي قوله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)، نفي المثل وأثبت الصفة وإثبات الصفات تنبيها على أنه ليس نفي التشبيه مستلزما لنفي الصفات وما يوضح هذا أن العلم الإلهي لا يجوز أن يستدل فيه بقياس تمثيلي يستوي فيه الأصل والفرع ولا بقياس شمولي يستوي أفراده فإن الله سبحانه (ليس كمثله شيء) ولهذا لا مجال من حيث المقارنة، فالمقارنة تسمح بمقارنة أرنب بأرنب وغازلة بغازلة ورجل برجل وهكذا، وذلك بوجود مبررات التشابه، أما استمداد الصفات والأفعال من الواحد للكثرة فهذا متاح مع صفات الخالق عندما تدركه العقول هو كما هو، وكذلك يمكن أن يستمد الشبيه من الشبيه سلوكا حسنا أو سلوكا غير حسن، وهنا يكون الفرق أن الخليفة لا يستمد من خالقه إلا الصفات الحسان وذلك لانعدام غيرها من الصفات من ذاته، إما من الشبيه فالشبيه يمتد بين الكفر والشرك والظن والإثم والمغفرة والتوبة والإيمان ولهذا لكل سلوك وفعل وعمل. فمن استمد

545 الإخلاص 34.

546 البقرة، 255.

547 الحشر 24.

صفاته من خالقه وسلوكه وفعله من سنة الرسول الكريم كان قدوة
حسنة من القدوة الحسنة.

والحديث في هذه المسائل يطول فكلما أراد الإنسان الخروج منها
رجع إليها وهذا من عجيب هذه المسائل؛ لأنها محل نظر وتوقف، ربّما
كان التوقف سبيلا لدخول الوسوس الشيطانية، ولأن الوقوف عندها
يكون بعدها طرق الباب ومن ثمّ الولوج فيها، ولكن الأولى بنا أن
ننظر في ملكوته وننظر في خلقنا وكيف تطورنا من التراب إلى النطفة
والعلقة والمضغة والنشوز بالعظام إلى أن أصبحنا خليفة بأحسن التقويم
وتبارك الله أحسن الخالقين. وعلينا أن نتفحص ببصرنا وسمعنا وحواسنا
الأخرى هذه النعم التي لا تحصى، ولنأخذ نعمة البصر وما يتعلق بها
من الرؤية سواء أكانت الرؤية في جواهرنا أم في مظاهرنا، وسواء
أكانت في الأشياء الدقيقة أم في الأشياء الكبيرة العملاقة.

فإنّ هذه الجمادات والحيوانات المختلفة الا أشكال والمقادير
والصفات والمنافع والقوى والأغذية والنباتات التي هي كذلك فيها من
الحكم والمنافع ما قد أكثرت الأمم في وصفه على ممر الدهور ومع
ذلك فلم يصلوا منه إلا إلى أيسر شيء وأقله بل لو اتفق جميع الأمم لم
يحيطوا علما بجميع ما أودع واحد من ذلك النوع من الحكم والمصالح
هذا إلى ما في ضمن ذلك من الاعتبار والدلالة الظاهرة على وجود
الخالق ومشيتته واختياره وعلمه وقدرته وحكمته فإن المادة الواحدة لا
تحتمل بنفسها هذه الصورة الغريبة والا أشكال المتنوعة والمنافع
والصفات ولو تركبت مع غيرها فليس حدوث هذه الأنواع والصور
بنفس التركيب أيضا ولا هو مفيض له فحصول هذا التنوع والتفاوت
والاختلاف في الحيوان والنبات من أعظم آيات الربّ تعالى ودلائل
ربوبيته وقدرته وحكمته وعلمه وأنه فعّال لما يريد اختيارا ومشيتة فتنوع

مخلوقاتة وحدوثها شيئاً بعد شيء من أظهر الدلالات؛ وتأمل كيف أرشد القرآن إلى ذلك في غير موضع بقوله تعالى: { وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنَوَانٌ وَعَيْرٌ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 548، وقوله تعالى: { إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاجْتِذَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ } 549. وقوله: { ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون } 550، وقوله: { هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ يُنْبِثُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ } 551، وقول تعالى: { والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على رجلين ومنهم من يمشي على أربع يخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير } 552. فتأمل أيها الخليفة في أرضه كيف نبه سبحانه باختلاف الحيوانات في المشي مع اشتراكها في المادة على الاختلاف فيما وراء ذلك من أعضائها وأشكالها وقواها وأفعالها وأغذيتها ومساكنها، ونبه على الاشتراك والاختلاف فيشير إلى يسير منه فالطير كلها تشترك في الريش والجناح

548 الرعد 4.

549 البقرة 146.

550 يونس 67.

551 النحل 10.

552 النور 45.

وتتفاوت فيما وراء ذلك أعظم تفاوت، واشتراك ذوات الحوافر في الحافر كالفرس والحمار والبغل وتفاوتها في ما وراء ذلك، واشتراك ذوات الأظلاف في الظلف وتفاوتها في غير ذلك، واشتراك ذوات القرون فيها وتفاوتها في الخلق والمنافع والا شكّال واشتراك حيوانات الماء في كونها ساجحة تأوي فيها وتتكون فيها وتفاوتها أعظم تفاوت عجز البشر إلى الآن عن حصره، {وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها} 553، واشتراك الوحوش في البعد عن الناس والتفاوت عنهم وعن مساكنهم وتفاوتها في صفاتها وأشكالها وطبائعها وأفعالها أعظم تفاوت يعجز البشر عن حصره، واشتراك الماشي مع الماشي والزاحف مع الزاحف وتفاوته عنه أعظم تفاوت وكل من هذه الأنواع له علم وإدراك وتحليل على جلب مصالحه ودفع مضاره فمن أعظم الحكم الدلالة الظاهرة على معرفة الخالق الواحد المستولي بقوته وقدرته وحكمته على ذلك كله بحيث جاءت كلها مطيعة منقادة منساقة إلى ما خلقها له على وفق مشيئته وحكمته وذلك أدل شيء على قوته وبصره وقدرته القاهرة وحكمته البالغة وعلمه الشامل فيعلم إحاطة قدرة واحدة وعلم واحد وحكمة واحدة.

قال تعالى: {ويخلق ما لا تعلمون} 554، وقال: {فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون} 555، فيجمع غايات فعله وحكمة خلقه وأمره إلى غاية واحدة هي منتهى الغايات وهي ألوهية الحقّ التي كل ألوهية سواها فهي باطل ومحال فهي غاية الغايات ثم ينزل منها إلى غايات آخر هي وسائل بالنسبة إليها وغايات بالنسبة إلى ما دونها

553 النحل 18.

554 النحل 8.

555 الحاقة 38.

{وان إلى ربك المنتهى} 556 فليس وراءه معلوم ولا مطلوب ولا مذکور إلا العدم المحض وليس في الوجود إلا الله ومفعولاته وهي آثار أفعاله وأفعاله آثار صفاته وصفاته قائمة به من لوازم ذاته. والمقصود أن الغايات المطلوبة العلم بإحاطة علم واحد من عالم واحد وفعل واحد من فاعل واحد وقدرة واحدة من قادر واحد وحكمة واحدة من حكيم واحد مطلق لا إله إلا هو.

تتوحد الربوبية والإلهية وتتعدد الصفات والأفعال، فنلاحظ النظام الواحد والحكمة الجامعة للأنواع المختلفة مع ضدها وتعذرهما. ودل افتقار بعضها إلى بعض وتشبك بعضها ببعض ومعاونة بعضها ببعض وارتباطه به على أنها صنع فاعل واحد وربّ واحد فلو كان معه آلهة وأرباب غيره كما لا ترضى ملوك الدنيا أن يحتاج مملوك أحدهم إلى مملوك غيره مثله لما في ذلك من النقص والعيب المنافي لكمال الاقتدار والغناء ودل انتظامها في الوجود ووقوعها في ثباتها واختلافها على أكمل الوجوه وأحسنها على انتهائها إلى غاية واحدة ومطلوب واحد هو إلهها الحقّ ومعبودها الأعلى الذي لا إله لها غيره ولا معبود لها سواه فتأمل كيف دل اختلاف الموجودات وثباتها واجتماعها فيما اجتمعت فيه وافتراقها فيما افتترقت على إله واحد وربّ واحد ودلت على صفات كماله ونعوت جلاله فالموجودات بأسرها كعسكر واحد له ملك واحد وسلطان واحد يحفظ بعضه ببعض وينظم مصالح بعضه ببعض ويسد خلل بعضه ببعض فيمد هذا بهذا ويقوي هذا بهذا وينقص من هذا فيزيده في الآخر يولج الليل بالنهار ويولج النهار بالليل ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويبيد هذا فينشئ مكانه من جنسه ما يقوم مقامه ويسد مسده فيشهد حدوث الثاني إن الذي

أحدثه وأوجده هو الذي أحدث الأول لا غيره وإن حكمته لم تتغير وعلمه لم ينقص وقدرته لم تضعف وإنه لا يتغير بتغير ما يغير منها ولا يضمحل باضمحلاله ولا يتلاشى بتلاشيه بل هو الحي القيوم العزيز الحكيم 557.

هذا إلى ما في لوازم مكبرها وانتظام بعضها ببعض وما يصدر عنها من الأفعال والآثار من حكم وأفعال أخرى وغايات أخر حكمها حكم موادها وحواملها كما نشاهده في أشخاصها وأعيانها مثال ذلك في حدوثه واحدة إنك ترى المعدة تشاق الغذاء وتجتذبه إليها فانظر لوازم ذلك قبل تناوله ولوازمه بعد تناوله وما يترتب على تلك اللوازم من عمارة الدنيا فإذا جذبته إليها أنضجته وطبخته كما تنضج القدر ما فيها فتنضجه الإنضاج الذي تعده لتغذي أجزاء البدن وقواه وهي إذا أنضجته لأجل نصيبها الذي ينالها منه فهو قليل من كثير بالنسبة إلى انتفاع غيرها به فيدفع ما فضل عن غذائها عنها إلى من هو شديد الحاجة إليه على قدر حاجته من غير أن يقصد ذلك أو يشعر به ولكن قد قصده وأحكمه من هو بكل شيء عليم وعلى كل شيء قدير يدبره بحكمته ولطفه وساقه في المجاري التي لا ينفذ. فيها الإبر لدقة مسالكها حتى أوصله إلى المحتاج إليه الذي لا صلاح له إلا بوصوله إليه وكانت طبيعة الكبد ومزاجها في ذلك تلي طبيعة المعدة وفعلها يلي فعلها وكذلك الأمعاء وباقي الأعضاء كالكبد للقلب في إعداد الغذاء والقلب للرئة والرئة للقلب في إعداد الهواء وإصلاحه فالأعضاء الموجودة في الشخص إذا تأملتها وتأملت أفعالها ومنافعها وما تضمنه كل واحد منها من حكمة اختصت به كشكله ووصفه ومزاجه ووضعه من الشخص بذلك الموضع المعين علمت

⁵⁵⁷ شفاء العليل، ج 1، ص 231، 232.

علما يقينا أنّ ذلك صادر عن خالق واحد مبصر ومدبر واحد وحكيم واحد فانتقل من هذا إلى أشخاص العالم شخصا شخصا من النوع الإنساني تجد الحكمة الواحدة الظاهرة في تلك الأفراد الكثيرة قد نفعت بعضهم بعض وأعانت بعضهم ببعض حارثا لزراع وزراعا لحاصد وحائكا لخياط وخياطا لنجار ونجارا لبناء فهذا يعين هذا بيده وهذا برجله وهذا يعينه بعينه وهذا بإذنه وهذا بلسانه وحكمته وهذا بماله وإذ لا يقدر أحدهم على جميع مصالحه ولا يقوم بمحاجاته ولا توجد في كل واحد منهم جميع خواص نوعه فهم بأشخاصهم الكثير كإنسان واحد يقوم بعضه بمصالح بعض قد كمل خواصه الإنسانية في صفاته وأفعاله وصنائه وما يراد منه فإن الواحد منهم لا يفي بأن يجمع جميع الفضائل العلمية والعملية والقوة والبقاء فجعل ذلك في النوع الإنساني بجملته والله سبحانه وقد فرق كمالات النوع في أشخاصه وجعل لكل شخص منها ما هو مستعد قابل له بحيث لو قيل أكثر من ذلك لأعطاه فإنه جواد لذاته قد فاض جوده على العالم كله.

أمّا النظر في جواهرنا وأنفسنا فلننظر كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁵⁵⁸ النفس ليست الروح ولا البدن، هي شيء آخر، يتكون من القبول والرفض والرضا وعدم الرضا الخوف والطمأنينة، الاتزان والقلق والوسوسة التي بها تمتلئ الصدور فتتسع أو تضيق. فالنفس توصف ويتم التعرف عليها بالمخاطبة وتؤدّي بصاحبها للتفاعل أو عدم التفاعل، وهكذا تظل على قيد الحياة إلى أن يتوفاها الله تعالى.

⁵⁵⁸ الذاريات 21.

في الآية الكريمة السابقة استغراب تساؤلي: أن الأنفس التي لا تدرك حقيقة أمرها لم تبصر حالها، ولذلك الخليفة مع استغراب هذه الآية يستغرب كيف لا يدرك الإنسان نفسه ليبصر أمره وما يربطه بالخالق العظيم. يستمر الاستغراب مصداقا لقوله تعالى: {أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا} {559}، وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَهُمْ أَدَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْعَافِلُونَ} {560}، وقوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} {561}.

قال تعالى: {أَوْ مَنْ كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ} {562}.

وإذا ما خرجنا من باطن الإنسان لنبصر ونرى ما حولنا من الأشياء الدقيقة والكبيرة فإننا يجب أن ننظر إليها بعقلنا وفكرنا وكيف تسير وفق نظام دقيق لا اختلال فيه فهذه الكواكب وهذه النجوم (الشموس) والمجرات والأجرام بمختلف الأحجام تسير في مسارات على شكل دوائر تعرف بالمدارات - في علمنا الحديث - فإذا نظرنا إلى مجموعتنا الشمسية نجدها تسير وفق نظام عجيب فكل كوكب له مدة تختلف عن غيره في دورانه حول نفسه وحول الشمس فأقربها يأخذ ثلاثة وثمانين يوما للدوران حول الشمس؛ لقرته منها، أما

559 محمد 24.

560 الأعراف 179.

561 الحج 46.

562 الأنعام 122.

المشترى فيأخذ مائتين وثمانين سنة ليستكمل الدورة نفسها. ولننظر إلى القمر كيف جعله منيرا مصداقا لقوله تعالى: {تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا} 563، وكيف جعل الشمس سراجا وهاجا {وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَاجًا} 564. ولنقترب إلى كوكبنا ماذا ينتج عن هذه الدورة التي يلفها حول نفسه لنبصر ما نتج عنها الليل والنهار، قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ} 565. في جميع الآيات الواردة بالمبصرين والتساؤلات التي تتضمنها تربط العقل والإدراك والتبيين وذلك لأجل المعرفة عن وعي تام، وفي معظمها تفتين يستهدف العقول والقلوب والأنفس إلى الانتباه بما هو ملاحظ أو مشاهد وقابل للتعرف عليه، أو التعرف به كدليل إثبات لا شك فيه.

قال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ} 566. الذي خلق كل شيء وما ذكر منه في هذه الآية، ألا يكون هو العزيز الغفار؟ وإلا لماذا خلق كل ذلك لو لم يكن عزيزا ولو لم يكن غفارا لمن استغفر وتاب إليه واحدا أحدا لا شريك له. قال تعالى: {يُكَوِّرُ اللَّيْلَ عَلَى النَّهَارِ وَيُكَوِّرُ النَّهَارَ عَلَى اللَّيْلِ} تلاحم واتصال في حركة دائرية غير منفصلة يحمل الليل على النهار ويحمل النهار على الليل فيغشى هذا الآخر، ويغشى الآخر هذا. وما ينتج عن هذا الاختلاف من فائدة كتعاقب الفصول

563 الفرقان 61.

564 النبأ 13.

565 القصص 72.

566 الزمر 5.

الأربعة وما ينتج عن هذه الفصول من معرفة للحساب والأوقات وكل ذلك بتسخير الله تعالى، قال تعالى: {وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتٍ لِّمَنْ أَحْسَنَهُ اللَّهُ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا لِيَتَّبِعُوا مَن لَّيَّسَ لَهُ الْآيَاتُ فَهُمْ لَا يَتَذَكَّرُونَ} 567. آية النهار مبصرة بنور الله وشروق الشمس ووضوح النهار للحركة والعمل، أي سخر الشمس والقمر لعباده، ليعلموا بذلك عدد السنين والحساب، ويعرفوا الليل من النهار لمصلحة معاشهم ولن تجد اختلالا فيها إلى قيام الساعة، وأن لكل واحد منها منزل، لا يعدوه ولا يقصر دونه، وإن الله فعل هذه الأفعال وأنعم على خلقه هذه النعم ليبين للخليفة إنه البصير بأحواله وأمره فليتب مخلصا له الدين مصلحة في الأرض المستخلف فيها وفاعل للخيرات.

وأن يكون بصيرا بكل ما يجري حوله حتى لا يقع في المزللات والمحضورات ولا يفسد في الأرض ولا يسفك الدماء فيها بغير حق.

وإذا ما ركزنا بنظرنا وبصرنا في البر والبحر وتفحصنا الأشياء الصغيرة من فيروسات وبكتيريا وفطريات وطحالب وكيف استطاع العلي القدير أن يجعل منها النافع والضار، فالنافع منها يساعد الإنسان في جوفه على الهضم مثلا وفي الأرض يساعده على تخصيب التربة مثلا. وأما ما كان ضارا فعلى صغر حجمه يستطيع أن يفتك بالجسم الضخم كالفيل أو القوي كالأسد فيجعله كأن لم يكن وكل ذلك بأمره تعالى القادر القهار فقد أرسل على ذلك المتكبر نمrod حشرة ضعيفة تأكل رأسه وهو لا يقوى على الفكك مع ما يدعي من جبروت وعظمة، وإذا ما نظرنا إلى النملة في جحرها كيف تحصل على قوتها بإذنه تعالى الذي يعلم ما في جوفها والدودة في الصخرة

567 الإسرائ 12.

الصماء فلا ينقص من رزقها ويتأخر أجلها كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ {568}. ففي هذه الآية الكريمة أفلا يبصرون؟ ومنها ألا يعرفون بأنه العزيز؟ وإذا ما أدركوا وتابوا ألا يعلمون حقيقة أنه هو الغفار. فما هؤلاء الكفرة والمشركين والضالين والمنحرفين لا يستغفرون ولا يتوبون إليه واحدا واحدا وهم يعلمون عدد السنين والحساب ويعلمون أن ما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها؟

وأما النظر إلى تاريخ الأمم والسابقين ففيه أمر منه تعالى، فقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْذِبِينَ﴾ {569}. وقال تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾ {570}. وهذا الأمر منه تعالى يأمر فيه بالنظر والتبصر في هذه الأرض وأخذ العبرة من السابقين وحتى لا تقع في الذي وقعوا فيه وبما استوجبوا به سخط الله. ولننظر فيما يسر أعيننا سواء في المحسوسات كما في قوله تعالى: ﴿صَفراءَ فاقع لونها تسر الناظرين﴾ {571}. وهذا ما أكده العلم الحديث فقد وجدوا أن العين تسر باللون الأصفر الفاقع، سواء أكان في الأنواع المختلفة من الزهور والأشجار أم كان في التربة والأحجار، وفي غير ذلك من مخلوقاته. أما النظر لما يسر أعيننا في الأشياء الخفية فيجب أن يكون نظرنا ببصيرتنا وأن نرقب الله في أفعالنا وأعمالنا فيكون لزاما علينا أن لا نغتب أحدا ولا نذم أحدا ولا نذكر غيرنا إلا بالخير وإلا فالصمت خير ويجب أن

⁵⁶⁸ هود 6.

⁵⁶⁹ الأنعام 11.

⁵⁷⁰ النمل 69.

⁵⁷¹ البقرة.

لا يكون تفكيرنا إلا بالنظر العميق في مظاهر خلقه تعالى وهذا هو الذي يوصلنا إلى ما يسرنا حقيقة.

أما النظر الذي هو نعمة البصر لدى الإنسان فهو من النعم التي لا يستطيع أحد حصر أو عد نعمائها وفضائلها فالعينان التي نرى بهما جمال الكون وما حواه من نجوم وكواكب والأرض وما حوت من جبال وحيوانات متوحشة وأليفة كبيرة وصغيرة فهي لنعتر ونعمل ما نتقي بهما غضبه وننال بهما رضاه، قال تعالى: { أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ } 572. النظر إلى الكيفية يُمكن من بلوغ الحقيقة ويتوج بالتقوى، ولهذا فلننظر حتى نتمكن من بلوغها.

وحظ خليفته في أرضه أن يحافظ على هذه النعمة وذلك باتباع ما أمر الله به واجتناب ما نهى عنه فلا ينظر بهما إلى محرم أو ممنوع وسواء أكان في البيت أم في الشارع أم في الطريق أم أمام بيته فلا بد من أن يعطي الطريق حقه كما جاء في الحديث الشريف، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - عَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: "إِيَّاكُمْ وَالْجُلُوسَ عَلَى الطُّرُقَاتِ، فَقَالُوا: مَا لَنَا بُدٌّ إِذَا هِيَ مَجَالِسُنَا نَتَحَدَّثُ فِيهَا، قَالَ: فَإِذَا أَبَيْتُمْ إِلَّا الْمَجَالِسَ فَأَعْطُوا الطَّرِيقَ حَقَّهَا"، قَالُوا: وَمَا حَقُّ الطَّرِيقِ؟ قَالَ: "غَضُّ الْبَصَرِ، وَكَفُّ الْأَدَى، وَرَدُّ السَّلَامِ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ" 573.

قال تعالى: { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ

572 الغاشية 17 21.

573 صحيح البخاري، ج 8، ص 351، رقم 2285.

يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ
مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلِّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ
وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ
الْمَصِيرُ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّامًا فَتَرَى
الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ
فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ
بِالْأَبْصَارِ {574}. من يتبصر في معاني هذه الآيات الكريمة وهو من
المستخلفين في الأرض يدرك أن الحق مبصر وإلا لو لم يكن مبصرًا
كيف يمكن أن تنتظم هذه المخلوقات العظام؟ وكيف لها أن تُسبح
وتصلي له، معجزات لا يدركها إلا مبصر. فلا يستضيء الكافر
والمنافق بنور المؤمن كما لا يستضيء الأعمى ببصر البصير {يَوْمَ
يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتِسِبْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ
ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ
الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} {575}. وأمَّا أولئك الذين يخادعون
الله فيما يبصرون فهو خادعهم قال عز جلاله: {رِنَّ الْمُنَافِقِينَ
يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} {576}، فهم عندما يرجعون إلى الموضع
الذي قسم فيه النور فلا يجدون شيئًا فينصرفون إليهم {فَضْرِبَ بَيْنَهُمْ
بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} {577}. وغير
ذلك من نعمه كثير لا يحصى، كما قال تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ
لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} {578}.

574 النور 40 . 43.

575 الحديد 13.

576 لنساء 142.

577 الحديد 31.

578 إبراهيم 34.

والتبصر في آيات الله بالباطن يكون بالإيمان العميق برؤيته العامة التامة فإنه لا يؤمن بأنه رب كل شيء إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ولا يؤمن بتمام رؤيته وكما لها إلا من آمن بأنه على كل شيء قدير، أنه يعلم ما يكون قبل أن يكون ويكتبه وقد يذكره ويخبر به كقوله تعالى: {إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ} 579، فيكون شيئاً في العلم والذكر والكتاب لا في الخارج كما قال تعالى: {إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} 580. وقال تعالى: {وَقَدْ خَلَقْتَكُ مِنْ قَبْلُ وَمَ تَكُ شَيْئًا} 581، أي لم تكن شيئاً في الخارج، وإن كان شيئاً في علمه تعالى، وقال تعالى: {هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} 582، وقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ} 583؛ ردّ على المشبهة، وقوله تعالى: {وهو السميع البصير} 584؛ فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفات الكمال وليس له فيها شبيهه، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير كمستخلف في الأرض بالطاعة فليس سمعه وبصره كسمع الرب وبصره ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيهه إذ صفات المخلوق كما يليق به وصفات الخالق كما يليق به، وللخليفة أن لا ينفي عن الله ما وصف به نفسه وما وصفه به أعرف الخلق برؤيه 585. إن نفيت شيئاً من ذلك كنت كافراً بما أنزل على محمد وإذا وصفته بما وصف به نفسه فلا تشبهه بخلقه فليس كمثلته شيء وهو الواحد القهار وهو الأول والآخر سبحانه.

579 الحج 1.

580 يس 82.

581 مريم 9.

582 الإنسان 1.

583 الشورى 11.

584 الأنعام 115.

585 شرح العقيدة الطحاوية ج 1، ص 143.

قال تعالى: {لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوِّءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى} 586، وقال تعالى: {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} 587، فجعل سبحانه مثل السوء المتضمن للعيوب والنقائص وسلب الكمال لأعدائه المشركين وأوثانهم وأخبر أن المثل الأعلى المتضمن لإثبات الكمال كله لله وحده فمن سلب صفة الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مثل السوء ونفي عنه ما وصف به نفسه من المثل الأعلى هو الكمال المطلق المتضمن للأمور الوجودية والوجودية والمعاني الثبوتية التي كلما كانت أكثر في الموصوف وأكمل كان بها أكمل وأعلى من غيره ولما كانت صفات الرب سبحانه وتعالى أكثر وأكمل كان له المثل الأعلى وكان أحقّ به من كل ما سواه بل يستحيل أن يشترك في المثل الأعلى المطلق اثنان لأنهما يتكافئا من كل وجه لم يكن أحدهما أعلى من الآخر وإن لم يتكافئا فالموصوف به أحدهما وحده فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مثل أو نظير 588.

واسم البصير هو من الأسماء التي وصفها تعالى بكونها حسنى أي حسان وقد بلغت الغاية في الحسن فلا أحسن منها كما يدل عليه من صفات الكمال ونعوت الجلال فأسماءه الدالة على صفاته هي أحسن الأسماء وأكملها فليس في الأسماء أحسن منها ولا يقوم غيرها مقامها وتفسير الاسم منها بغيره ليس تفسيراً بمراد محض بل هو على سبيل التقريب والتفهم فله من كل صفة كمال أحسن اسم وأكمله وأتمه معنى وأبعده وأنزهه عن شائبة نقص فله من صفة الإدراك العليم الخبير دون العالم الفقيه والسميع البصير دون السامع والباصر وكذلك

586 النحل 60.

587 الروم 27.

588 شرح العقيدة الطحاوية ج، 1 ص، 144.

سائر أسماء الله تعالى يجري على نفسه أكملها وأحسنها ولا يقوم غيره مقامه فأسماءه أحسن الأسماء كما أن صفاته أكمل الصفات فلا نعدل عما سمي به نفسه إلى غيره كما لا يتجاوز ما وصف به نفسه ووصفه به رسوله عليه الصلّاة والسّلام إلى ما وصفه به المبطلون ومن هنا يتبين لك خطأ من أطلق عليه اسم الصانع والفاعل والمرّي ونحوها لأن اللفظ الذي أطلقه سبحانه على نفسه وأخبر به عنها أتم من هذا وأكمل وأجل شأنًا فإنه يوصف من كل صفة كمال بأكملها وأجلها وأعلاها فيوصف من الإرادة بأكملها وهو الحكمة وحصول كل ما يريد بإرادته فهو فعّال لما يريد وإرادة اليسر لا العسر فهو يريد بنا اليسر ولا يريد بنا العسر وهو الرّحمن الرّحيم البصير بعباده وبما خلق وبكل أمر لا إله إلا هو عزّ وجلّ⁵⁸⁹.

وقيل هل النظر يبقى أو يزول يوم القيامة؟ فكان الرد في قوله تعالى: {لَقَدْ كُنْتُمْ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكُمْ غِطَاءَكُمْ فَبَصَرُكُمُ الْيَوْمَ حَدِيدٌ}⁵⁹⁰. قوة الإنسان في بصره الذي به يستقرئ ويقرأ الأسطر وما بينها من مضامين ودلائل إعجازية ومعارف وعلوم، فقبل الإيمان يكون الإنسان في غفلة من أمره وبإيمانه يتمكن من معرفة الحقيقة فينتقي الله ربّه. وهكذا كان الحال في الجاهلية غفلة عن الحقّ وبعد الإسلام جاء الحقّ وزهق الباطل بقوة إحقاق الحقّ، فبصرك اليوم حديد بالحجّة الإعجازية من الله ربّ العالمين، ولهذا بالإسلام تمت إزاحة الجهل.

⁵⁸⁹ شرح كتاب التوحيد، ج 1، ص 572.

⁵⁹⁰ ق 22.

قال تعالى: {وَجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ} 591. الوجوه الناضرة هي الوجوه المستبشرة باستخلافها في الأرض، والواثقة ببصيرتها فيما تبصر به وتبصر إليه بأنه قوة في جماله وإعجازه، فلها من الذوق الرفيع الذي يُمكنها من التعلق بالجميل المطلق الذي تنضره، أما نظرها إلى ربّها فهذه تتعلق بالبصر في آياته العظام فترى القمر والشمس والكواكب وكل ما خلق تعالى وهو قابل للمشاهدة، فتنتقل من خلال ما تنظر إليه إلى الكيفية التي بها خلقت الأشياء التي تنظر فيها، كالإبل والجبال والسماء المرفوعة بغير عمد تُرى بالعينين والكيفية التي عليها سطحت الأرض.

ولأنّه ليس كمثله شيء فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار، ولهذا فلخليفة هو من ينظر إلى ربّه يقينا وإعجازا، ولا ينظر إليه مشاهدا، فالمشاهد هو الذي له أمثال وأشكال ويتعدد وهذه ليست من صفات الله تعالى، فسبحانه يرانا ولا نراها وهذه آية تجعل كل ذي عقل يُسلم أمره إليه ويؤمن به واحدا أحدا سبحانه، (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير).

البصير هو الله المهيمن الذي يرانا ويرى كل شيء بالمطلق، وهو المقيت بكل متجزئ من الجزء والكل، وهو الذي يعلم ما لا نعلم، وهو القادر على الفعل والتقدير له في الحركة والسكون، وهو المؤمن الذي آمن أوليائه من خزي الدنيا ووقاهم في الآخرة عذاب الهاوية وآتاهم في هذه الدنيا حسنة وسيحلهم دار المقامة في جنة عالية، وهو العزيز الذي شهد على الخلق بأعمالهم وهو القائم على كل نفس بما كسبت لا تخفي عليه منهم خافية إنه بعباده لحبير بصير ولأنه العزيز الذي لا مغالب له ولا مرام لجنابه الجبار الذي له مطلق الجبروت

591 القيامة 22، 23.

والعظمة وهو الذي يجبر كل كسير ما به وهو المتكبر الذي لا ينبغي الكبرياء إلا له ولا يليق إلا بجنابه، العظمة إزاره والكبرياء رداؤه فمن نازعه صفة منها أحل به الغضب والمقت والتدمير وهو الخالق البارئ المصور لما شاء إذا شاء في أي صورة شاء من أنواع التصوير، {هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ} 592، {مَا خَلَقُكُمْ وَلَا بَعَثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 593. وهو الغفار الذي لو أتاه العبد بقراب الأرض خطايا ثم لقيه لا يشرك به شيئا لأتاه بقرابها مغفرة وهو القهار الذي قضم بسلطان قهره كل مخلوق وقهره، وهو الرزاق الذي لا تنفذ خزائنه ولم يعض ما في يمينه أرأيتم ما أنفق منذ خلق السموات والأرض ماذا نقص من فضله العزيز يرزق كل ذي قوت قوته ثم يدبر ذلك القوت في الأعضاء بحكمته تديرا متقنا محكما يرزق من هذه الدنيا من يشاء من كافر ومسلم أموالا وأولادا وأهلا وخداما ولا يرزق الآخرة إلا أهل توحيد وطاعته قضى ذلك قضاء حتما مبرما وأشرف الأرزاق في هذه الدار ما رزقه عبده على أيدي رسله وخلفائه من أسباب النجاة من الإيمان والعلم والعمل والحكمة وتبيين الهدى المستنير، وهو الفتح الذي يفتح على من يشاء بما يشاء من فضله العميم يفتح على هذا مالا وعلى هذا ملكا وعلى هذا علما وحكمة ولذا فهو البصير العليم الذي يعلم ما لا نعلم سبحانه لا إله إلا هو.

قال تعالى: {ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ} 594، {مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا

592 التغابن 2.

593 لقمان 28.

594 الجمعة 4.

يُمَسِّكُ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ {595، إِنَّهُ عَزَّ
 وَجَلَّ البصير العليم الذي أحاط علمه بجميع المعلومات من ماضٍ
 وآتٍ ظاهرٍ وكامنٍ ومتحركٍ وساكنٍ، وجليلٍ حقيرٍ علمٍ بسابقٍ علمه
 عدد أنفاس خلقه وحركاتهم وسكناتهم وأعمالهم وأرزاقهم وآجالهم ومن
 هو منهم من أهل الجنة ومن هو منهم من أهل النار في العذاب المهين
 وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو يعلم ما في البر والبحر {وَمَا
 تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٌ فِي ظِلْمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٌ وَلَا
 يَأْسٌ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} {596، ما من جبل إلا ويعلم ما في وعره
 ولا بحر إلا ويدري ما في قعره وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه
 وما يعمر من معمر ولا ينقص من عمره إلا في كتاب إن ذلك على
 الله يسير، وهو القابض الباسط فيقبض عمن يشاء رزقه فيقدره عليه
 ويبسطه على من يشاء فيوسع عليه وكذا له القبض والبسط في أعمال
 عباده وقلوبهم كل ذلك إليه إذ هو المتفرد بالإحياء والإماتة والهداية
 والإضلال والإيجاد والإعدام وأنواع التصرف والتدبير الخافض الرافع
 الضار النافع المعطي المانع فلا رافع لمن خفض ولا خافض لمن رفعه
 ولا نافع لمن ضر ولا ضار لمن نفعه ولا مانع لما أعطى ولا معطي لمن
 هو مانع فلو اجتمع أهل السموات السبع والأرضين السبع وما فيهن
 وما بينهما على خفض من هو رافعه أو ضر من هو نافعه أو إعطاء
 من هو مانعه لم يك ذلك في استطاعتهم بواقع، {وَإِنْ يَمَسُّكَ اللَّهُ
 بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمَسُّكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
 قَدِيرٌ} {597، ولذا فإن البصير هو المعزّ المذل الذي أعز أولياءه
 المؤمنين في الدنيا والآخرة وأيدهم بنصره المبين وبراهينه القويمة الظاهرة

595 فاطر 2.

596 الأنعام 59.

597 الأنعام 17.

وأذل أعداءه في الدارين وضرب عليهم الذلة والصغار وجعل عليهم
الدائرة فما لمن والاه وأعزه من مذل وما لمن عاداه وأذله من ولي ولا
نصير وهو السميع البصير لا كسمع ولا بصر أحد وهو القائل لموسى
وهارون: { قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى } 598.

قال تعالى: { ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ
الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ قَدْ جَاءَكُمْ بِصَائِرٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ
فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ } 599.

{ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ }، أي: الذي خلق كل شيء ولا ولد له ولا
صاحبة، لا إله إلا هو خالق كل شيء فاعبُدوه، فاعبدوه وحده لا
شريك له، وأقروا له بالوحدانية، وأنه لا إله إلا هو اللطيف الخبير.

(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار) تعني: لا تلاحقه مطلقاً،
وهو يخلقها ويتحكم في أمرها ولذا فهو مدركها وبالغ أمرها والعليم
بأسرارها وخفاياها والقادر على إظهارها وإخفائها وهي لا تدركه
بشيء فسبحانه هو البصير الذي يدرك الأبصار ولا تدركه الأبصار.
(وهو اللطيف الخبير)، اللطيف: هو من يعلم بكل خافية ويعلم بكل
ظاهر وباطن، (ما تظهره الصدور وما تخفيه) وبلطفه يمهل ولا يهمل
حتى يتيح لمن يراد له أن يكون خليفة أن يكون، ولذا فهو الخبير بكل
أمر، فهو يعلمه ويعرفه ولا تخفي عليه خافية في الأرض ولا في
السموات العلى وما بينهما وما تحت الثرى وهو اللطيف الخبير.

598 طه، 46.

599 الأنعام، 102 . 104.

{قَدْ جَاءَكُمْ بَصَائِرٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، يعني: الحجج البينة التي تدركون بها الهدى. والبصائر: هي البينات التي يُستدل بها على إحقاق الحق وإزهاق الباطل، والحجج التي اشتمل عليها القرآن، وما جاء به الرسول عليه الصلوة والسلام {فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ} مثل قوله تعالى: {مَنْ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا} 600؛ ولهذا قال: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا} أي: فإنما يعود وبال ذلك عليه، كقوله: {فَإِنَّمَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} 601.

والبصائر هي مجموع الحكيم والحجج والدلائل المحسوسة وكذلك الحواس التي بها تتم عمليات الإدراك، كالسمع والبصر واللمس والذوق والشم، والعقل الذي به تتم عمليات المشاهدة والملاحظة من خلال ما يقوم به من ربط للظاهر والباطن. وعليه يتم استخلاف الإنسان ببصائره التي تمكنه من الإدراك الواعي والتمييز الواضح والإقدام على ما يجب في مرضاة البصير المطلق والابتعاد عما لا يرضيه.

البصير هو الذي يدبر الأمر من السماء إلى الأرض عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم مصداقا لقوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِثْقَالُهُ أَثْفَلَسِنَةٍ مَا تَعُدُّونَ ذَلِكَ عَالَمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا

600 الإسرائ 15.

601 الحج، 46.

ما تَشْكُرُونَ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَتُنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ
بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ {602}.

البصير أمره مؤسس على الفعل (كن) والفعل هذا قوته تتجاوز
قوة احتساب الزمان، فهو الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام
إي انه صاحب الأمر لأن تكون السماوات والأرض في ستة أيام،
ولهذا كانت الأيام التي بها الخليفة يعد ما يستطيع عدده من المخلوقات
التي لا تحصى، قال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ} {603}. ولهذا فبديع
السماوات والأرض إذا قضى أمرا يقول له كن فيكون. {بَدِيعُ
السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ} {604}.
ولذا فهو مدبر الأمر من السماء إلى الأرض بقوله (كن). ولذلك فما
يأمر به الله في الزمن (الآن) بالأمر (كن) لو حسبه الإنسان لظنه
بأيامه يساوي ألف يوما، مع أنه سبحانه يجعله كائنا في الزمن (الآن)
الذي بيده أمره.

وما تقدم فإن التعداد الزماني، من حيث الحركة والسكون، من
خلال دوران الكواكب والنجوم، يتعلق بحساب المخلوق ولا يتعلق
بحساب الخالق.

فقوله تعالى: (الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ
مِنْ طِينٍ) لأن له الأسماء الحسنى والأفعال الحسنى فهو بطبيعة الحال
يخلق ما يشاء بالأفعال الحسان، فهو لا يخطئ ولا يغفل ولا ينام ولا
تأخذه سيئه، وهو الحي القيوم، وهو بكل شيء عليم وبصير وقدير

602 السجدة 5 .10.

603 الأعراف، 54.

604 البقرة، 117.

سبحانه الأول والآخر واحد أحد لا شريك له. إنه خالق الأشياء وبدأ خلق الإنسان من الطين في أحسن تقويم، (ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم).

(وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ) ثم بدأت دائرة الاستخلاف تتسع لتصلح الأرض ولا تفسدها ولا تسفك الدماء فيها بغير حق، وهذه من الصفات الحسان التي بها يستخلف الإنسان الذي فيه نفخة من روح الله تعالى، وهذه الروح هي المكون للصفات الحسان التي بها يتم الاستخلاف في الأرض وورثة الجنة. فروح الله هي المكون لصفاته وأفعاله الحسان التي من تجسدت فيه قولاً وفعلاً كانت فيه نفخة من روح الله عز وجل.

(وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) الذي له الصفات الحسان، وخلق الإنسان في أحسن تقويم، هو الذي جعل السمع والأبصار والأفئدة وهي قليل من كثير من فضل الله على الخليفة الشاكر له والحامد له على فضله ونعمائه، والمسيح باسمه في إصلاح الأرض التي خلقه منها في أحسن تقويم.

(وَقَالُوا أَنزَلْنَا فِي الْأَرْضِ أَنبَاءً لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ) الضلال غير الهداية فمن ضل في الأرض أفسد فيها أو سفك الدماء فيها بغير حق، ومن اهتدى كان مؤمناً لله خليفة، ولهذا من يضل في الأرض يخسر الجنة في الآخرة ما يجعله من الخاسرين يوم لقائه ربه ويومها لا ينفعه الندم. ولذا قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسِكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } 605 وقال تعالى: { الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي

الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا
بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ذَلِكَ
جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمَ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُؤًا إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا
وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا خَالِدِينَ فِيهَا لَا
يَبْعُونَ عَنْهَا حِوَلًا {606} وقال تعالى: {وَلَقَدْ ضَلَّ قَبْلَهُمْ أَكْثَرُ
الْأَوَّلِينَ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِمْ مُنذِرِينَ فَأَنْظَرَ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُنذَرِينَ إِلَّا
عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ وَجِئْنَاكَ وَأَهْلَكَ
مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {607}، وقال تعالى: {مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا
غَوَى {608}. سبحانه وتعالى لا يظلم أحدا، فمن اهتدى فإنما
اهتدى لنفسه ومن ضل فعليها وما ربك بظلام للعبيد.

وعليه فمن صفات ذاته تعالى البصر وهو المحيط بجميع المبصرات
إثبات السمع له المحيط بجميع المسموعات له، وهاتان الصفتان هما
مضمون اسميه السميع البصير قال الله عز وجل: {إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ
تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ
إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا {609}، وقال تعالى:
{لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} {610}، وقال تعالى: {ذَلِكَ
بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ
بَصِيرٌ} {611}، وقال تعالى: {قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ

⁶⁰⁶ الكهف، 104 . 108.

⁶⁰⁷ الصافات، 71 . 76.

⁶⁰⁸ النجم، 2.

⁶⁰⁹ النساء 58.

⁶¹⁰ الشورى 11.

⁶¹¹ الحج 16.

وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ {612}. قال ابن جرير ذلك بمعنى المبالغة في المدح كأنه قيل ما أبصره وأسمعه، تأويل الكلام ما أبصر الله لكل موجود ما أسمعه لكل مسموع لا يخفي عليه من ذلك شيء، ثم روى عن قتادة في قوله تعالى أبصر به اسمع: فلا أحد أبصر من الله لا أسمع ولا مجال للمقارنة بين خالق مطلق لا إله إلا هو واحد أحد لا شريك له، وبين مخلوق لا يخرج في امتداده مهما امتد عن دائرة النسبية ذات الحيز المحدود. قال ابن زيد أبصر به وأسمع يرى أعمالهم يسمع ذلك منهم (إنه كان سميعا بصيرا)، وقال البغوي رحمه الله تعالى: أي ما أبصر الله بكل موجود اسمعه لكل مسموع أي: لا يغيب عن سمعه بصره شيء قال تعالى لموسى هارون عليهما الصلاة والسلام: {قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَأَرَى} 613، قال ابن عباس رضي الله عنهما: أسمع دعاءكما فأجيبه، أرى ما يراد بكما فأمنعه لست بغافل عنكما فلا تهتما. قال تعالى لهما في موضع آخر: {قَالَ كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ} 614، وقال تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَىٰ وَرُسُلْنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} 615، وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ} 616، وقال تعالى: {أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى} 617، قال تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ} 618. نحن

612 الكهف 62.

613 طه 64.

614 الشورى 51.

615 الزخرف 08

616 التوبة 501

617 العلق 41.

618 المجادلة 1.

فيما عرضنا من آيات لا نريد إثبات السمع والبصر، بل نريد من ذلك إظهار السمع والبصر المطلق حقّ مطلق، فالبصير هو الله هو كما هو سبحانه وتعالى.

وَرُوِيَ عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي سَفَرٍ فَكُنَّا إِذَا عَلَوْنَا كَبَرْنَا، فَقَالَ: "أَرَبِعُوا عَلَيَّ أَنْفُسَكُمْ". فَإِنَّكُمْ لَا تَدْعُونَ أَصْمًا لَا غَائِبًا تَدْعُونَ سَمِيعًا بَصِيرًا قَرِيبًا ثُمَّ أَتَى عَلِيٌّ أَنْ يَقُولَ فِي نَفْسِي لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ قَيْسٍ قُلْ: لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ فَإِنَّهَا كَنْزٌ مِنْ كَنْزِ الْجَنَّةِ 619. وَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ اجْتَمَعَ عِنْدَ الْبَيْتِ ثَقَفِيَانِ وَقُرَشِيٌّ أَوْ وَقُرَشِيَانِ ثَقَفِيٌّ كَثِيرٌ الشَّحْمِ بَطُونُهُمْ قَلِيلَةُ الْفَهْمِ قُلُوبُهُمْ فَقَالَ أَحَدُهُمْ أَتَرُونَ أَنَّ اللَّهَ يَسْمَعُ مَا نَقُولُ قَالَ الْآخَرُ يَسْمَعُ إِنْ جَهَرْنَا وَلَا يَسْمَعُ إِنْ أَخْفَيْنَا وَقَالَ الْآخَرُ إِنْ كَانَ يَسْمَعُ إِذَا جَهَرْنَا فَإِنَّهُ يَسْمَعُ إِذَا أَخْفَيْنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى {وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ} 620.

الخليفة البصير:

هو عميق البصر والبصيرة، وهو المتمكّن من بلوغ الأشياء والتعرف عليها، وهو الذي يتبيّن الأمر قبل الخوض فيه، وهو المحتكم بما حكم الله، وهو العادل بإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل، إنّه الذي يتعلم ويعلم ويعرف ويتعرف، ثم يقول أو يفعل بعد ذلك، {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَائِمٌ كَثِيرَةٌ

⁶¹⁹ المعارج القبول، ج 1 ص، 235.

⁶²⁰ فصلت 22.

كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنْ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ
 خَبِيرًا {621 وقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ
 فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ وَاعْلَمُوا
 أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ
 حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ
 وَالْعِصْيَانَ أُولَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ {622 هؤلاء هم المبصرون حقًا،
 وهؤلاء هم المستخلفون في الأرض، وهؤلاء هم الوارثون. اللهم إنا بك
 آمنا وعليك توكلنا وأولينا أمرنا وأمر أسرنا وأموالنا وممتلكاتنا وشفاءنا
 إليك فاکرمنا وأجعل لنا قدرا رفيعا وأجعلنا من المحظوظين في الدارين
 وأحفظنا من شرور الحادثات ومن كلّ وسواس خناس من الجنة والناس
 وأفتح علينا وإلينا أبواب رحمتك وأجعلنا من عبادك الطّائعين
 الصّالحين، والحمد لله ربّ العالمين.

ولذا فالخليفة البصير هو الناظر إلى الأشياء بعين الحقّ فلا ينكر
 شيئا ولا يتعجّب من شيء فهو الذي يشهد أفعاله بعلم اليقين
 وصفاته بعين اليقين وذاته بحقّ اليقين فالغائبات له حضور والمستورات
 له كشف.

فالخليفة هو السميع لأوامر ونواهي البصير المطلق وهو الذي في
 نفسه بصير وفي أبنائه بصير وفي زوجه ووالديه بصير، ولمن له حقّ
 عليه بصير، وفي أداء عباداته بصير وفي تقبّله حين ينام وحين يقوم
 بصير، يصلي لله ربّ العالمين؛ فلا يركع ولا يسجد لسواه، يصوم
 ويؤتي ويصدق ويحجّ ويجاهد في سبيل إحقاق الحقّ وإزهاق الباطل،

621 النساء، 94.

622 الحجرات، 6، 7.

وإذا حكم بين الناس يحكم بالعدل في خشيته لله بصير، وفي إدراك آياته بصير.

وعليه فالبصير بالإضافة هو المدرك للبصير المطلق، فهو يعلم أنه خلق له البصر لينظر إلى الآيات وإلى عجائب الملكوت والسموات فلا يكون نظرة إلا عبرة، قيل لعيسى عليه الصلاة والسلام: هل أحد من الخلق مثلك؟ فقال: "من كان نظره، عبرة وصمته، فكرة وكلامه ذكرا، فهو مثلي" 623. ولأن الخليفة بصير فهو الطائع لا العاصي وهو يعلم أن الله عز وجل يراه فيتقيه حق تقاته إيمانا بقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ وَلِتُكِنُّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ هُمُ عَذَابٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ } 624.

623 المقصد الأسنى ج، 1 ص، 91.

624 آل عمران، 102 . 108.

النبي

يعقوب من السنة

يعقوب عليه الصلّاة والسّلام حاله مثل حال الأنبياء جميعا فقد نسب إليه ما لم يكن فيه، فالأنبياء عليهم الصلّاة والسّلام مع أنّهم بشر، ولكنهم المصطفون الأخيار (خير خلق الله)، ولهذا فلا داعي للاستشهاد بما لم يكن لائقا بمن اصطفاهم الله تعالى رسلا له.

فيعقوب عليه السّلام نبيا من أنبياء بني إسرائيل وكان له اثنا عشر ولدا،

ولد يعقوب في فلسطين وشبّ في كنف أبيه إسحاق، يقال أنّه سافر إلى خاله لابان المقيم بأرض حران ليقيم عنده؛ فقام هناك وقد وجد عند خاله ابنتين: فتزوج إحداهما وبعد وفاتها تزوج الأخرى مع العلم هناك رواية أخرى سيتم ذكرها لاحقا.

يعقوب نبي كريم ابن كريم كما وصفه رسول الله عليهم جميعا الصلّاة والسّلام؛ فعن ابن عمّره، عن النبيّ عليه الصلّاة والسّلام أنّه قال: " الْكَرِيمُ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ ابْنُ الْكَرِيمِ يُوسُفُ بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ إِسْحَاقَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِمْ "625

وعن أبي ثنا ابنُ نُفَيْلٍ الْحَرَّانِيُّ ثنا نَصْرُ بْنُ عَرَبِيِّ قَالَ: بَلَغَنِي أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامَ لَمَّا طَالَ حُزْنُهُ عَلَى يُوسُفَ ذَهَبَتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ وَهُوَ كَظِيمٌ جَعَلَ الْعُودَ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِ فَيَقُولُونَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا نَبِيَّ اللَّهِ، كَيْفَ بَجِدُكَ؟ فَيَقُولُ شَيْخٌ كَبِيرٌ، قَدْ ذَهَبَ بَصْرِي فَأَوْحَى اللَّهُ

⁶²⁵ مسند أحمد ط الرسالة، 9، ص 523.

عز وجلّ إِلَيْهِ يَا يَعْقُوبُ شَكَوتِي إِلَى عُوَادِكَ؟ قَالَ: أَيُّ رَبِّ هَذَا دَنْبٌ
عَمِلْتُهُ، لَا أَعُودُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يَزَلْ بعد يقول: أشكوا بَيْتِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ
وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ" 626

وعن يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى، ثنا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يزيد ابن
يُونُسَ بْنِ يَزِيدَ، عَنِ الْحَسَنِ بْنِ الْحَرِّ، عَنْ لَيْثِ بْنِ أَبِي سُلَيْمٍ أَنَّ جَبْرِيلَ
دَخَلَ عَلَى يُوسُفَ فِي السِّجْنِ فَعَرَفَهُ فَقَالَ لَهُ: أَيُّهَا الْمَلِكُ الْكَرِيمُ عَلَى
رَبِّهِ هَلْ لَكَ عِلْمٌ بِيَعْقُوبَ؟ قَالَ: نَعَمْ قَالَ: مَا فَعَلَ؟ قَالَ: ابْيَضت
عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ عَلَيْكَ، قَالَ: فَمَا بَلَغَ مِنْ حُزْنِهِ؟ قَالَ حَزَنَ سَبْعِينَ،
قَالَ: هَلْ لَهُ عَلَى ذَلِكَ مِنْ أَجْرٍ؟ قَالَ نَعَمْ، أَجْرٌ مِائَةَ شَهِيدٍ. "627.

وعليه فإنَّ يعقوبَ محبَّ لأبنائه وعلى الخصوص يوسف عليهم
السَّلام، ولهذا كان حريصا عليهم من المرض والحسد والفتنة، قال
تعالى: ﴿وَقَالَ يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ
مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُمْ مَا كَانَ
يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ
لَدُو عِلْمٍ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ 628 وهنا أخبرنا
عز وجلّ أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلام أمرهم أَنْ يَدْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ
إِشْفَاقًا عَلَيْهِمْ أَمَا مِنْ إِصَابَةِ الْعَيْنِ وَإِمَّا مِنْ تَعَرُّضِ عَدُوٍّ أَوْ مُسْتَرِيبٍ
بِاجْمَاعِهِمْ أَوْ بِبَعْضِ مَا يَخُوفُهُ عَلَيْهِمْ وَهُوَ عَلَيْهِ السَّلام معترفٌ أَنَّ فَعْلَهُ
ذَلِكَ وَأَمْرَهُ إِيَّاهُمْ بِمَا أَمَرَهُمْ بِهِ مِنْ ذَلِكَ لَا يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا
يُرِيدُهُ عَزَّ وَجَلَّ بِهِمْ، وَلَكِنْ لَمَّا كَانَتْ طَبِيعَةُ الْبَشَرِ جَارِيَةً فِي يَعْقُوبَ

626 تفسير ابن أبي حاتم - محققا، 7، 218.

627 تفسير ابن أبي حاتم - محققا، 7، 218.

628 يوسف 67، 68.

عَلَيْهِ السَّلَامُ وَفِي سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ كَمَا قَالَ تَعَالَى حَاكِيَا
 عَنِ الرَّسُلِ أَهْمُ قَالُوا { قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ
 اللَّهَ يُمِئُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا
 بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ } 629. حملهم ذَلِكَ على
 بعض النظر المخفف لحاجة النفس ونزاعها وتوقها إلى سلامة من
 يجب وَإِنْ كَانَ ذَلِكَ لَا يُعْنِي شَيْئًا كَمَا كَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَحِبُّ الْفَالِ
 الْحَسَنَ فَكَانَ يَكُونُ عَلَى هَذَا مَعْنَى الشَّرِكِ وَالشَّرَكَاءِ أَنْ يَكُونَ عَوْدَةً أَوْ
 تَمِيمَةً أَوْ نَحْوَ هَذَا فَكَيْفَ وَلَمْ تَنْزِلِ الْآيَةُ قَطَّ إِلَّا فِي الْكُفَّارِ لَا فِي آدَمَ
 عَلَيْهِ السَّلَامُ 630.

كان ليعقوب اثنا عشر ولداً سمّاهم القرآن الكريم بالأسباط وكان
 أصغرهم سنّاً يوسف عليه السّلام وكان يعقوب عليه السّلام يحوطه
 بالعناية والرّعاية والمحبة، إلا أنّ الشيطان زين للأبناء قتل أخيهم
 يوسف لما رأوا من حبّ أبيهم له ولكنهم أخيراً اكتفوا بالإلقاء في بئر
 بعيدة لتأخذه إحدى القوافل المارة؛ فحزن يعقوب عليه حزناً شديداً
 حتى أصابه العمى من شدّة الحزن، ثمّ ردّ الله إليه بصره وجمع بينه وبين
 ولده. ولكن في كلّ الأحوال فإنّ يعقوب كان متوكّلاً على الله، وهنا
 فمن يتوكّل على الله فهو حسبه مكانة ورفعة وسلاماً وطمأنينة (إِنْ
 الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) أي أنّ يعقوب
 بلا شكّ متوكّل على الله وطلب من أبنائه أن يتوكّلوا على الوكيل
 الأعظم عندما يذهبوا إلى أخيهم يوسف في مصر، وهناك وفي كلّ
 مكان فالوكيل هو الوكيل القادر على جمعهم وعلى كلّ شيء شاءه.

629 إبراهيم 11.

630 الفصل في الملل والأهواء والنحل، 4، ص 4.

ولأنّ يعقوب قد أوكل أمره وأمر يوسف عليهما وعلى كافة الأنبياء والرسل الكرام الصلاة والسلام، كانت الإجابة كما انتظرها يعقوب؛ ذلك لأنّ الوكيل هو "المتولي لتدبير خلقه، بعلمه، وكمال قدرته، وشمول حكمته. الذي تولى أوليائه، فيسرهم لليسرى، وجنبهم العسرى وكفاهم الأمور. فمن اتخذه وكيلا كفاه" 631

الْوَكِيلُ الْكَفِيلُ وَنِعْمَ الْكَفِيلُ بِأَرْزَاقِنَا، وَ(حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ) كَافِنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْكَافِي كَقَوْلِكَ رَازِقَنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الرَّازِقُ، وَالْمَتَوَكِّلُ عَلَى اللَّهِ الَّذِي يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ كَافِلٌ رِزْقَهُ وَأَمْرَهُ فَيَرْكَنُ إِلَيْهِ وَحْدَهُ وَلَا يَتَوَكَّلُ عَلَى غَيْرِهِ، وَقَالَ ابْنُ سَيِّدِهِ: وَكَلَّ بِاللَّهِ وَتَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَاتَّكَلَّ اسْتَسَلَّمَ إِلَيْهِ 632.

فأول ما يقع في نفس المتأمل لهذا الاسم أنه من أسماء الكمال التي تحوي الجمال والجلال الإلهيين في الذات والصفات والأفعال.

فمن الجمال:

الوكيل رحيم بمن وكل أمورهم، حافظ لمصالحهم، دؤوب على راحتهم، مدافع عنمن لجأ إليه، يحل محل الجميع ولا يحل محله أحد.

ومن الجلال:

الوكيل يكفي من انتصر به فلذلك يقول المتوكل عليه عند الشدائد كما قال من أقيم الدين على أكتافهم: {الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ

⁶³¹ شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، ج 1، ص 88.

⁶³² لسان العرب - ج 11، ص 734

إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ {633}.

فماذا تغني قوة العالم أمام قوة من انتصر به وتوكل عليه؟

والله الذي لا إله غيره لا تقدم ولا تؤخر قيد أملة، لأنه يملك جنودا لا حصر لها في العدد، ولا وصف لها في القوة، فليجمع الناس ليرهبوا المتوكل على الوكيل، وما على المتوكل على الوكيل المطلق إلا أن يقول: "حسي الله ونعم الوكيل" نعم أنا المتوكل عليه، الآخذ بأسبابه، المنتصر باعتمادي عليه، لا يخيفني جموع أهل الباطل من مفسدين حاقدين، ولا يرعبني عددهم، فعدهم بدد، وجند ربِّي لي مدد {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 634.

فمن اعتمد عليه أعزه ومن اتخذه وكيلا نصره، فجنوده يملؤون الزمان والمكان، وهو القوي العزيز الذي لا يحتاج لجنود ينصرونه، ولكن على سبيل طمأنة المتوكل عليه حتى لا يدخل قلبه أقل من ذرة شك من أن الوكيل يتركه لتوهم أن الوكيل ينسأه فهو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا بأنه الوكيل ولا يرتابون ولا يقع في قلوبهم الخشية من قوة الظلم مهما أعدّ لأنه ضعيف بتدبيره وعاجز في تفكيره ومهما جمع فهو قليل بجمعه ذليل بما يتوهم أن فيه العز قال تعالى: {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا} 635، فتعالوا يا أهل الذل الذين جمعتم لأهل العز، أجيئوا علينا:

633 السابق، ص 734.

634 -الفتح 7.

635 لسان العرب، ج 11، ص 735.

-هل تعلمون عددا لجنود الوكيل؟

-هل تعلمون مقدارا لقوة جند الوكيل؟

-هل لديكم عزة الوكيل التي يهبها للمتوكل عليه؟

-هل لديكم القدرة في الجمع بين العزة والحكمة كما هو الحال
فيمن نتوكل عليه (وكان الله عزيزا حكيما)؟

إن إجابتكم بالقطع ستكون بالنفي: لا نعلم ... لا نعلم ... لا
نعلم.

أما نحن المتوكلين عليه فنعلم عدد جنوده، فهي فوق العد وخارج
حدود الإحصاء، لذا فنحن مطمئنون بتوكلنا عليه ونعلم أن جنود ربنا
لا يعلم عددها إلا هو. { وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ } 636.

وجند ربنا الوكيل قد ترى، وقد لا ترى فهي متعلقة بقوة الله الذي
لا تدركه الأبصار ولا تحيط بقدرته البصائر، فمن جنده المدركة بصرا
الريح قال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ
جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا } 637

ومن غير المشاهدة:

{ وَجُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا } 638.

فالريح تحس ويرى أثرها في إطفاء النار أو انتشارها أو في نقل
السحاب أو تفرقه وفي نقل اللقاح للثمار أو في خلع الأشجار وهدم
البنائيات أو في تحريك السفن أو في إغراقها، فهي جنود مطيعة تفعل

⁶³⁶ المدثر 31.

⁶³⁷ الأحزاب 9.

⁶³⁸ الأحزاب 9

ما تؤمر فهي للسلام والتعمير وقد ذكرها الله في كتابه فقال:
{فَسَحَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ} {639}.

فالرياح الرخاء من جند الله لنشر الخير ولجلب المسرة في النفوس بم
تتركه من أثر طيب لدى المستفيد منها.

وقد تكون ريح ساكنة ولكنها مدمرة فتمنع حركة السفن في
البحار وتجعل الموج راكدا، فهل من محرك لها من دون الله؟ قال تعالى:
{إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} {640} فجند الله جند مستعدون لأداء ما يطلب
منهم في أي وقت وبأي كيفية وفي أي مكان في الأرض والبحر والجو
لأنه سبحانه المهيم على ملكه الحافظ لمن يتوكل عليه بتسخير
جنوده له كيفما شاء.

ومع فرضية إمكانية النجاة من الريح العاصف والوصول على
البر، فهل النجاة في البر مضمونة؟ بالتأكيد لا، لأن من يملك الريح
في البحر يملك الريح في البر فيرسلها إلى البر فيحدث التصدعات
فيهلك من على البر أو يرميهم بريح حاصب ترميهم بالحصباء أي
بالحجارة، فبالله هل ينفع معها مصدات للريح؟ أو مضادات
للحجارة؟ سؤال إجابته كسابقه!!

فهل يفهم من استخلف في الأرض؟ ويتوجه قلبا وقالبا للوكيل
فيتوكل عليه وينطلق في ركب الخلافة فيكون خليفة لله متوكلا عليه،
أو سيقف متكاسلا خذولا لا يأخذ بالمبادرة في الحفاظ على دوره في

639 ص، 36

640 الشورى 33.

خلافة الله وتعمير الأرض ومحاربة المفسدين مستعينا بالوكيل الذي عنده جنود السماوات والأرض والبحر وما غاب عنا أكثر.

وعليه فالوكيل: هو من يتولى الأمر، وهو من يُرجع الأمر إليه، وهو من يتوكل بأمر من يوليه أمره رعاية وعناية وحسن عاقبة.

والوكيل هو دائما وكيل أمر ووكيل حال، أي وكيل للرعاية والعناية الكاملة، وكذلك وكيل حسن تصرف وفقا لكل حالة وحال ووفقا لكل مكان وزمان سبحانه إنه الملك المتعال.

فمن يقف أمام حركة الكون الطبيعية لا يملك إلا أن يتقهقر وينزوي ويدوب ويذهب أثره، وهذا لا محالة حال من يفسد في الأرض الذي ضلت دعوته وضاعت كلمته وتبدد أثره فلم يجد وكيلا يتوكل عليه فتوجه داعيا للباطل من وثن وصنم، وفكر فاسد لا يضر ولا ينفع، مع العلم الذي لا يرقى إليه شك أن المنجي هو الله الذي ينجيهم برحمته إلى البر قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُم إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا أَفَأَمِنْتُمْ أَنْ يُخَسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وُكَيْلًا أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا﴾⁶⁴¹ وعند النجاة إلى البر هل يتحقق الأمن من خسف؟ أو من ريح حاصب؟ أو الانتصار بأي وكيل غير الله؟

فلا منجي إلا الله ولا وكيل بحق غير الله فهو ينصر من ينصره ويتكفل بمن ألقى إليه همّه وألجأ إليه ظهره فهو بحق نعم الوكيل.

⁶⁴¹ -الإسراء 67-69

ومن جند الله الريح العقيم التي لا تبقي على شيء إلا وجعلته كالرميم الذي لا حياة فيه شيء الشكل كريحه الرائحة وقد سخر إليه هذا الجند على قوم من الظالمين وهي في خزائن ملكه في كتاب جنده تعمل بأمره وتدمر بحكمته وتندفع بمشيئته لنصرة من يتوكل عليه ولتأخذ العبرة من قوم عاد ولتستلهم العظة من قوم تركوا حقهم في الخلافة معتمدين على قوة واهية وجند مغلوبين لا محالة لأنهم وقفوا ضد حركة الكون وإرادة الله في تحقيق الخلافة على الأرض قال تعالى: {وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ مَا تَدْرُ مِنْ شَيْءٍ أَنْتَ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلْتَهُ كَالرِّمِيمِ} 642 وما تزال الريح العقيم موجودة لا يمنعها إلا رحمته، وهي من أدوات الوكيل لنصرة المتوكل عليه.

وحتى لا نطيل على المتتبع لتجليات الاسم الوكيل نقول إن الوكيل يكفي عبده المتوكل عليه من كل معلوم ومجهول وصدق الله في قوله: {أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ} 643 بلى الله كاف عبده في أي وقت، فهو قد كفى آدم عليه الصلاة والسلام وذريته من الخلفاء الذين تحققت فيهم الخلافة وأرادوا الإصلاح في الأرض من إبليس ووعيده بأنه سيحتنك آدم وذريته فيدمرهم ويهلكهم ويقودهم إلى الهلاك وذلك لأن الله قد اختار آدم عليه الصلاة والسلام للخلافة ومن توفرت فيه شروطها من ذريته وأول ما كان من أمر ذلك الاختيار السجود لآدم طاعة لأمر الله وتكريماً للخليفة، فكان طاعة ومعصية، طاعة من المجبولين على الطاعة، ومعصية لمن حقت عليه اللعنة فهدد وتوعد قال تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا

642 الذاريات، 41 - 42

643 الزمر 35.

الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَعْنُ أَخْرَجْنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لِأَخْتِنِكَ ذُرِّيَّتُهُ إِلَّا قَلِيلًا {644} ولكن الله الوكيل من تكفل بآدم وحقه في الخلافة لم يترك مكفوله فصرف عنه الشر متمثلاً في إبليس ومن سار على نهجه، وأذره بجند من جند الله، أذره بالنار التي سيكون لكل معترض على الخلافة والخليفة نصيب وافر من عذابها فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ أَذْهَبَ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْرَزَ مَنْ اسْتَطَاعَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكِهِمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعَدْتُهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا} {645}.

فالغرور من الشيطان الذي يعد المغبون الملعون بسلب الخليفة حقه ومن يدفع طريد الهداية المتسرّب بالضلال المحتمي بالظلم المستتير بالظلام للفساد في الأرض التي أصلحها الله كرماً منه لبني آدم فقال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} {646} فضل الله بني آدم بالخلافة في الأرض على الجن والملائكة الذين كانوا في حضرة السجود وفضلهم على الملعون الذي طرده من رحمة الله غروره وصلفه، وكرمهم بأن تكفل ووكل أمرهم ومنحهم شرف عبادته وكفاهم من سلطان الشر والفساد فقال الله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} {647}.

فلا مجال للوصول بشرّ إلى أهل الخلافة لأنّه لا سلطان لأحد عليهم لأنهم قد آثروا الحقّ على الباطل والعمار على الفساد والخير

644 الإسرائ 61، 62

645 الإسرائ 63، 64

646 الإسرائ 70

647 الإسرائ 65

على الشر وهؤلاء خلاصة العباد أخلصهم لنفسه ووكل أمرهم
واستثناهم دون بني آدم فقال سبحانه وتعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي
لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا
مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْعَاوِينَ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ} 648.

ومن عباد الله المخلصين الأنبياء والصالحين والأولياء ومن كانوا في
خفاء برحمة الله فلا يعلمهم إلا الله مثلهم كمثل اللؤلؤ في الأصداف لا
يُعرفون والله يعرفهم.

وعباد الله المخلصون قد آمنوا بالذكر فذكروا وأخلصوا فأخلصوا
وانتصروا به فانتصروا وغالبوا له فغلبوا به، فوكل الله أمرهم وكفاهم، أما
من تركوا وكالته وابتعدوا عن ذكره فكفروا وسوف يعلمون عاقبة
كفرهم، مع نفاذ إرادة الله في نصر من توكل عليه، وغلبة من اعتمد
على أسبابه، ويوضح السياق القرآني هذا في قول الله تعالى في بيان
حال المبعدين والمخلصين قال تعالى: {لَوْ أَنَّ عِنْدَنَا ذِكْرًا مِنَ الْأُولِينَ
لَكُنَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلِصِينَ فَكَفَرُوا بِهِ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وَلَقَدْ سَبَقَتْ
كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ
الْعَالِيُونَ} 649.

فالمبعدون يتمنون لو أن لهم ذكر من الأولين الذين أخلصهم
الله، ولكنهم لما أتاهم الذكر كفروا به وشككوا في آيات الله، وهم لا
يخفون على الله الذي يعلم ما تخفي الصدور وما تصدر وما يهمس
الخاطر وما يهمهم اللسان فهو العليم البصير، وجزاء هؤلاء المبعدين
نار جهنم فلا يجدون أمنا لأنّ الأمن للمؤمنين الذين آمنوا فأمنوا

648 الحجر 39-43

649 الصافات 168-172

مصدقاً لقوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِنَا لَا يَحْفَظُونَ عَلَيْنَا
أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ
إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ
عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ} 650.

والمخلصون آمنوا بالذكر وبرسل الله عليهم الصلاة والسلام
فكفاهم الله ونصرهم وأمدهم بجنده وجنده منصورون لأن مددهم من
العزير الغالب.

ومما تقدم نقول بفضل الله وتوفيقه إن اسم الله الوكيل له معان
عدة منها:

الأول: المقيم على شئون الخلق.

الثاني: الكفيل برزق العباد.

الثالث: حفيظ لخلقه بتقدير أمر محياهم ومماتهم وبعثهم
ونشورهم وحسابهم.

الرابع: الكافي الذي يكفي عباده هم الدنيا وما فيها وهم
الآخرة وما خفي منها بما لا يعلمه إلا هو.

الخامس: الرب الصاحب المالك الذي لا يملك أمر خلقه أحد
سواه.

والوكيل بالإضافة وهو ما نبحت فيه ونبذل جهدنا لاستجلاء
دور الخليفة لله من خلال التخلق بأسمائه فيأتي بمعنى (المتوكل) الذي

يأخذ بالأسباب متوكلا على ربّه خالقه وخالقها، والمتوكل في الجانب المشرق أو في الجانب الفاعل الإيجابي.

والمتوكل الكسول الذي غرته الأمانى فأخذ إلى الهوى ومال عن طريق الحقّ ففقد نصيبه في الخلافة، هذا المتخاذل في الجانب المظلم الفاسد السلبي.

وسنربط بين الاسم الوكيل وما ورد فيه من معان بين دفتي كتب اللغة والتراث وبين الطرح الذي ننطلق منه وهو تحديد العلاقة بين الاسم والخليفة، وبين الاسم ومن تنازل عن حقّه في الخلافة.

أولاً:

في أسماء الله تعالى الوكيل ما ورد في كتب اللغة وهو:

. "المقيم الكفيل بأرزاق العباد وحقّيقته أنه يستقلُّ بأمر المؤكول إليه وفي التنزيل العزيز: {أَنْ لَا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكِيلًا} 651 قال الفراء: يقال: "ربّا" ويقال: "كافيا" 652. ومن تجلي الله الوكيل إنه مقيم أي قائم على شئون خلقه ومن مظاهر هذا التجلي الآتي:

1- أنه القائم على شئون العباد في أحوالهم كافة برعايته لهم في كل زمان ومكان.

2- هو الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، لأنه لو أخذته السنة أو النوم لما كان مقيماً. ومن لا تأخذه سنة ولا نوم فهو المقيم، ومن تأخذه السنة والنوم فليس بمقيم سبحانه.

3- والمقيم هو المدبر لأمر الخلق بالتساوي في وقت واحد.

⁶⁵¹ الإسرائ 2.

⁶⁵² لسان العرب، ج 11، ص 734

4- والمقيم هو الذي يضع من يشاء على الطريق القويم الذي لا عوج فيه.

5- والمقيم هو القائم على كل نفس بما كسبت مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلُوبًا سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِيْظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلَى زَيْنٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَاقٍ} 653.

الثاني:

- الوكيلُ الحافظ 654.

الثالث:

- والوكيلُ في صفة الله تعالى الذي توكل بالقيام بجميع ما خلق 655.

الرابع:

- الوكيلُ الكفيل ونعم الكفيل بأرزاقنا 656.

وفي قولهم: (حسبنا الله ونعم الوكيل): كافينا الله ونعم الكافي كقولك رازقنا الله ونعم الرازق الوكيل بمعنى الرب 657.

⁶⁵³ الرعد 32- 34

⁶⁵⁴ لسان العرب، ج 11، ص 734

⁶⁵⁵ لسان العرب، ج 11، ص 734

⁶⁵⁶ لسان العرب، ج 11، ص 734

⁶⁵⁷ لسان العرب، ج 11، ص 734

وأول ما يلقانا من معان أن الوكيل مقيم على شؤون الخلق لذا سنطلق العنان في البحث والتفكر في هذا المعنى، فالوكيل المقيم لأنه:

1- الملازم على فعل الشيء بانتظام دون خلل ولا كلل ولا ملل.

ومن أمثلة الانتظام دون كلل أو ملل:

- سقوط المطر في مواسمه إلا إذا منعه الله فهو جند من جنده يُسْتَخْدَمُ رَحْمَةً وَعَذَابًا ثَوَابًا وَعِقَابًا. {اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} 658.

- تسخير الفلك التي تجري في البحر بأمره وبقدرته ولا يجريها إلا جند من جنوده (الريح)، فإذا وثب علينا من يقول: أن هناك المحركات والنفط والطاقة النووية والشمسية فلا حاجة للريح الآن، نقول له وبكل بساطة أيها الظالم لنفسه المغرور بعقله الضال بعلمه إن ما تقول هو من جند الله وقد منحك العقل لتسخيره فلا تدفع بنفسك إلى الهلاك كمن قال: {إِنَّمَا أُوتِيْتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي} 659، لا فهو الذي سخر الفلك والأدوات التي تجريها في كل زمان ومكان {وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِنَّ يَدِيهِ} 660 ويا لروعة النص الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه فيعقب قضية تسخير حركة الفلك بحركة الزمن الذي يعلم من الشمس والقمر.

658 إبراهيم 32.

659 القصص 78

660 إبراهيم 32.

- تسخير الشمس والقمر بصفة مستمرة لا يعترها خلل أو اضطراب فقال الله تعالى: {وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ وَسَحَّرَ لَكُمْ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبِينَ وَسَحَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} 661.

فلأنه الوكيل الذي إليه أمور الخلق فقد خلق السماوات والأرض بالحق لكي يستفيد منها الخليفة في تحقيق الخلافة، وهذه الاستفادة لا بد لها من أدوات تساعد على تسييرها لذا فقد حفظ ماء الحياة في السماوات وينزله بقدر موزون في الوقت الذي يراه مفيدا لخلقه دون تمييز إلا إذا أراد من ذلك الماء أن يغير وظيفته من النفع إلى الضرر لحكمة يعلمها هو عز وجل.

وفي حالتنا هذه فهو الذي ينزل ماء السماء لإخراج كنوز الأرض الزراعية من ثمار وحبوب رزقا لجميع الخلق، وحتى تعم الفائدة سخر الفلك لنقل هذه الثمار من مكان إلى آخر، كما سخر الماء بنوعيه المالح والعذب لمهمة النقل: (وَسَحَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَحَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ) نعم تجري بأمره هو لا بأمرنا نحن لأنه لو أراد أن يعطل حركة الفلك لأوقف الريح التي تسييره ولأوقف الحركة التي أمرها بالمطلق بيده سبحانه لا إله إلا هو مالك الأمر والملك.

والله خلق الأرض وما فيها لغرض تحقيق الخلافة وقد تكفل بنعيم مقيم للذين يتوكلون عليه فلا ينظرون إلى متاع زائل يمنعهم من أداء دورهم السامي وهذا النعيم لا ينفد ولا يزول قد أعده الله للذين على ربهم يتوكلون، والذين على ربهم يتوكلون هم المعتدون عليه في حركتهم وسكونهم وفي صحوتهم ومنامهم وفي حياتهم ومماتهم وفي بعثهم يوم يبعثون، وينبه الله المنوط بهم أمر الخلافة إلى أن متاع الحياة الدنيا لا

661 إبراهيم، 32، 33

قيمة له لذا لم يعقبه بوصف مثل الغرور أو لقليل لأنه أقل من أن يوصف في مقابل نعيم الله فيقول الله تعالى: {فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} 662.

ولله الوكيل القدرة المطلقة على خلقه لأنه قائم وكيل على مصالحهم:

- فهو سبحانه الذي خلق السماوات والأرض.

- خلق الخلق في الأرض ونشرهم في عموم الأرض ولا يفعل ذلك إلا القائم على شؤون الخلق المتصرف في أمورهم الوكيل عليهم بهيمنتته على السماوات وما فيها والأرض وما عليها وما تحويه في باطنها.

- ما يصيب الإنسان من ضرر على الأرض إنما هو من صنع يديه ومن فساده هو ومن كسب يديه لا من النظام الذي وضعه القائم على الخلق الوكيل عليهم وصدق الله إذ يقول: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} 663.

فتقب الأوزون وارتفاع حرارة الأرض والأعاصير والجفاف والجذب وانتشار أمراض ما عرفت من قبل وغير ذلك الكثير والكثير يمكن رده وبسهولة إلى ما كسبت الأيدي الشريفة الآثمة في تدخلها بالفساد في

662 الشورى 36-39

663 41 الروم

الأرض وهذا الفساد هو محك السؤال الذي سألته الملائكة لله سبحانه وتعالى وهو سؤال لا شك للاستفسار لا للاستنكار قال تعالى: {أَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} 664، فالله حين قال: (إذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة) فالخطاب للنبي محمد عليه الصلاة والسلام الذي به ختمت الرسائل وفي رسالته أجمع بلاغ للناس وأوضح بيان، والخطاب فحواه تبليغ الثقلين والملائكة الكرام، بحقيقة الخلافة وهي جعل خليفة في الأرض يخلف الله في تنفيذ أحكامه من أمر بمعروف ونهي عن منكر وإصلاح في الأرض والأخذ على يد كل مفسد وإن كان المفسد من ذرية الخليفة الأول آدم عليه الصلاة والسلام وذلك لأن المفسد قد تنازل عن حقه في الخلافة ببعده عن منهج الحق وتخليه عن الوكالة التي أنيطت به ليؤديها.

والهدف من الخلافة تنفيذ أحكام الله في الأرض وبهذا يكون الوكيل بالإضافة أو المتوكل على الله الوكيل المطلق، وبيان ذلك أنه إذا أخذ منه حق أو قهر من ظالم بالاعتداء أو بالحيلة أو بشهادة الزور فماذا يصنع؟

يتوجه إلى الله بالدعاء بأن يبسر له أخذ حقه، ثم يتوجه للخليفة ليساعده لنيل حقه فإن أعانه ذلك المسؤول فقد حقق الخلافة أما إن أهمله ولم يعنه لأخذ حقه فقد تنازل عن حقه في الخلافة، ومرد كلامنا هذا إلى القول الفصل كلام الله تعالى إذ يوضح تلك القضية مع نبي الله داود عليه الصلاة والسلام فيقول تعالى: {يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ

سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا
يَوْمَ الْحِسَابِ {665}.

يا داود (إنا جعلناك خليفة في الأرض) الخلافة هنا نيابة عن الغير
إما لغيبه المنوب عنه وإما لموته وإما لعجزه وإما لتشريف المستخلف
والمنوب عنه حاضر لا يغيب يختبر ويبتلى الخليفة، وهو حي لا يموت
دائم دواما سرمديا قديما أزليا، قادر مقتدر لا يعجزه شيء، وعلى هذا
فيكون الوكيل المطلق الذي لا يغيب ولا يموت ولا يعجز عن فعل
شيء يكون وكيفا على غائب وميت وعاجز وهذا الإطلاق لله،
والإضافة للخليفة وعلى هذا الرأي الذي نركن إليه استخلف الله
أولياءه في الأرض فالخليفة ينفذ الحكم الإلهي وهو من كان متبعا للنبي
صلى الله عليه وسلم وسنته. والاستخلاف على الملك في الأرض
والحكم فيما بين أهلها بم أمر الله وفق إرادته التي خلق الناس لها.

فالخلافة الحقيقية ليست كسبا للإنسان وإنما هي وهبة من الله
يؤتيها من يشاء كما قال تعالى: (إنا جعلناك خليفة) والجعل هبة
وعطاء لا كسبا وعملا.

- إن استعداد الخلافة مخصوص بالإنسان كما قال تعالى:
(وجعلكم خلائف الأرض) ولا يصل إليها إلا المتوكل على الله الآخذ
بأسباب الخلافة.

وعلى ذلك فقدرة الله المطلقة تحيط بمن يتوكل عليه تشمله
وتكفله وترعاه ولا يستطيع أي خارج عن منهج الله أن يفر أو يخرج
عن إرادته لا بالجدل أو بالفرار، وهنا نعود لما استشهدنا به من قول
الله تعالى في المتاع الذي لا قيمة له والمتاع المقيم الدائم، لنستبين

صفات من المتوكلين على ربهم، فما ملك الناس في الدنيا فهو متاع زائل لأن المتاع الحقيقي يكمن في طاعة الله في الدنيا والفوز برضاه في الآخرة وهذا الفوز خير وأبقى ولا ينال هذا النعيم المقيم إلا المتوكلون على الله فيقول الله تعالى: {وَيَعْلَمَ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِنَا مَا لَهُمْ مِنْ مَحِيصٍ فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ وَالَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ} 666.

وهؤلاء المتوكلون من صفاتهم:

-{الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ}.

-{وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ}.

-{وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ}.

-{وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ}.

-{وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ}.

-{وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ}.

-{وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ}.

ولأنّ هذه صفات المتوكل فهو "يعلم أنّ الله كافٍ رزقه وأمّره
فيركّن إليه وخذّه ولا يتوكّل على غيره"667. وهنا ننطلق إلى الجزئية
التالية التي صدرنا بها البحث في الاسم الوكيل.

المعنى الثاني:

-إن الله وحده الوكيل الذي تكفل برزق العباد.

فهو وكيل وكفيل وضامن لرزق من يتقيه في حركاته وسكناته
وأنفسه وخواطره ونيته وسره وجهره، فيجعل مخرجاً للتقي من كل
ضيق وفرجاً من كل كرب، ويسرا من كل عسر، ويكفيه كفاية شمولية
تبلغ به إلى ما أراد الله من تنفيذ أمر واجتناب نهي، ولأن التوكل عمل
وجهد يعقبه رزق وكفاية فقد جعل الله لكل شيء سبباً دفعاً لعباده
المتوكلين عليه للأخذ بالأسباب فقال الله تعالى: {وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ
لَهُ مَخْرَجًا وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ
إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ قَدْ جَعَلَ اللَّهُ لِكُلِّ شَيْءٍ قَدْرًا}668.

ومنهج الله شمل الزمان والمكان على العموم والإطلاق، فبالإضافة
إلى السياق الأوّل لنزول الآية نقول:

إنّ المتوكل على الله هو الذي يتقي الله في السر والعلن ويكون
جزاء ذلك:

- (يَرْزُقُهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) ومسألة الرزق واسعة، فمن
الرزق ما هو مادي وما هو معنوي، والمادي كما في قوله تعالى:

667 لسان العرب، ج11، ص734

668 الطلاق 2-3

قال الله تعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رِزْقًا قَالُوا هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} {669}، فرزق الدنيا المادي بالعمل والسعي ورزق الآخرة برحمة الله تعالى وهذا الرزق يشبه رزق الدنيا في الاسم لا في الجوهر والحقيقة.

وعلى سبيل المثال قوله تعالى: {إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} {670}.

ودخول الجنة برحمة الله للذين آمنوا وكانوا على ربهم يتوكلون ومن التوكل الأخذ بالأسباب بالعمل الصالح من صلاة وصيام وإنفاق في سبيله بالقول والفعل وبذل النفس لإحقاق الحق وإزهاق الباطل ونشر العدل والسلام والمساواة بين الناس على اختلاف ألوانهم وأجناسهم وأديانهم، ولأن المؤمن قد أخذ بأسباب التوكل فقد نال ما لم ينله المتوكل.

المتوكل: هو الذي غرته الدنيا ونعيمها الزائل فقد أخلد إلى هواه واعتقد من وهمه وضلاله أن الله كما أنعم عليه في الدنيا سينعم عليه في الآخرة وقد تناسى أنه قد فشل في اختبار الخلافة وتنازل عن حقه فيها وهذا هو لب القضية التي خلق من أجلها الإنسان، فيقول ذلك المغرور كما اخبرنا الله جلت قدرته في كتابه: {أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمْ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا كَلَّا سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا وَنَرِيهِ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا

669 البقرة 25.

670 محمد، 12.

فَرَدًّا {671 فالذي كفر بآيات الله ومنها البعث يعتقد أنه سينال الآخرة بما ناله في الدنيا فاغتر بماله وولده ولم يأخذ بأسباب النعيم الدائم فضاع منه شرف الأخذ بأسباب الخلافة في الدنيا وشرف الفوز بثواب الله عنها في الآخرة، "وقد نزلت الآية في العاص بن وائل وكان لحباب بن الأرت عليه مالٌ فاقتضاه فقال: لا حتى تكفرَ بمحمد، قال: لا والله لا أكفرُ به حيا ولا ميتا ولا حين بُعثُ، قال: فإذا بُعث جئني فيكونُ لي ثمةٌ مالٌ وولدٌ فأعطيك"672. فهذا العاص قد اعتمد على ماله وولده ووكّل أمره لهما وهما ليسا له بل عليه لأنهما ابتلاء واختبار، فليعرف من أراد الخلافة هذا فإن المال والولد سببان لشكر الله وتنفيذ منهجه لا للكفر ومعاداة أوليائه وخلفائه الذين يصلحون في الأرض معتمدين عليه آخذين بالأسباب ذاتها لتحقيق الخلافة المثلى على الأرض، ومثل آخر ضربّه الله في كتابه للمؤمن الذي يتوكل على الله وينتصر به، والكافر الذي يعتمد على الهوى والغرور ولا ينتصر بالله لأنه لم يتخذة وكيلا قال الله تعالى: {وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زُرْعًا كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَّرْنَا خِلَافَهُمَا نَهْرًا وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفْرًا وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَى رَبِّي لِأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا {673.

671 مرم، 77-80.

672 تفسير أبي السعود، ج 4، ص 328

673 الكهف 32. 38.

فرجل مغرور بماله قد أعطاه الله له للاختبار فكفر برّبه وظن ظن
السوء بأنه لن يزول ناسيا قدرة الله عليه وأنه خلقه من نطفة لا قيمة
لها وسواه رجلا ليعرف طريق الهداية ولكنه ضل بمال ليس له وبقوة
ليست منه وغرته أوهامه بأنه سينال عند الله ما ناله في الدنيا بالرغم
من صلفه وعنته وكفره، فهذا حال من أحوال المتواكل المغرور بالقوّة
الفانية من مال وولد، أما المؤمن المتوكل على الله فقد أيقن أن الله هو
الرازق المانح الكفيل بأن ينعم في الآخرة كما أنعم في الدنيا إن شكر
الإنسان وأقر بأن المنعم المتفضل هو الله، فلا يكفر الخليفة برّبه ويرد
ما لديه من قوة إلى المصدر الأول لها ولا يغتر ولا يفتخر ولا يتعالى بل
يزداد توكلا على الله سبحانه وتعالى.

وفي الحقيقة فإن الكافر لا متعة له لأنه يتمتع متعة حيوانية مثل
الأنعام وهو بذلك قد اختار متعة زائلة عن نعيم مقيم يقول الله تعالى:
{وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى
لَهُمْ} 674.

وما أشد الفرق بين المؤمن والكافر، بين المتوكل والمتواكل، بين
الذي على بينة من ربه وهدى ونور وبين الذي على الضلال واتبع
سوء عمله مصداقا لقوله تعالى: {أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ
زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ} 675.

فالذي على الهدى هو الذي أخذ بأسباب الهداية وعمل للنعيم
المقيم وتوكل على الله فجراه الله برحمته النعيم الدائم الذي لا يحول ولا
يزول وقد ضربت الله لذلك النعيم مثلا على سبيل التقريب لا على

674 - محمد، 12

675 محمد، 14

سبيل الوصف المماثل، ثم أردف بالتعجب من حال الكافر الذي سيخلد في النار ولا يشرب إلا الماء الحميم الذي يقطع الأمعاء، فقال عز وجل: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنهَارٌ مِنْ حَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} 676

وما سبق من أمثلة الرزق المادي والمعنوي الذي يرزقه الله للمتوكل، ويعتبر به المتوكل الذي يسعى للمتعة الحيوانية ولا يأخذ بأسباب الرزق الحقيقي الذي يحفظ الجسم للتعمير والإصلاح ويسمو بالروح إلى الملاء الأعلى، وهذا ما يسعى له الخليفة السمو بالروح والسمو بالجنس الإنساني من البهيمية الحيوانية إلى الروحانية المتمثلة في أن يكون خليفة في الأرض ولا فض الله فاه القائل:

إني أسوم الروح إلى ملاء علا... غيري يسوق بهيمة الأنعام 677.

فالخليفة هدفه السمو بالروح إلى المعاني السامية والأغراض النبيلة ومما لا شك فيه أن من تلك المعاني السامية والأغراض النبيلة تحقيق الخلافة من تعمير وإصلاح وبناء وتعليم وزراعة وكفاية لحقوق من كرمهم الله وأراد أن يكونوا خلفاء وهذا من الرزق المادي الذي يعد أساساً من أسس السمو بالروح.

وغير الخليفة من الذين يتمتعون ويلهون متعة بهيمية ويلهون هوا حيوانيا يسوقون أجسادهم لمتعة زائلة كما تساق البهائم من الأنعام.

676 - محمد، 15

677 ديوان الإمام فخر الدين البرهاني، ص 76

والرزق المادي في الدنيا غير مرفوض ولا يُنْهَى عن الأخذ بأسباب استخراجِه ولكن المهم في كيفية الانتفاع به واستخدامه وهذا دور الخليفة الذي يدعو إلى أخذ الأسباب من توكل على الله والعمل والكد باستخراج ما في الأرض من خيرات.

ومن التوكل على الله الجمع بين الصبر والتوكل فيكون ضمان الرزق من الله قال تعالى: {الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ} وَكَأَيُّنَ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} 678.

فقد ذكر الله الصبر والتوكل وفي الأمرين استغراق للزمن الماضي والحاضر والمستقبل، فالماضي لا ندركه ولا قدرة لنا على استرجاعه والعمل فيه ولا يؤمر الإنسان فيه بشيء، فبقي الحاضر ويصلح معه الصبر وبقي المستقبل ويصلح معه التوكيل، ومن هنا فالخليفة يصبر على ما يصيبه من الأذى في الحاضر، ويتوكل على الله فيما يحتاج إليه في المستقبل، ولأجل ذلك علينا أن نتوقف قليلا عند الزمن الذي يحتوي في تقسيماته الماضي والحاضر والمستقبل لنتبين الأمر، ولنتبين ذلك الأمر علينا بالتوقف عند (الآن) التي هي المكون الرابط في كل زمان.

يقول ابن سينا: (الآن) هو دائما وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله) 679. فالآن كالعلامة على الزمان ويشار به إلى الوقت الحاضر الذي يربط الزمنين الماضي والمستقبل اللذين هما الآخرين علامتين على الزمان، والزمان متصل غير منفصل، أمّا الوقت الذي هو المتكون من الماضي والحاضر والمستقبل فمتجزئ بأحداثه،

678 العنكبوت، 59، 60

679 إبراهيم العاتي، الزمان في الفكر الإسلامي، بيروت، الطبعة الأولى، دار المنتخب العربي،

1993م، ص 183.

وعندما نقول الزمان في تشبيهه كالحبل على البكرة، فالذي تم سبحه منه أصبح في الوقت الماضي، وما هو على البكرة هو في وقت الآن، وما لم يسحب بعد يقع في الوقت المستقبل، ولهذا تجزأ الوقت ولم يتجزأ الحبل (الزمان) فالحبل متصل لأنه حبل واحد، أما الوقت فلم يكن واحداً.

الآن إذا هو الظاهر في الحاضر، والكامن في الماضي، والمتناهي في المستقبل.

الآن البداية:

هو الذي لم يكن كما قال عنه ابن سينا (الآن دائماً وصل بين قبل وبعد)680، بل الآن البداية هو بداية التوأم (الزمان والحركة) فلا زمان إلا من بعده ولا حركة إلا من بعده، ولا حياة إلا من بعده، وذلك لعدم وجود ماضٍ سابق على وجوده، ولهذا الآن البداية هو دائماً بداية لما بعده.

الآن الأوسط:

هو الذي ينطبق عليه ما قاله ابن سينا بأنه (دائماً وصل بين قبل وبعد، وهو قبل ما بعده، وبعد ما قبله)، ولكن ليس بالضرورة أن يكون هو الوسط الحسابي بحيث تتعادل أطرافه، فإذا اعتبرنا الآن في هذا اليوم نقطة وصل بين الماضي من البداية، والمستقبل إلى النهاية، فهل نحن متأكدون بأن ما قضيناه من الزمان يساوي ما تبقى منه؟

الآن النهاية:

⁶⁸⁰ المرجع السابق 183.

هو دائما بعد ما قبله، وليس وصل بين قبل وبعده، فإذا كان للحجرة باب، فالآن هو المفتاح الذي أُفقلت به الحجرة. ولهذا الآن النهاية هو دائما نهاية لما قبله.

الآن الماضي:

هو المستوعب للتجارب التي وقعت أو التي حدثت بموجبها وسالبتها، وهو الذي يكتمل بعد حدوث الفعل أو الانتهاء من التجربة، ويتصل مع كل حاضر بالنقطة الآن. الماضي هو الوقت الذي سجلت فيه الأحداث والأفعال والتجارب في الزمان والحركة، وهو القابل للاستدعاء كأحداث وغير قابل للاستدعاء كزمان وحركة، والسبب هو الأفعال الماضية إلى جانب كونها تسجل في الزمان والحركة، فهي أيضا تسجل في العقول المدركة التي عندما تتحاور بالأسلوب العلمي تتمكن من أن تستدعي ما سجل لديها من مخزون الماضي. أما الزمان الماضي والحركة الماضية فلا يمكن استدعاؤهما مع الأحداث الماضية إلا كمواقيت ودلائل لتسجيل الأحداث والمواقف والمواضيع والظواهر، ولذلك لا يمكن استدعاؤهما مجردين مع أنهما يتكرران وفقا للدورة الفلكية المنتظمة. ولذلك نلاحظ تكرار الزمان والحركة، ونلاحظ اختلاف المحتوى، بمعنى أن اليوم يتكرر كل أربع وعشرين ساعة، ولكن مضمون اليوم ومحتواه قد لا يتكرر، فعلى سبيل المثال: قد نجد اليوم درجة الحرارة أكثر أو أقل من حرارة يوم أمس، أو أنها أكثر أو أقل من حرارة اليوم المماثل لهذا اليوم من العام الماضي، مع أن هذا اليوم يماثل يوم العام الماضي من حيث الزمان والحركة، ولهذا يختلف المضمون والمحتوى لكل وقت سواء من حيث الكم أو الكيف، ولكن بالنسبة إلى الحركة الذاتية والزمان الذاتي لا يختلفان بين هذا اليوم ويوم العام الماضي، فيوم 23 يوليو من هذا العام لا يختلف

عن يوم 23 يوليو من العام الماضي، باعتباره أطول أيام السنة نهاراً، ولكن من حيث المضمون والمحتوى فقد لا يكون بينهما تماثل، وهكذا يكون يوم الفاتح من سبتمبر من هذا العام لا يختلف عن يوم الفاتح من سبتمبر من العام القادم من حيث الزمان والحركة. إذا الماضي كأعمال لها مضمون ومحتوى يمكن استدعاؤها في الوقت الآن، والآن هو لحظة بداية ولحظة نهاية، ولهذا يقع الآن في الزمان كما يقع الزمان في الحركة، فلا حركة بدون الآن، ولا الآن بدون زمان، فالماضي لا يبدأ إلاّ به ولا ينتهي بغيره (بغير الآن)، وهكذا الحاضر هو الآخر بدايته الآن ونهايته الآن، وكل مستقبل لا يكون إلاّ به، فهو أمر البداية والنهاية، فسبحان ربّي إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، ولذلك قال الله تعالى: {وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظُنُّمْ رَبُّكَ أَخَدًا} 681 فالأعمال التي وقعت في الماضي ستكون في المستقبل كما هي أمام مرتكبيها، ولهذا استدعاء الماضي ممكن، ولكن إعادة الزمان والحركة بالنسبة إلى المخلوقات غير ممكنة.

الآن المستقبل:

المستقبل هو الوقت المنتظر الذي يحتوي على الآمال وهو غير قابل للتذكر ولكنه قابل للتفكر، والتفكر لا يهتم باستدعاء المعلومات الجاهزة، بل هو المتطلع إلى ما هو متوقع، نتيجة استنتاجه واستقراءه لمضمون الماضي الذي تكمن فيه المعلومات والتجارب وتتراكم فيه الخبرة، ولذلك يستمد المستقبل تطوره وتجديده من الماضي الذي يرتبط به في الآن، ولذلك تتداخل المعلومات كما يتداخل الزمان مع الحركة، ممّا يجعل الحياة نسيج الأفعال في الزمان والحركة، فلا زمان بلا حركة، ولا حركة بلا زمان ولا حياة بدونهما.

⁶⁸¹ الكهف، 49.

المستقبل لا يحصى، وذلك لعدم تسجيله بعد في سجلات التاريخ، مع أنه مسجل كوقت في الزمان والحركة، ولهذا سيأتي بالقوة الفاعلة من خلال قوة الزمان والحركة الفلكية، فيما أن اليوم قد دخل والحركة مستمرة إلى النهاية مع الزمان، فبالضرورة سيأتي غد لا محالة، وغدا قد يكون نهاية لما سبق وقد يكون استمرارا له، وهذه بالنسبة إلينا غير معلومة مع أنها متوقعة.

المستقبل هو الذي سيأتي بعد كتابة هذه الكلمة في حالة مواصلي الكتابة، وهو الفكرة التي ستأتي بعد ما أفكر فيه، وهو الزمان الذي فيه طموحاتنا وما نتوقع، والذي من أجله نتنفس، ونشرب، ونأكل، ونفكر، ونتعلم، ونعمل، ونتصدق، ونصلي، ونحب، ونتزوج، ونُدَّخر وفق حاجاتنا، ونؤمن على أرواحنا وممتلكاتنا، ونخاف، وهو نهاية البداية وثبات الحركة، وعليه كل حركة من أجل المستقبل.

تتحرك الأرض والكواكب والنجوم بالأمس، فكان اليوم، وتستمر في حركتها من أجل أن يأتي غدا، وهكذا تكون الحركة إلى النهاية، وعندما تأتي النهاية يكون الثبات، وإذا كانت الحركة تتضمن وجود طاقة، فإن المستقبل يتضمن زمان ومجال توليدها، وهكذا تستمر الحركة والمستقبل، فلا حركة إلا للمستقبل، ولا مستقبل بدون حركة، ومنهما يحدث التغيير، سلبا أو إيجابا.

يتكوّن كل من المستقبل والحركة من زمان، وفعل (محتوى ومضمون). وعليه لا يمكن أن يتحقق المستقبل بدون زمان وفعل، ولا يمكن أن تكون الحركة بدون زمان وفعل، وعندما تصل الحركة إلى لحظة النهاية، يكون العدم، وينتهي المستقبل بالنسبة إليها مادامت في حالة عدم، وعليه يستمر المستقبل كلما كانت هناك حركة، وتستمر الحركة كلما كان هناك مستقبل.

ولو لم يكن هناك مستقبل ما كان هناك أمل، ولا أمان، وما فكرنا فيما ينبغي أن نفكر فيه وهو ما يشغلنا. وبناء على ذلك ينبغي أن تكون مناهجنا مستقبلية، لكي نعرف من نحن، وما يجب علينا القيام به، ونعرف من أجل ماذا نفكر، ومن أجل ماذا نتعلم؟ ومن أجل ماذا ندرس، ونحلل، ونعالج؟ ولماذا طرحت هذه الأسئلة؟ وهل ينبغي أن يتجاوز تفكيرنا الزمان، أم يقتصر عليه؟ إذا كانت الإجابة بتجاوزه فإننا نفكر، وإذا كانت بالاقصرار عليه فإننا نتذكر ومنتظر، نتذكر الماضي، ومنتظر حتى يأتي الغد في لحظة الآن المستقبلية، أي نعطل قدراتنا ومواهبنا ولا نفكر، لأن الغد لم يأت بعد. كل هذه وتلك الأمثال تجعلنا كما قال تعالى: {وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون} 682، ويقول تعالى: {وَأْتَلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْعَاوِينَ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلَ عَلَيْهِ يَلْهَثُ أَوْ تَتْرَكُهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقُصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسُهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِي وَمَنْ يُضِلِلْ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ} 683.

المستقبل يكمن في الزمان والحركة كما تكمن الشجرة في البذرة، مما يجعل الشجرة تكمن في الزمان المستقبل في البذرة الآن، مع أن هذه البذرة كانت في الماضي من الشجرة، وعندما تصبح البذرة شجرة مثمرة تكون البذرة في الماضي، وتكون الشجرة في الآن، وتكون الثمار في المستقبل. وهكذا في التقاء الأحبة الآن بين الحيوان المذكور مع

⁶⁸² الحشر، 21.

⁶⁸³ الأعراف، 175. 178.

البويضة يكمن المستقبل الذي تكمن فيه هو الآخر معاني الأمومة والأبوة والأخوة بين البشر عندما تأتي الآن المستقبلية في وقت النضج العقلي والعاطفي والوجداني للبشر من مرحلة الطفولة المبكرة إلى مرحلة الشيخوخة المتأخرة.

إنّ ما وقع في الآن الماضي سيكون بالضرورة حاضرا في الآن المستقبل، ولهذا لا يمكن أن يكون الماضي ولا المستقبل إلاّ في الآن، فالمؤمن الذي يعمل صالحا في دنياه يعمل في حقيقة الأمر من أجل المستقبل، ومستقبله سواء أكان سالبا أو موجبا، هو ما كان له حاضرا في الماضي. إذن الماضي كأحداث وأفعال سيكون حاضرا في المستقبل (الحاضر المستمر) ويُسأل صاحبه عليه حتى يعاقب أو يجازي به، فيقول الله تعالى في سورة الأعراف: ﴿يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تودّ لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد﴾ 684.

تؤكد هذه الآية على أنّ كل عمل ماض هو من أجل المستقبل، وهكذا عمل الحاضر الذي هو الآخر سيقع في الزمان الماضي إلى أن يجد نفسه في الزمن المستقبل، وذلك لأنّه لم يكن من أجل الماضي، بل أنّه العمل الذي قد تم من أجل المستقبل، ولذلك يكون الماضي كالحزينة المملوءة التي لم تفتح بعد الفتحة النهائية، بل إنّها في الحياة الدنيا لا تفتح إلا بمقدار استدعاء المعلومات التي يمكن أن تفيد في صنع تاريخ قريب، ولهذا ينبغي أن نعمل في حاضرننا خيرا لكي يكون لنا مستقبلا خيرا. وكل الأعمال التي تقع في الزمن الآن تسمى في الماضي وتصبح على خير المستقبل، وحتى إن نسيها أصحابها فلا يضيع منها شيء بالنسبة إلى سجل الزمان والحركة، ﴿يوم يبعثهم الله

684 آل عمران 30.

جميعا فينبئهم بما عملوا أحصه الله ونسوه والله على كل شيء شهيد {685}. تؤكد هذه الآية على أن كل شيء وجد يمكن إحصاؤه، ولكن لقصور القدرات البشرية عن ذلك عجزت عن إحصائه مع أنه محصى من قبل الخالق عز وجل، ولهذا كل عمل قد حدث سيكون حاضرا في المستقبل لتتم المسألة ويتحقق له الجزاء.

الوقت منتظم في الزمان كانتظام حبات المسبحة في خيطها، وبالتالي يمكن التعرف على الأوقات وحصرها وعدّها، ولكنه من غير الممكن عد الزمان، فعندما تعد واحدة من حبات المسبحة المتكونة من المائة حبة تصبح هذه الأولى في الماضي، وتكون الحبة الثانية الواقعة بين أصابعك في الآن، وتكون 98 مفردة واقعة في المستقبل، ولكن إذا قررت أن تكرر التسبيح أو عد حبات المسبحة أكثر من مرة واحدة، تكون الحبة التي وقعت في الزمان الماضي هي الأخرى واقعة في المستقبل وذلك لأنها هي الأخرى سيتم عدّها أو التسبيح بها مرة ثانية، وفي هذه الحالة لن يكون عدد الحبات المتبقية للتسبيح كما سبق وأن ذكرنا هي 98 مفردة، بل يكون عدد الحبات المتبقية 99 مفردة، وعلى هذا النحو يكون عدد الحبات في جميع الدورات هو 99 مفردة عندما تكون الاستمرارية في التسبيح على أن تكون في كل دورة تسبيحية حبة واحدة في الآن بين الأصابع، ولا يكون العد التناقصي إلى الصفر إلا في الدورة التسبيحية الأخيرة، وعليه كل الماضي هو واقع في المستقبل المعلوم بما أنه سيكون حاضرا، مصداقا لقوله تعالى في سورة آل عمران: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوءٍ تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه والله رءوف بالعباد).

إذا كل ما قمنا به من أعمال سيكون حاضرا في المستقبل ونكون نحن مساءلين عنه، ولهذا لن ينتهي الماضي بعد، لأن نهايته هي في الآن المستقبلية وليست في الآن الماضية التي كنا نعتقد بأنها النهاية. ويكون قولنا إن الزمان كالحيط والأوقات منظومة عليه كحبات المسبحة هو المثال القريب لتوضيح أحداث الماضي التي وقعت في الآن الحاضرة وأصبحت في الماضي وفق دورة الحركة والزمان فلكيا. وستكون جميعها في المستقبل قبل المساءلة والمراجعة، وتكون بالضرورة في المستقبل عند بدء المراجعة، وكل حاضر منها سيكون هو الآخر في الماضي بعد إتمام عملية المراجعة أو المساءلة. فعند دراسة الحالات الفردية من الناحية السلوكية والاجتماعية والصحية. تتطلب بالضرورة مراجعة سجل الماضي الذي يتعلق بالحالة، والذي يتضمن الأحداث والأفعال والظروف التي أثرت في السلوك أو أثرت في الحالة الصحية، أي دراسة الماضي لمعرفة الأسباب والعلل التي تحتويها الحالة مما يجعل هذه الحالة بالنسبة إلى الباحث أو الأخصائي قبل بدء الدراسة هي في المستقبل، وفي أثناء التشخيص والتحليل تكون في الحاضر، وبعد العلاج تصبح الحالة في الماضي.

ومع أنّ الزمان لم يكن له شكل ولا صورة كما هو حال الأجسام الأخرى المتحركة، إلاّ أنه هو الآخر في حالة حركة، يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربّكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ 686. ولو لم يكن هناك ليل ونهار ما كانت الأيام ولا كانت الشهور ولا السنون والدهور، ولا كانت هناك حركة، أي لم يكن لدينا ما نعد من الزمان ونحن على سطح الأرض،

686 الإسراء 12.

أما رواد الفضاء عندما يخرجون عن قوانين حركة الأرض فقد تناسبهم مقاييس فيزيائية أخرى لا تعتمد على حركة الأرض، ولذلك لم يقل الله عزّ وجلّ لتعلموا عدد الزمان بل قال: {لتعلموا عدد السنين}، ولهذا قلنا الزمان والحركة لا يعدان، بل الذي يعد هو المتحرك الأرض والقمر والشمس وبقية الكواكب كل في فلكه، وهذه جميعها قابلة للمشاهدة والملاحظة، وهكذا حال الليل والنهار والفجر والمغرب كمواقيت تشاهد وتلحظ وبالتالي فهي تعد. والفارق بين الأجسام والمواقيت هو أن الأجسام قابلة للمس المادي، أما المواقيت الزمنية كالليل والنهار والفجر فلا يمكن لمسها ماديا، ولهذا من الممكن الاحتفاظ بشيء ما من الأجسام المادية كالأهلة والساعات الذرية في قوارير المعامل والمختبرات، ولا يمكن الاحتفاظ بشيء ما من المواقيت الزمنية في قوارير المعامل والمختبرات. وعليه لو لم يكن الزمان في حالة حركة ما كان الليل والنهار، وما كان الفجر والمغرب، وما عرفنا عدد السنين والحساب، وما عرفنا الوقت الذي تستغرقه الكواكب والنجوم والأجسام في حركتها الذاتية في مجال فلكها الذي تسبح فيه أو تمتد إليه.

والحركة والزمان شيان لا يمكن مشاهدتهما مع أنهما يلاحظان بسهولة ويسر، فالذي يشاهد هو المتحرك وليست الحركة، الكواكب تُلمس وتشاهد وتلحظ حركتها، أما الليل والنهار والفجر والمغرب فمع أنها تشاهد وتلحظ إلا أنها لا تُلمس، ومع ذلك كل ما يشاهد يعد حتى لو لم يُلمس كالليل والنهار، وذلك لأن لكل منهما بداية ونهاية يمكن رصدهما وتحليلهما وتسجيلهما.

الحركة والزمان كما سبق وأن وضحنا لا يمكن مشاهدتهما ولا لمسهما ولا ذوقهما ولا شمهما مع أنهما يلحظان، ولذلك يمكننا

التمييز بين الحركة والمتحرك، وبين الحركة والامتداد. فالامتداد هو مجال حركة الجسم أو الشكل، فالمثلث هو امتداد بين نقاط زواياه الثلاث، ولو لم يحدث بينها امتداد ما كان للمثلث صورة أو شكل متصل، وهكذا مجال تكوين الشكل الدائري أو الرباعي أو أي شكل من الأشكال الهندسية، فالامتداد يكون في تكوين الشكل وفي تحديد اتجاه حركة الشكل، كاتجاه حركة الأرض في دورانها حول نفسها، ودورانها حول الشمس، فهي لا تمتد إلا في مجالها الفلكي، ولهذا فالامتداد هو الذي يرسم شكل الدائرة، أما الحركة فهي الطاقة التي بها يمتد المتحرك سواء أكان المتحرك قلما لرسم مستقيم أو منحنى أو أي شكل، أو حركة كوكب، أو حركة كائن من الكائنات.

الزّمان والحركة متناهيان حيث أنهما محصوران بين قوة الأوّل والآخر الذي خلقهما وجعل لهما امتدادا، ولذلك فهما المخلوقان في الآن والمكان الواحد، ممّا يجعل لهما أجلا واحدا (نهاية واحدة) ولو لم نؤمن بأنّ الزمان متناه فكيف نؤمن إذا باليوم الآخر؟ فالיום الآخر هو الذي لا يكون فيه الليل والنهار والفجر والمغرب (المعروفات) في حساباتنا، والتي بها تعد أيامنا وشهورنا وأعوامنا ودهورنا، والتي جميعها ستنتهي ليكون اليوم الآخر، واليوم الآخر هو الذي لم يكن مثل يومنا هذا الذي نعرفه، ولأنّّه الآخر فهو المختلف بالضرورة عما عرفناه في يومنا الأوّل. وبما أنّ للزمان بداية وللحركة بداية إذا ممّا لا شك فيه ستكون لهما نهاية.

حركة الزمان تماثل حركة الأجسام في قوتها وانتظام سرعتها، ولهذا تنتظم حركة المواقيت وتتزامن مع حركة الكواكب، فلا يأتي الليل مرتين في اليوم الواحد، ولا تتأخر حركة الأرض عن ميقاتها ومكانها ليتأخر الشروق عن النهار ويتضاعف زمن الليل، بل الكل في فلك يسبحون

وفق سرعة ثابتة ومدارات ثابتة. فالיום هو اليوم في كل دورة للأرض حول نفسها وحول الشمس، وذلك اليوم من العام الماضي لا يختلف عن هذا اليوم الذي يماثله من عامنا هذا، الاختلاف بينهما في المحتوى الذي تتضمنه الأيام، فمحتوى هذا اليوم قد لا يماثل محتوى العام الماضي من حيث درجة حرارته أو برودته أو من حيث الأحداث التي وقعت فيه، وعليه زمن اليوم لا يختلف وفق كل دورة سنوية، والمحتوى اليومي مختلف بين الحين والآخر، فالיום الذي ولد فيه محمد رسول الله عليه الصلاة والسلام هو اليوم الذي توفي فيه، ولذلك قلنا اليوم واحد والمحتوى مختلف.

الزمان دائرة متصلة يتواجد فيها الماضي جنبا إلى جنب مع الحاضر والمستقبل، ولو عُدنا إلى الماضي البعيد إلى أن نصل إلى النقطة الآن فلا نجد ماضيا على الإطلاق، بل نجد الاثنين معا الآن والمستقبل، ولا نجد الماضي، وذلك لعدم تكوّنه بعد، وبعد أن قُضيت الآن أصبحت ماضيا وحدها، وكل ما عداها مستقبل، ولهذا كان المستقبل هو الأكثر والأوفر الذي لا يقارن بأي وقت آخر، لا بالماضي الذي في تعداده إلاّ الآن الواحدة، ولا بالحاضر الذي لا يمتلك إلاّ اللحظة الآنية، وعليه بداية الحياة مستقبل ونهايتها مستقبل، فالمستقبل الأول هو المتكون من الحياة الدنيا، والمستقبل الآخر هو المتكون من نهايتها، ممّا يجعل نهاية الحياة الدنيا بداية للحياة الآخرة، والتي يكون فيها كل الماضي كمحتوى هو المستقبل الحسابي لمن وجد في اليوم الأول (الحياة الدنيا)، ولهذا لا يتم الاتفاق مع أرسطو ومؤيديه بأن كل ما هو ماضٍ قد فسد، فالزمان الماضي لم يفسد بل إنه في السجل المحفوظ الذي فيه حسابنا ما ثقل وما خف منه.

وعليه من مستوجبات نجاح الخليفة في ممارسة حقوقه وأداء واجباته وحمل مسؤولياته أن يراعي الزمن ولا يهدره فيما لا يرضي الوكيل، الذي به آمن وأولى أمره إليه، وهذا لا يعني أن يترك أمره للوكيل وهو على حالة من الاتكالية، فالوكيل قال أعملوا وأنتم متوكلون فيما تعملون على الله الذي بيده الأمر والمملك. {وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِّمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَةِ قَوْمٍ آخَرِينَ إِنَّ مَا تُوعَدُونَ لَآتٍ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} 687، وقال تعالى: {وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ وَأَخْرُوجُ مُرْجُونَ لِأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} 688، وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} 689، وقال تعالى: {وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِ وَكَفَى بِهِ بِذُنُوبِ عِبَادِهِ خَبِيرًا الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُنِيرًا وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْذِرَ أَوْ أَرَادَ سُكُورًا وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ

687 الأنعام 132 . 135.

688 التوبة 105، 106.

689 الكهف 110.

لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُجُوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا {690}.

والمتوكل على الله صبور ولهذا فالصبر والتوكل صفتان لا تجتمعان إلا مع العلم بالله وقدرته والعلم بما سوى الله وضعفه، فمن العلم بالله يعلم الخليفة أنه تعالى الرازق ذو القدرة المطلقة على الرزق في كل مكان وكل وقت، وعالم بما سوى الله فغير الله زائل وهذا يجعل الأمر يهون عليه، فيلزم الصبر على الزائل الذي لا يدوم، ومن يؤدي في مكان ما ويضيق عليه رزقه فليخرج صبراً وتوكلاً على الله لذلك الناس قسمان:

- قسم قادر على الخروج وهو متوكل على ربه، يترك الأوطان ويفارق الأهل والإخوان طلباً للرزق بصبر وتوكل، قال تعالى: {وَأِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ وَاصْبِرْ

690 الفرقان 58 . 77.

وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ إِنَّ اللَّهَ
مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ {691، وقال رسول الله صلى الله
عليه وسلم: (الْبِلَادُ لِلْبِلَادِ وَالْعِبَادُ لِلَّهِ وَالْعِبَادُ عِبَادُ اللَّهِ فَحَيْثُمَا أَصَبَتْ حَيْرًا
فَأَقِمِ) 692.

والإقامة برفق لأنه لا رزق بغلظة، فروي في الإحياء "البلاد بلاد
الله والعباد عباد الله فأى موضع رأيت فيه رفقا فأقم" 693.
- وقسم خانع خاضع عاجز وهو يصبر بتواكل لا بتوكل. قال تعالى:
{وَكَايِن مِّن دَابَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْعَلِيمُ} 694.

وفي الجمع بين الصبر والتوكل (الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون)
ذكر ما يساعد على التوكل وهو بيان حال الدواب، ويأتيها كل يوم
برزق جديد، والمطلوب منا أن نتخطى درجة الدواب فنسعى صبرا
وتوكلا بالعمل على الله الوكيل.

والرزق يتطلب الشكر والشكر فيه الزيادة فيضا من الله على
الشاعر المتوكل على الله سبحانه، قال تعالى: {كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ
وَأَشْكُرُوا لَهُ} 695.

ويوضح الله تعالى إن الرزق المعنوي أفضل من الرزق المادي،
والرزق المعنوي عند الله، فقد خلق الرزق المادي للاختبار في دار

691 النحل 126 . 128.

692 مسند أحمد، ج 3، ص 355

693 تخریج أحاديث الإحياء، ج 2، ص 284

694 العنكبوت 60.

695 سبأ، 15

الفناء، قال الله تعالى: {الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا} 696.

ولهذا أخبر تعالى أن المال والبنين، زينة الحياة الدنيا، أي: ليس وراء ذلك شيء، وأنّ الذي يبقى للإنسان وينفعه ويسره، الباقيات الصالحات، وهذا يشمل جميع الطاعات الواجبة والمستحبة من حقوق الله، وحقوق عباده، من صلاة، وزكاة، وصدقة، وحج، وعمرة، وتسبيح، وتحميد، وتهليل، وتكبير، وقراءة، وطلب علم نافع، وأمر بمعروف، ونهي عن منكر، وصلوة رحم، وبر والدين، وقيام بحقّ الزوجات، والمماليك، والبهائم، وجميع وجوه الإحسان إلى الخلق، وكل أعمال الخير والإصلاح في الأرض والإعمار فيها، وكل هذا من الباقيات الصالحات، فهذه خير عند الله ثوابا وخير أملا فتوابعها يبقى، ويتضاعف، ويؤمل أجرها وبرها ونفعها عند الحاجة، فهذه التي ينبغي أن يتنافس عليها المتنافسون، ويستبق إليها العاملون، ويجد في تحصيلها المجتهد، ضرب الله مثل الدنيا وحالها ذكر أن فيها نوعين:

- نوع من زينتها، يتمتع به قليلا ثم يزول بلا فائدة تعود لصاحبه، بل ربّما لحقته مضرتة وهو المال والبنون.

-نوع يبقى وينفع صاحبه على الدوام وهو (الباقيات الصالحات).

ولمقارنة المادي بالمعنوي يقول الله تعالى: {وَيَزِيدُ اللَّهُ الَّذِينَ اهْتَدَوْا هُدًى وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا} 697

696 الكهف، 46.

697 مريم 76.

فالله يزيد المهتدين بالإيمان به والتوكل عليه بما ينزل عليهم من الآيات والدلائل التي تؤدّي إلى تمسك المؤمن بما انزل الله والعمل بما أراد ليحقق الخلافة على الأرض، مع العلم واليقين ببقاء الأعمال والأقوال الصالحة التي يرجو بها الخليفة طاعة ربه (والباقيات الصالحات) لأنها بلا أدنى شك (خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا) في الدنيا وفي الآخرة.

ومن التوكل على الله تسليم الأمر إليه وحده والاعتماد عليه في كلّ شيء من أمر الدنيا والآخرة لذا فنحن نعيش في نعمة الله الوكيل لأننا مسلمون له قد أسلمنا أمرنا لله "وهذا المعنى في كتب اللغة، وكلّ بالله وتوكل عليه واتكل استسلم إليه" 698.

ومن التوكل في أبهى صوره ما جاء على لسان أبي الأنبياء سيدنا إبراهيم عليه الصلوة والسلام في القرآن الكريم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ دُرِّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرْنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا

⁶⁹⁸ لسان العرب، ج11، ص 734

تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ
وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ {699.

فإن من يرغب (عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ) أَبِي الْأَنْبِيَاءِ بعد ما عرف من فضله لأنه الداعي الى التوحيد والتسليم لله والتوكل عليه (إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ) ومن السفاهة الجهل بحقيقتها التي خلقت من أجلها، فالنفس لا تطمئن إلا بالرجوع إلى ربّها ومن الرجوع: رجوع اختياري في الدنيا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر.

ورجوع إجباري بدعوة الله لها بأن ترجع إليه { يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي } {700.

وهذه الدعوة الطيبة لا تتأتى إلا من خلال توجه الإنسان للهدف الذي خلقه الله من أجله وهو التسليم والتوكل عليه، لا بجهل قيمة نفسه وامتثالها بالبعد عن منهج الخلافة من تسليم وتوكل على الله، كما أنه لا أرشد ولا أكمل ممن يرغب في ملة سيدنا إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام الذي اختاره الله في الدنيا.

(وَلَقَدْ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا) فأسلم لله وتوكل عليه لذلك قد أثناه في الآخرة (وَأِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ) الذين لهم أعلى الدرجات بتوكلهم على ربّهم.

(إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِم) وهذا أمر الله لمن يريد الثواب في الدنيا والفوز في الآخرة، والجواب بما قاله نبي الله إبراهيم عليه الصلّاة والسّلام الذي قال: امتثالا وطاعة لله ربّ العالمين (أَسْلَمْتُ لِرَبِّ

⁶⁹⁹ البقرة 127-133

⁷⁰⁰ الفجر 27-30

العالمين) أسلمت إخلاصاً، أسلمت توحيداً، أسلمت محبة، أسلمت إنابة، أسلمت توكلًا عليك يا ربّ فأنت حسبي ونعم الوكيل، ثم أورت ذلك اليقين والتوكل والتسليم في ذريته، ووصّاهم بالإسلام والتوكل على الله ربّ العالمين، وجعلها كلمة باقية في ذريته، وتوارثت فيهم، حتى وصلت لنبي الله يعقوب فوصى بها بنيه، وتكررت الدعوة إلى الإسلام بترك الأمر لله والتوكل عليه والخروج من الحول والقوّة والحسب والنسب إلى حول الله وقوته وأمره وحكمه لأنّه سبحانه وتعالى صاحب الأمر ف (لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ) 701، ولأنّه صاحب الأمر فهو الوكيل الذي يلجأ الكل إليه ويسلمون أمرهم له لأنّ إرادته أن يسلم له الخلق، فجعل دينه الإسلام ولا خلاف على ذلك ولا حجة إلا القول (أسلمت وجهي لله) وهذه الدعوة للعالم بان يعودوا إلى الانقياد لله والتوكل عليه كما قال الله تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَعْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ} 702.

ومن التوكل على الله والتسليم له والانقياد لأمره اليقين بأن الله تعالى ما سكن في الليل، وتحرك في النهار، وهذا يدل على الاستغراق الزمني والمكاني، وبما أنّ له أمر ما سكن فله بالتالي أمر المتحرك في الزمان والمكان كما سبق أن أوضحنا، وحال المؤمن المتوكل على الله يقول في عجب: هل أتخذ من دون الله ولياً وهو خالق السماوات والأرض؟ وهو يطعم الخلق جميعاً، الساكن والمتحرك، ولا يطعمه أحد فيحفظ الخلق لأنه وكيل عليهم حافظ لهم، وهو جلت قدرته لا

701 - الروم، 3

702 آل عمران، 19، 20.

حاجة له فيهم إلا نفعهم، ونفعهم في عبادته، وهذا ما جاء في قوله تعالى: { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ } 703 ومن يعرف ذلك لابد وأن يسلم لله ويعلن انقياده التام له ويتعد عن الشرك به ولا يتخذ من دونه وكيلا، تصديقا لقوله تعالى: { أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِي وَكَيْلًا } 704، ويظهر ذلك التسليم في قول الله تعالى: { وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ قُلْ أَعْيَرَ اللَّهُ اتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ } 705.

والمراد هو المنع من اتخاذ غير الله تعالى وليا ووكيلا. لأنه فاطر السماوات والأرض وهو الذي يطعم ولا يطعم. ومتى كان الأمر كذلك امتنع اتخاذ غيره وليا وكيلا. أما بيان أنه فاطر السماوات والأرض، فلأن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجودا إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر لكل ما سواه من الموجودات. وأما بيان أنه يطعم ولا يطعم فهذا لأن الإطعام عبارة عن إيصال المنافع، وعدم الاستطعام عبارة عن عدم الانتفاع. ولما كان هو المبدئ لكل ما سواه من المخلوقات، كان لا محالة هو المبدئ لإيصال جميع المنافع. ولما كان واجبا لذاته كان لا محالة غنيا ومتعاليا عن الانتفاع بشيء آخر فثبت بالدليل القاطع صحة أنه تعالى فاطر السماوات

703 الذاريات، 56-58.

704 الإسراء 2

705 الأنعام، 13-16.

والأرض، ولهذا امتنع في العقل اتخاذ غيره وليا لأن ما سواه محتاج في ذاته وفي جميع صفاته وفي جميع ما تحت يده إلى الله الغني القوي. والله سبحانه وتعالى هو الغني لذاته الجواد لذاته، وترك الغني الجواد، والذهاب إلى الفقير المحتاج ضرب من مخالفة العقل والمنطق.

فقوله تعالى: (قل أغير الله أتخذ وليا) يمنع القرب من غير الله تعالى. وهذا يقتضي ممن أراد الخلافة تنزيه القلب عن الالتفات إلى غير الله تعالى فلا يجعل في قلبه يقينا إلا بالله، وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى. ثم قال تعالى: (قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم) ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام سابق أمته في الإسلام لقوله {وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 706.

والنبي صلى الله عليه وسلم أول المتوكلين المسلمين لله أمره ربه بقوله: {قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} 707 وهذه الآية الكريمة تدل على أنه - عليه الصلاة والسلام - مؤدّي العباد مع الإخلاص، وأكد الله ذلك بقوله تبارك وتعالى: لَا شَرِيكَ لَهُ، وهذا من أقوى الدلائل على أن شرط صحة الصلاة أن يؤتى بها مقرونة بالإخلاص، والإخلاص على وجهين:

-الإخلاص في الحياة بأن يكون الهدف منها طاعة الله بالإسلام له والتوكل عليه، واستنفاذ العمر كله في جعل كلمة الله هي العليا وكلمة الباطل هي السفلى ولا يتأتى ذلك إلا بالعمل الصالح.

706 الأنعام، 163

707 الأنعام 162.

-الإخلاص في الممّات بالخروج من الدنيا والقلب غير متعلق بها
وقد استفرغها المؤمن من قلبه بالكلية، وملاً قلبه بطاعة الله، فلا
يتوجه إلا لله في الصلاة والحياة والممّات والنسك والفروض والنوافل.
ومن التوكل على الله ما ورد في حشد من الآيات نذكر منها قوله
تعالى:

{وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ
مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا}708، وهي دعوة صريحة
للجوء إلى الوكيل الناصر وهو فعل أمر واجب التنفيذ يا مريد الخلافة
هلا اتخذت المنهج وتدبرت تفاصيله الذي لا يوجد فيه اختلاف لأن
هذا المنهج من لدن حكيم خبير.

ولأنّ الوكيل المطلق، فلا توكل إلا عليه، ومن يتوكّل على غيره
يُذَلّ حيث لا اعتماد إلا على الوكيل المطلق، فالبشر هم في دائرة
النسبية، متقلبون إلا من آمن بالوكيل المطلق فلا يسلم أمره لغيره، ولذا
لا وكالة بالمطلق إلا للحقّ المطلق، والوكيل هو المهتم بالأمر دون
مقابل حاجة، إنه الخلاق الرزاق ذو العرش المجيد.

- وفي التوكل الكفاية لأنه الكافي الذي يكفي من توكل عليه.

- ومن التوكل تدبر القرآن لأنّه المنهج الأمثل للمتوكل، لأنّه من
لدن حكيم خبير وليس من فعل بشر أو من تلقين معلم لذا فلا مجال
لنقص فيه من خلاف وتعارض.

ويقول الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى
بِاللَّهِ وَكِيلًا} (إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى

708 النساء، 81، 82..

ذَلِكَ قَدِيرًا مَنْ كَانَ يُرِيدُ ثَوَابَ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ ثَوَابُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا {709}.

(ولله ما في السماوات وما في الأرض) وذلك لكونه غنيا عزيزا لا
يجب العوز والحاجة في صفاته، جميع المخلوقات تذلل بحاجتها إلى
غناه، وتدلّ بهذه الحاجة إنه الغني المطلق، ولهذا لا يجب التوكل إلا
عليه (وكفى بالله وكيلًا) في تدبير أمور الخلق في كل الأمور فلا بد من
أن التوكل عليه لا على أحد غيره، وهذا ما يقوم به الخليفة المتخلق
بالاسم الوكيل فلا يعرف اعتمادا ولا استنادا إلا عليه.

ويخبر تعالى عن ملكه العظيم الواسع المستلزم تدبيره بجميع أنواع
التدبير، وتصرفه بأنواع التصريف قدرا وشرعا، فتصرفه الشرعي أن
وصى الأولين والآخرين من أهل الكتب السابقة ومن اللاحقين -أمة
الإسلام- بالتقوى المتضمنة للأمر والنهي، وتشريع الأحكام، والمجازاة
لمن قام بهذه الوصية بالثواب، والمعاقبة لمن أهملها وضيعها بأليم
العذاب، ولهذا قال: (وَإِنْ تَكْفُرُوا) بأن تتركوا تقوى الله والعمل بكتابه
والإسلام له والتوكل عليه، وتشركوا بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانا،
فإنكم لا تضرون بذلك إلا أنفسكم، ولا تضرون الله شيئا ولا
تنقصون من ملكه، وله عبيد خير منكم وأعظم وأكثر، مطيعون له
خاضعون لأمره. ولهذا ترتب على ذلك قوله تعالى: (وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ
لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا) فله الجود
الكامل والإحسان الشامل الصادر من خزائن رحمته التي لا ينقصها
الإنفاق ولا يغيضها نفقة، سحاء بالليل والنهار، لو اجتمع أهل
السماوات وأهل الأرض أولهم وآخرهم، فسأل كل واحد منهم ما
بلغت أمانيه ما نقص من ملكه شيئا، ذلك بأنه جواد واجد ماجد،

709 النساء، 131.134.

إنما أمره لشيء إذا أراد أن يقول له كن فيكون. وهذا ما ذكره النبي صلى الله عليه وسلم فيم يرويه عن رب العزة: "عَنْ أَبِي ذَرِّعَانَ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِيَمَا رَوَى عَنْ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى أَنَّهُ قَالَ يَا عِبَادِي إِنِّي حَزَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ ضَالٌّ إِلَّا مَنْ هَدَيْتُهُ فَاسْتَهْدُونِي أَهْدِكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ جَائِعٌ إِلَّا مَنْ أَطْعَمْتُهُ فَاسْتَطْعَمُونِي أَطْعِمْكُمْ يَا عِبَادِي كُلُّكُمْ عَارٍ إِلَّا مَنْ كَسَوْتُهُ فَاسْتَكْسُونِي اكْسُكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ تُحْطِئُونَ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَأَنَا أَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا فَاسْتَغْفِرُونِي أَغْفِرْ لَكُمْ يَا عِبَادِي إِنَّكُمْ لَنْ تَبْلُغُوا ضُرِّي فَتَضُرُّونِي وَلَنْ تَبْلُغُوا نَفْعِي فَتَنْفَعُونِي يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَنْفَى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مِنْكُمْ مَا زَادَ ذَلِكَ فِي مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ كَانُوا عَلَى أَفْجَرِ قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِنْ مُلْكِي شَيْئًا يَا عِبَادِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَأَخْرَكُمْ وَإِنْسَكُمْ وَجَنَّتُمْ قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ فَسَأَلُونِي فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمَخِيطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ يَا عِبَادِي إِنَّمَا هِيَ أَعْمَالُكُمْ أُحْصِيهَا لَكُمْ ثُمَّ أُوقِيكُمْ إِيَّاهَا فَمَنْ وَجَدَ خَيْرًا فَلْيَحْمَدِ اللَّهَ وَمَنْ وَجَدَ غَيْرَ ذَلِكَ فَلَا يَلُومَنَّ إِلَّا نَفْسَهُ" 710.

ومن تمام غناه أن له الكمال المطلق إذ لو كان فيه نقص بوجه من الوجوه، لكان فيه نوع افتقار إلى ذلك الكمال، بل له في كل صفة من صفاته الكمال المطلق فيها، ومن ذلك فهو الغني المطلق والوكيل المطلق، ومن تمام غناه أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، ولا شريكا في ملكه ولا ظهيرا، ولا معاونا له على شيء من تدابير ملكه

710 - صحيح مسلم، ج 12، ص 455

لأنّه لا يتوكل على أحد فالكل فقير إليه ويتوكلون عليه لأنهم يحتاجون إليه وهو لا يحتاج إلى أحد⁷¹¹.

وهو الوكيل على كلّ شيء، القائم على شؤون خلقه بتدبير أمورهم على وجه الكمال والتمام بما تقتضيه حكمته البالغة وعلمه المطلق، وقدرته النافذة لأنه له جنود السماوات والأرض وذلك من كمال الوكالة، فإنّ الوكالة تستلزم العلم بما هو وكيل عليه، وامتلاك القوّة والقدرة على التنفيذ والتدبير، ولكون ذلك التدبير على وجه الحكمة والمصلحة بمنافع من يتوكلون عليه، فلا ينقص من مصالحهم شيء لأنّ الوكيل هو الله والله تعالى منزّه عن كل نقص.

ومن النص المقدس الذي يرشدنا إلى شرف التوكل على الله أمّا ورد في قضية الصراع الذي لا ينتهي إلا بصرف المؤمن إلى الجنة والكافر إلى النار، الصراع بين الحقّ والباطل، الحقّ بتولي الله له والتعهد بأن يكون وكيلا عنه، والباطل الذي مازال يعمل على ظهور الباطل ومحقّ الحقّ، وهي القصة التي تثير البحث وتدفعه نحو القضية المحورية التي يتركز عليها الخلافة المثلى على الأرض وهنا تمب علينا نفحات من الاسم الوكيل وفيه يتجلى بفرض وكالته على عباده والذي منهم الخليفة بلا شك فهو الرّب صاحب الملك الكافي لعباده شر ما يهملهم ويؤرقهم ويؤلمهم قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنِ أَخَّرْتَنِي إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأُحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا قَالَ اذْهَبْ فَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَاؤُكُمْ جَزَاءً مَوْفُورًا وَاسْتَفْزِرْ مَنْ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ

⁷¹¹ تفسير السعدي، ج 1، ص 207.

وَشَارِكُهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدَّهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا إِنَّ
عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا {712}.

والله هو الوكيل والرّب والمهيمن على الكون وما فيه فيقول للنبي
عليه الصّلاة والسّلام والحديث في الوقت ذاته للخليفة ولمن أراد أن
يحقق الخلافة نفسه أو في الآخرين: { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ
الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ
مِنْ رَبِّكَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ
وَكِيلًا {713}.

قوله عزّ وجلّ: (يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدا) للرسول بالتبليغ
شاهدا على الخلق كلهم يوم القيامة (ومبشرا) لمن آمن بأنه سيدخل
بالجنّة (ونذيرا) لمن كذب بالرّسول وبحقّ لله في العبادة وبأنه الواحد
الأحد فسيكون مصيرهم النّار (وداعيا إلى الله) داعيا إلى توحيده
وطاعته والتسليم له والتوكل عليه (بإذنه) بأمر الله وإرادته (وسراجا
منيرا) سراجا منيرا لأنه عليه الصّلاة والسّلام نوره جلا ظلمات الشرك
واهتدى به الضالون كما يجلى ظلام الليل بالسراج المنير، وقد أمد الله
بنور نبوته نور البصائر كما يمد بنور السراج نور الأبصار ووصفه بالنور
لأن من السراج ما لا ينير. وسماه سراجا، ولم يسمه شمسا والشمس
أشدّ إضاءة من السرج وأكثر نورا، لأن نور الشمس لا يمكن أن
يؤخذ منه مقدارا ويوضع في شيء آخر بخلاف نور السراج فإنه يؤخذ
منه أنوار كثيرة (وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) ولأنه
البشير طلب منه عليه الصّلاة والسّلام أن يبشر المؤمنين بزيادة فضل
الله عليهم والفضل هو الثواب وتفضيل الأمة المحمّدية على سائر الأمم

712 - الإسراء، 61 . 64.

713 الأحزاب، 1-3.

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) في ما يقولون ويفعلون واصبر عليهم حتى تعد لهم العدة وتنتصر عليهم (وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) واعتمد عليه وانتصر به وله واكتفى بقوته وقدرته فهو الحافظ لك ولمن اتبعك الذي يملك القوة المطلقة وهو الرب الذي يعتمد عليه.

ومن معاني الوكيل كما بدأنا في أول البحث في هذا الاسم الشريف، الرب صاحب الملك ومالكة والمتصرف فيه، ويتجلى ذلك في أم الكتاب في قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} 714، فهو رب العالمين ومن يتوكل عليه ويجعل اعتماده مستندا إليه لا يخاف من معلوم أو مجهول لأنه رب العالمين العالم بالمرئي وغير المرئي، ولا يخشى المتوقع ولا غير المتوقع لأنهما جميعا في دائرة ملكه، ومن يعيش وهو يعلم أنه في ملكه يكن أسعد الخلق لأنه يعتمد ويتوكل على رب العالمين.

ورب العالمين من ملكه الواسع رحمته الواسعة التي وسعت كل شيء فلأنه رب العالمين فهو عالم الشهادة الذي نعيش فيه وعالم الغيب الذي لا نعرف عنه إلا ما أخبرنا الله به، ومن الذي أخبرنا به إنّه مالك يوم الدين فهنيئا لمن يتخذه وكيلا في الدنيا فيكفيه ويحميه ويهديه للعمل الصالح النافع وهنيئا لمن يتخذه وكيلا فيرحمه برحمته في يوم لا يملك فيه أحد أن يتكلم إلا بإذنه لأنه رب السموات والأرض وصاحبهما: {رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الرَّحْمَنُ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أُذِنَ لَهُ

714 الفاتحة، 1-7.

الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَىٰ رَبِّهِ مَآبًا} 715. ولا ينجو في ذلك اليوم إلا من عرف أنه مالك يوم الدين وقال وعمل: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ} فنحن نعبدك ونوحدك بتخصيص العبادة لك لأنك رب العالمين مالك الدنيا والمتصرف فيها والمتوكل عليك والمعتمد عليك في الدنيا والمرجوة رحمتك في الآخرة والذي لا استغناء عن جودك وكرمك رحمتك في عالم الشهادة وفي عالم الغيب ونقول كما قال المصطفى عليه الصلوة والسلام في الدعاء الجميل العذب الذي ينسال خشوعاً وخضوعاً لرب العالمين بعدما تعرّض صلى الله عليه وسلم لأذى الكفار في ثقيف لما أراد هدايتهم فأبوا إلا الكفر فلجأ عليه الصلوة والسلام إلى الرب الوكيل العظيم، وهذا ما ورد في سيرته العطرة (السيرة النبوية) فقام رسول الله عليه الصلوة والسلام من عندهم وقد يئس من خير ثقيف، وقد قال لهم، فيما ذكر، إذ فعلتم ما فعلتم فاكتموا على. وكره رسول الله عليه الصلوة والسلام أن يبلغ قومه عنه فيذئروهم ذلك عليه. فلم يفعلوا، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم يسبونهم ويصيحون به حتى اجتمع عليه الناس وألجؤوه إلى حائط لعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وهما فيه، ورجع عنه من سفهاء ثقيف من كان يتبعه. فعمد إلى ظل عنب فجلس فيه، وابنا ربيعة ينظران إليه ويريان ما يلقي من سفهاء أهل الطائف. فلما اطمأن قال فيما ذكر: "اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب على فلا أبالي، ولكن عافيتك هي

715 النبأ، 37-39.

أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن تنزل بي غضبك أو تحل علي سخطك، لك العتبي حتى ترضى، لا حول ولا قوة إلا بك"716.

وفي نص آخر به زيادة "وقلة حيلتي:

فَلَمَّا اطْمَأَنَّ رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قَالَ: اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وَهَوَايَ عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي، إِلَى مَنْ تَكَلِّمِي؟ إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي؟ أَمْ إِلَى عَدُوِّ مَلَكَتَهُ أَمْرِي؟ إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي، وَلَكِنَّ عَافِيَتَكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ وَصَلِحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سُخْطُكَ لَكَ الْعُتْبَى حَتَّى تَرْضَى، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ717.

ومن تمام التوكل على الوكيل لجوء المكروب المضطر إليه فيكفله الوكيل ويحميه، وقد علمنا الرسول الأعظم أن نلجأ إلى الوكيل عند الشدة ومن ذلك تعليمه لنا كلمات المكروب فيقول:

"اللهم رحمتك أرجو، فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين، وأصلح لي شأني كله، لا إله إلا أنت"718.

عن النبي عليه الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ فِي دَعَاءِ الْمَضْطَرِ "اللَّهُمَّ رَحِمَتِكَ أَرْجُو فَلَا تَكَلْنِي إِلَى نَفْسِي طَرْفَةَ عَيْنٍ، وَأَصْلِحْ لِي شَأْنِي كُلَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ"، وَقَالَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِنَّكَ إِنْ تَكَلْنِي إِلَى نَفْسِي

716 ابن كثير - ج 2، ص 150

717 سيرة ابن هشام - ج 1، ص 420

718 - مصنف ابن أبي شيبة - ج 7، ص 21

تكلمي إلى ضعف وعورة وذنوب وخطيئة، وإني لا أثق إلا برحمتك
فاغفر لي ذنوبي كلها إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت وتب عليّ إنك
أنت التواب الرحيم"719.

وقال النبي عليه الصلاة والسلام للسيدة الزهراء عليها السلام،
عن أنس بن مالك قال: قال النبي عليه الصلاة والسلام لفاطمة ما
يمنعك أن تسمعي ما أوصيك به أو تقولي إذا أصبحت وإذا أمسيت
يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث أصلح لي شأني كله ولا تكلمي إلى
نفسي طرفة عين"720.

ومن دعاء النبي عليه الصلاة والسلام يوم أحد: "يا حي يا قيوم
برحمتك أستغيث، اكفني كل شيء ولا تكلمي إلى نفسي طرفة
عين"721.

ومن التوكل على الله الانتصار به وله، ومن توكل عليه حفظه
ونصره وهذا ما حدث في بدر وحدث في مواطن كثيرة وسيحدث إن
شاء الله في مواطن يحتاج إليها المتوكلون عليه.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّمْيِ الْجُمُعَانِ فَيَاذَنِ اللَّهُ وَلِيَعْلَمَ
الْمُؤْمِنِينَ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ
ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ
لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ
الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَأُوا عَنْ
أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ

719 - شعب الإيمان للبيهقي - ج 2، ص 322

720 - السنن الكبرى للنسائي - ج 6، ص 147

721 - الأحاد والمثاني لابن أبي عاصم - ج 8، ص 276

أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرَزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ
 وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ
 يَحْزَنُونَ يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ
 الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ
 أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ
 جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ
 الْوَكِيلُ {722}.

وكانت قريش أعلى الناس شجاعة وأوفاهم قوة وأعرفهم أصالة
 فكانوا كأنهم جميع الناس، فكان التعبير بصيغة في قوله: (الذين قال
 لهم الناس) أي نعيم أو ركب عبد القيس (إنّ الناس) يعني قريشا (قد
 جمعوا لكم فآخشوهم) أمدح للصحابة رضي الله عنهم من التعبير
 عنم أخبرهم ومن جمع لهم بخاص اسمه أو وصفه.

ولما كان الموجب لإقدامهم على اللقاء بعد هذا القول الذي لم
 يشكوا في صدقه ثبات الإيمان وقوة التيقن قال تعالى: (فزادهم) أي
 هذا القول إيمانا لأنه ما ثنأهم عن طاعة الله ورسوله، وقالوا، ازدراء
 بالخالق اعتمادا على الخالق (حسبنا) أي كافينا الله، أي الملك
 الأعلى في القيام بمصالحنا. ولما كان ذلك هو شأن الوكيل وكان في
 الوكلاء من يذم قال: (ونعم الوكيل) أي الموكل إليه المفوض إليه جميع
 الأمور؛ روى البخاري في التفسير عن ابن عباس رضي الله عنهما
 قال: "هذه الكلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار،
 وقالها محمد عليه الصلاة والسلام حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم.
 وقال: كان آخر كلمة قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقى في النار:
 حسبي الله ونعم الوكيل". ولما كان اعتمادهم على الله سببا لفلاحهم

⁷²² آل عمران، 166-173.

قال: (فانقلبوا) أي فكان ذلك سببا لأنقلبوا، أي من الوجه الذي ذهبوا فيه مع النبي عليه الصلّاة والسّلام (بنعمة) وعظمتها بإضافتها إلى الاسم الأعظم فقال: (من الله) أي الذي له الكمال كله (وفضل) أي من الدنيا ما طاب لهم من طيب الثناء بصدق الوعد ومضاء العزم وعظيم الفناء والجرأة إلى ما نالوه. عند ربّهم حال كونهم (لم يمسسهم سوء) أي من العدو خوفوه ولا غيره (واتبعوا) أي مع ذلك بطاعتهم لرسول الله عليه الصلّاة والسّلام بغاية جهدهم (رضوان الله) الذي له الجلال والجمال فحازوا أعظم فضله والله الذي لا كفاء له عظيم في الدارين على من يرضيه، فستنتظرون فوق ما تؤملون، فليبشر المحيب ويعتم ويحزن المتخلف، ولعظم الأمر كرر الاسم الأعظم كثيرا، ولما جزاهم سبحانه على أمثال ذلك بما وقع لهم من فوزهم بالسّلامة والغنيمة بفضل من حاز أوصاف الكمال وتنزه عن كل نقص بما له من رداء الكبرياء والجلال، ورغبهم فيما لديه لتوليهم إياه، أتبع ذلك بما يزيدهم بصيرة من أن المخوف لهم من كيدته ضعيف وأمره هين خفيف وإه سخيّف وهو الشيطان، وساق ذلك مساق التعليل لما قبله من حيازتهم للفضل وبعدهم عن السوء بأن وليهم الله وعدوهم الشيطان فقال التفاتا إليهم بزيادة في تنشيطهم أو تشجيعهم وتثبيتهم: (إنما ذلكم) أي القائل الذي تقدم أنه النّاس (الشيطان) هو الطريد البعيد المحترق⁷²³.

ومن آيات الله يمكن أن نستخلص بعضا من صفات الوكيل بالإضافة كما يقول الله تعالى: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ

⁷²³ نظم الدرر للبقاعي - ج 2، ص 143

الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا
لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ {724.

-الإيمان بالله ربًا واحدا مالكا للملك وكيلا معينًا.

-الخوف من الله الذي سيحاسب الإنسان على ما قدمت يداه،
ويراقبه من الميلاد حتى الوفاة في مدة الاختبار والابتلاء، فيستشعر
الخليفة هذا المعنى العظيم فيخاف منه حبا فيه لأنه سبحانه لا
يستحق المعصية بعدما أوجد الإنسان وسخر له الأرض وما فيها وما
عليها ليقيم الخلافة الإلهية عليها.

-التوكل على الله في كل شيء لأنه الحافظ القيوم الرازق القوي

المتين.

- إقامة الصلاة، فهي الصلة بين الإنسان وربّه دون حجاب
ودون واسطة فيها ينتقل المرء من عالم الملك على عالم الملكوت
وتسمو روحه وتخلق في أنوار لا حصر ولا وصف لها.

-الإنفاق من رزق الله الذي وكلهم عليه ومن ذلك حسن
التوظيف للمال توجيهه لمساعدة المستحقّ للمساعدة، وتتعدد جوانب
الإنفاق حسب الحاجة، لأنّه بعدم الإنفاق يكون الهلاك للبخیل
المسك وللفقير المحتاج وصدق الله في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا
تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {725.

⁷²⁴ الأنفال، 1 . 4.

⁷²⁵ البقرة، 195.

عن ابن عباس: "ولا تُلقوا بأيديكم إلى التهلكة"، قال: ليس التهلكة أن يُقتل الرجل في سبيل الله، ولكن الإمساك عن النفقة في سبيل الله⁷²⁶.

وسبيل الله في مصارف عديدة، ومن هنا فالبخل هلاك للنفس وللغير، للنفس بحرمانها من طيبات الله في الدنيا ومن نعيم الله في الآخرة، فمن يملك المال في مكان ما ويكنزه مع حاجة المكان لبناء مدرسة أو مستشفى أو مسجد أو مصنع أو مسكن ويقصر في ذلك بحجب المال ومنعه بكنزه أو بالانتفاع الشخصي به فهو قد أهلك نفسه وغيره.

-وجزاء من يؤمن بالله ويخافه وينفق في سبيله ولا ييخل بالنفس والمال رزق من الله ومغفرة.

وفي مجال الإنفاق فقد جعل الله الغني وكيلا على المال بشرط عدم البخل على الفقراء لأنهم عيال الله أي عالته المسئولون منه لذا فقد جعل الثواب الجزيل للمنفق في سبيل الله في صور الإنفاق المختلفة.

والوكيل بالإضافة الذي يعلم تمام العلم أن الرزق بيد الله فلا يخشى بأس أحد أو ظلم أحد فيأخذ في أسباب السعي للحصول على الرزق وهذا من صور التوكل التي عرفنا إياها الحبيب عليه الصلاة والسلام فقال: "لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلْتُمْ عَلَى اللَّهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا"⁷²⁷.

⁷²⁶ تفسير الطبري - ج 3، ص 584

⁷²⁷ سنن ابن ماجه - ج 12، ص 199

لذا التوكل هو الأخذ بالأسباب " وقال الله تعالى: {وتزودا فإنَّ
خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} 728.

أَي تَزَوَّدُوا وَاتَّقُوا أَذَى النَّاسِ بِسُؤَالِكُمْ إِيَّاهُمْ وَالْإِثْمَ فِي ذَلِكَ،
وَالْتَوَكَّلْ لَا يَكُونُ مَعَ السُّؤَالِ وَإِنَّمَا التَّوَكَّلُ الْمَحْمُودُ أَنْ لَا يَسْتَعِينِ
بِأَحَدٍ فِي شَيْءٍ، وَهُوَ قَطَعَ النَّظَرَ عَنِ الْأَسْبَابِ بَعْدَ تَهْيِئَةِ الْأَسْبَابِ،
كَمَا قَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ "إِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ" 729، ولذا تؤخذ
الأسباب بالتوكل على الله الوكيل المطلق الذي آمن به المستخلفون في
الأرض وأولوه أمرهم طاعة تامة لا شريك له بيده الخير وهو على كل
شيء قدير.

نعم فمن التوكل المحمود عدم الاستعانة إلا بالله فنحن نقول (إياك
نعبد) فأنت الوكيل علينا ولما كنت أنت الوكيل علينا فقد سلمنا لك
أمرنا إليك و(إياك نستعين) عليك لا على غيرك مع الأخذ بالأسباب
كما أمرتنا، فنلقي البذرة في الأرض بعد حرثها وتهيئتها ونرويها بالماء
ونتوكل عليك في إخراجها وكذا في كل أمور حياتنا إخلاصا في العبادة
وإفرادا في التوكل والاستعانة.

وَعَنْ رَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: "أَنَّ دَاوُدَ النَّبِيَّ عَلَيْهِ
الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَانَ لَا يَأْكُلُ إِلَّا مِنْ عَمَلِ يَدِهِ" 730.

وعن ابن عباس، قَالَ: "كَانَ أَهْلُ الْيَمَنِ يُحْجُونَ وَلَا يَتَزَوَّدُونَ،
وَيَقُولُونَ: نَحْنُ الْمُتَوَكِّلُونَ، فَإِذَا قَدِمُوا مَكَّةَ سَأَلُوا النَّاسَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ:

728 البقرة 197

729 فتح الباري لابن حجر، ج 5، ص 161

730 فتح الباري لابن حجر - ج 6، ص 382

{وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى} ". تزودوا فلا تؤذوا الناس بسؤالكم إياهم، واتقوا الإثم في أذاهم بذلك.

وفيه: إن التوكل لا يكون مع السؤال، وإنما التوكل على الله دون استعانة بأحد في شيء، ويبين ذلك قوله عليه الصلاة والسلام: "يدخل الجنة سبعون ألفاً بغير حساب، وهم الذين لا يسترقون، ولا يكتبون، ولا يتطيرون، وعلى ربهم يتوكلون". فهذه أسباب التوكل وصفاته 731.

وقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: "يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بغير حساب قالوا ومن هم يا رسول الله قال هم الذين لا يكتبون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم قال أنت منهم قال فقام رجل فقال يا نبي الله ادع الله أن يجعلني منهم قال سبقتك بما عكاشة".

وقوله صلى الله عليه وسلم: (وعلى ربهم يتوكلون) اختلفت عبارات العلماء من السلف والخلف في حقيقة التوكل، فحكى الإمام أبو جعفر الطبري وغيره عن طائفة من السلف أنهم قالوا: لا يستحق اسم التوكل إلا من لم يخالط قلبه خوف من غير الله تعالى من سبع أو عدو حتى يترك السعي في طلب الرزق ثقة بضمان الله تعالى له رزقه، وقالت طائفة: حده الثقة بالله تعالى والإنفاق بأن قضاءه نافذ وإتياع سنة نبيه عليه الصلاة والسلام في السعي فيما لا بد منه من المطعم والمشرب والتحرز من العدو كما فعله الأنبياء صلوات الله تعالى عليهم أجمعين. قال القاضي عياض: وهذا المذهب هو اختيار الطبري وعمامة الفقهاء.

⁷³¹ شرح ابن بطلال - ج 7، ص 225

وَلَا يَصِحُّ التَّوَكُّلُ مَعَ الْإِلْتِمَاتِ وَالطَّمَأْنِينَةِ إِلَى الْأَسْبَابِ، بَلْ فَعَلَ
 الْأَسْبَابَ سُنَّةَ اللَّهِ وَحِكْمَتَهُ وَالثِّقَةَ بِأَنَّهُ لَا يَجْلِبُ نَفْعًا وَلَا يَدْفَعُ ضَرًّا
 وَالْكَلَّ مِنْ اللَّهِ تَعَالَى وَحْدَهُ. قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ
 تَعَالَى: إَعْلَمْ أَنَّ التَّوَكُّلَ مَحَلُّهُ الْقَلْبُ، وَأَمَّا الْحَرَكَةُ بِالظَّاهِرِ فَلَا تُنَافِي
 التَّوَكُّلَ بِالْقَلْبِ بَعْدَ مَا تَحَقَّقَ الْعَبْدُ أَنَّ الثِّقَةَ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ تَعَالَى، فَإِنْ
 تَعَسَّرَ شَيْءٌ فَبِتَقْدِيرِهِ، وَإِنْ تَيْسَّرَ فَبِتَيْسُّرِهِ 732.

التوكل طاعة:

وفي هذا قال الله تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ} 733.

والتوكل على الله طاعة لله ولرسوله لأن الله قد عرفنا في كتابه أن
 لكل شيء سبب فلا ننصرف عن التوكل بالتواكل.

ونأخذ بأسباب النصر بإعداد الجيوش.

وبأسباب الشفاء بإعداد الدواء.

وبأسباب الطعام بشق الأنهار وتعمير الأرض وزراعتها.

وبأسباب القوّة في كافة أشكالها بإعداد الإنسان الخليفة.

ونستلهم قول الله تعالى: {وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو
 عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا إِنَّا مَكَنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَاتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا
 فَأَتْبَعَ سَبَبًا} 734.

فالتوكل على الله هداية، وعدم التوكل على الله ضلال، لأنه
 الخالق المالك الذي يملك النفع والضرر، ولا يملك كشف الضرر سواه،

732 السابق

733 الأنفال - 46

734 الكهف 83 - 85

ولا يملك رحمة بخلقه سواه، لذا فإن الله هو الكافي الذي لا كافي غيره وهو ملاذ وملجأ المتوكلين، ومن يتوكل على الله فالله كافيه وهذا قوله تعالى لنبيه وبشراه لكل من يتخذه وكيلاً ويصدق بكلامه وأنبيائه: {وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّيهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ } 735

وسنختم بحثنا في اسم الله الوكيل وعلاقته بمعنى الخلافة وأن الخليفة هو من يتوكل عليه والاعتماد عليه مع الأخذ بأسباب النجاح وهذا ما تمثل في سيرة النبي عليه الصلاة والسلام في حياته بشكل عام وفي الهجرة بشكل خاص، مع إننا نجد التوكل في أسمى صورته في كل لحظة من ملامح حياته ومواقفه صلى الله عليه وسلم، ففي الهجرة صور الله لنا هذا التوكل في قوله تعالى في الحوار بين الصديق والحبيب بقوله تعالى: {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَابِتًا ثَائِبًا إِذْ هُمَا فِي الْعَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ } 736.

فمعية الله في التوكل عليه والأخذ بأسبابه، فلا حزن لمن كان الله معه، ولا هزيمة لمن كان الله ناصره، ولا فقر لمن كان الله رازقه، والسكينة لمن يستأنس به، والكفاية لمن يكتفي به، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

735 الزمر 37-38

736 التوبة 40

زواج يعقوب من ابنتي خاله:

يعقوب عليه السّلام كان مع خاله، وكان لخاله ابنتان إحداهما يقال لها: (لايا)، وهي أكبرهما، والأخرى (راحيل) وهي أصغرهما؛ فخطب يعقوب إلى خاله بأن يزوجه إحداهما، فقال له: هل لك مال؟ قال: لا ولكن أعمل لك. قال: صداقها أن ترعى لي سبع سنين. وفي بعض الروايات قال: أنّ تخدمني سبع سنين. وقال يعقوب: أخدمك سبع سنين على أن تزوجني راحيل، وهي شرطي، قال: ذلك بيني وبينك؛ فرعى له يعقوب سبع سنين، فلما قضى الأجل زوّت إليه الكبرى، وهي (لايا) فقال له يعقوب: إنّك خدعتني، وإنّما أردت راحيل، فقال له خاله: إنّنا لا ننكح الصغيرة قبل الكبيرة، ولكن هلمّ فاعمل سبع سنين أخرى، فأزوّجك أختها، وكان الناس في ذلك الزّمان يجمعون بين الأختين، إلى أن بعث الله موسى عليه السّلام. فرعى له سبع سنين أخرى، فزوّجه راحيل. وكان خاله حين جهزها دفع إلى كلّ واحدة منهما أمة تخدمها، فوهبتا الأمتين ليعقوب⁷³⁷. هذه رواية وأخرى تقول كما سبق تبيانه: لم يتزوجها إلّا بعد موت أختها.

النبي يعقوب تقي لا يئس ولا يقنط من رحمة الله، ولهذا عندما فقد ابنه يوسف كان على يقين أنّ الله قادر على جمعهما، ومع ذلك فقد حزن حزنا شديدا، وقيل: "أنّه حزن حزن سبعين ثكلى، وأعطي أجر مائة شهيد، وما ساء ظنه بالله قط"، رواه الحسن عن النبي صلّى الله عليه وسلّم⁷³⁸.

⁷³⁷ تفسير السمرقندي، بحر العلوم، 2، ص 180.

⁷³⁸ تفسير ابن عطية، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، 3، ص 272.

موقف يعقوب من أبنائه:

إخوة يُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عِنْدَمَا وَقَعُوا مَا وَقَعُوهُ مَعَ أَخِيهِمْ وَأَبِيهِمْ "لَمْ يَكُونُوا أَنْبِيَاءَ وَأَمْنَاءَ اللَّهِ وَرُسُلَهُ وَالدَّلِيلُ عَلَى ذَلِكَ أَنَّ الْكِتَابَ الْعَزِيزَ جَاءَ بِأَتَمِّهِمْ وَقَعُوا كِبَائِرَ وَصَغَائِرَ وَالْإِجْمَاعُ مُنْعَقِدٌ عَلَى أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكِبَائِرِ وَاحْتَلَفُوا فِي الصَّغَائِرِ، وَقَدْ أَقَمْنَا الدَّلِيلَ عَلَى عَصَمَتِهِمْ مِنَ الصَّغَائِرِ بِمَا فِيهِ مَقْنَعٌ فِيمَا تَقْدُمُ فَأَمَّا جَمَلَةٌ مِمَّا ارْتَكَبُوهُ مِنْهَا فَفِي عَشْرِينَ آيَةً مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى مَخْبَرًا عَنْ أَبِيهِمْ أَنَّهُ قَالَ لِيُوسُفَ عَلَيْهِ السَّلَامُ {لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ} 739 ولهذا عندما جاء أخوة يوسف لأبيهم وقالوا له ما قالوا، قال لهم: {قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} 740 ومن ثم فلم يقبل أقوالهم ولا دموعهم بغير دليل "741

سمي أبناء يعقوب بالأسباط وهذه التسمية خاصة بهم؛ فهي على خلاف تسمية القبائل كون القبائل ليس بالضرورة أن تعود لأب واحد، قَالَ تَعَالَى {وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِنْهُمْ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَّوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ} 742، وَقَالَ تَعَالَى: {وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ وَبَارَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَى إِسْحَاقَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِنَفْسِهِ مُبِينٌ} 743 وَقَالَ: {وَقَطَّعْنَاهُمْ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَّمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

739 يوسف 7.

740 يوسف 18.

741 تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حنابلة الأغبياء، ص، 138.

742 الأعراف 168، 169.

743 الصافات 112، 113.

فَأَنْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرِبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْعَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ {744} ولهذا فسماهم أسباطا وأمما ولم يسمهم أولادًا وَلَا أَبْنَاءَ. وَعَنْ النَّبِيِّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّهُ قَالَ " (الْحُسَيْنِ سَبَطَ مِنَ الْأَسْبَاطِ) فَمَعْنَاهُ أَنَّهُ يَقُومُ فِي الْعِبَادَةِ وَالْقِيَامِ بِحَقِّ اللَّهِ تَعَالَى مَقَامَ سَبَطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ } {745}، وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فِي قَسِ (إِنِّي لِأَرْجُو أَنْ يُخْشِرَ أُمَّةً وَحَدَهُ) هَكَذَا حَكَاهُ الْهَرَوِيُّ فِي كِتَابِ الْغُرَبِيِّينَ؛ فَإِنْ قِيلَ وَلَعَلَّهُمْ سَمُوا أَسْبَاطًا وَهُمْ أَوْلَادٌ تَجُوزُوا وَاتَّسَعُوا كَمَا سَمَى النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الْحُسَيْنِ سَبَطًا حَيْثُ قَالَ (الْحُسَيْنِ سَبَطَ مِنَ الْأَسْبَاطِ) وَهُوَ وَلَدٌ. قُلْنَا هَذَا التَّجَوُّزُ إِنَّمَا صَحَّ فِي الْحُسَيْنِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِسَبْقِ الْمَعْرِفَةِ بِنَبَوْتِهِ "746

وقول يعقوب عليه السلام: { يَا بَنِيَّ لَا تَدْخُلُوا مِنْ بَابٍ وَاحِدٍ وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُتَفَرِّقَةٍ وَمَا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ آبَاؤُهُمْ مَا كَانَ يُغْنِي عَنْهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا وَإِنَّهُ لَدُوٌّ عَلِيمٌ لِمَا عَلَّمْنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ وَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ } {747}. قال الزمخشري في تفسيرها: "خاف أن يدخلوا كوكبة واحدة فيعانونا لجمالهم وجلالة أمرهم" فدخلوا

744 الأعراف 160.

745 النحل 120.

746 تنزيه الأنبياء عما نسب إليهم حثالة الأغبياء، ص 142.

747 يوسف 67. 69.

متفرّقين وهذه حاجة في نفس يعقوب قضاها، وهي: شفقتة عليهم وإظهارها بما قال لهم ووصّاهم به⁷⁴⁸.

ولأنّ يعقوب نبيا كريما؛ فله ما له من الكرامات، ولذا كانت النصيحة حيث نصح ابنه يوسف عليه السّلام ألا يقص الرّؤيا على إخوته قال تعالى: {قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ} 749. قال أبو عبد الله القرطبي: "وهذه الآية أصل في ألا تقصّ الرّؤيا على غير شفيق ولا ناصح، ولا على من لا يحسن التأويل فيها" وقال أيضًا: "إنّ يعقوب عليه السّلام كان أحسّ من بنيه حسد يوسف وبغضه، فنهاه عن قصّ الرّؤيا عليهم خوف أن تغل بذلك صدورهم، فيعملوا الحيلة في هلاكه" وقال ابن كثير: "ومن هذا يؤخذ الأمر بكتمان النّعمة حتى توجد، وتظهر كما ورد في الحديث «استعينوا على قضاء الحوائج بكتمانها، فإنّ كل ذي نعمة محسود»⁷⁵⁰.

النبى يعقوب معزّ من المعزّ الأعظم تعالى، ومن هنا كانت معزّته عالية ليوسف عليه السّلام، أي عندما يكون المعزّ ليعقوب معزّا ألا يكون المعزّ هو الذي أعزّ يوسف بمحبّة أبيه، وهذا يعني أنّ المعزّ المطلق كان معزّ ليعقوب ويوسف معا.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: لا يجلّ لمؤمن أن يذل نفسه، قالوا: يا رسول الله وما إذلاله لنفسه؟ قال: يتعرّض من البلاء لما لا يقوم له"⁷⁵¹.

⁷⁴⁸ الرّوض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم - صلى الله عليه وسلم، 2، ص 473.

⁷⁴⁹ يوسف 5.

⁷⁵⁰ الرّوى عند أهل السنة والجماعة والمخالفين، ص 431.

⁷⁵¹ المصدر السابق، ص 329.

ويقول الشاعر:

اجعل لربك كل عزّ ... ك يستقر ويثبت

فإذا اعتزّزت بمن يمو ... ت فإنّ عزّك ميت752

وعليه لا تنسى نصيبك من الدنيا وأعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، وأعلم أنّه لن يُعطيك أحدا شيئا إلا وأمر الله له نافذ بإعطائك ممّا أعطاه الله، فاحمد الله وحده ولا تُقلّل من شأنك فإنّ الله قد خلقك في أحسن تقويم، وهو يريدك خليفة له في الأرض، فلا تُصعّر من نفسك أمام الآخرين، ولا تقلل من شأنك، ولا تطمع إلا في وجه الله تعالى. وأعلم إنّك لو قلت من شأنك فقد أجمت في حقّ نفسك وفقدت رضا الله عليك، فاستغفر الله وتب إليه ولا تعمل إلا ما يُرضيه، فإن فعلت ما يُرضيه فُزت مرّتين، مرّة بالاستخلاف في الدنيا، ومرّة الفوز في الآخرة (الفوز بالجنّة). ولذا لا تغفل، فإنّ الموت آتٍ وأعلم أنّك لن تموت قبل اليوم الذي كُتبت لك الموت فيه، وكن مستعدّا للرحيل وأنت فائز برضا والديك، وأنت لم تُفسد في الأرض ولم تسفك الدماء فيها بالباطل، ولم تظلم أحدا من العباد. وكن فطنا وحذرا من وسوسة الشيطان والنفس، وتذكّر لعلّ الذكرى تنفعك، {فَدَكِّرْ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى}753. وقوله تعالى: {وَدَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُونَ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ}754. وأعلم إنّما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور فلا تغترّ مصداقا لقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْرِحَ

752 المصدر السابق، 328.

753 الأعلى، 9.

754 الذاريات، 55. 58.

عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ
الْعُرُورِ {755}. وقوله تعالى: {فَلَا تَغُرَّتْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّتْكُمْ
بِاللَّهِ الْعُرُورُ} 756.

قال تعالى: {يَقُولُونَ لَئِن رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا
الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ} 757. فالذين يقولون هم المنافقون ويقصدون بالأعزّ
أنفسهم، وبالأذل يقصدون المؤمنين. وفي هذا الأمر يقول البيضاوي
في تفسيره للقرآن الكريم: "أخرج البخاري وغيره عن زيد بن أرقم
رضي الله عنه، قال: سمعت عبد الله بن أبي المنافق يقول لأصحابه: لا
تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، فلئن رجعنا إلى المدينة
ليخرجنّ الأعزّ منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي، فذكر ذلك عمي
لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فدعاني الرسول عليه الصلّاة والسّلام
فحدثته، فأرسل رسول الله عليه الصلّاة والسّلام إلى عبد الله بن أبي
وأصحابه، فحلفوا ما قالوا، فكذّبي وصدقه، فأصابني شيء . أي
أصابني شيء من الحزن . لم يُصِبي مثله من قبل، فجلست في البيت،
فقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك رسول الله عليه الصلّاة والسّلام
ومَقَّتَكَ، فأنزل الله تعالى: (ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين) أي والله الغلبة
والقوّة ولمن أعزّه من رسوله والمؤمنين" 758. ولذا فالعزّة مناصرة وقوّة
حقّ لإحقاق الحقّ وإزهاق الباطل. فمن يعزّه الله فقد فاز فوزا عظيما،
ومن يعزّه رسول الله فقد أعزّه الله تعالى وذلك لأنّ {مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ

755 آل عمران، 185.

756 لقمان، 33.

757 المنافقون، 8.

758 تفسير البيضاوي مصدر سابق، ص 744.

فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهُ {759}. جاءت هذه الآية مناصرة ومعززة لما قاله زيد بن أرقم رضي الله عنه، ولذلك فمن يعزّه المعزّ فقد اعتز، ومن يعزّه الرسول فقد أعزّه الله، ولذا فإنّ المؤمن المرضيُّ عنه، ينال عزّته من عزّة الله تعالى له، وأيضا من عزّة الرسول له صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أي أنّ الله عزّ وجلّ يعزّ المؤمن مباشرة بما يعمل من أعمال الطاعة له، ويعزّه بإيمانه بالرسول عليه الصلّاة والسّلام واتباع سنته الشريفة.

المعزّ عزّ وجلّ هو: الذي بيده الملك، والأمر والنهي، والبداية والنهاية، والثواب والعقاب. ولأنّه كذلك فهو يعزّ من يشاء متى يشاء وكيف ما يشاء سبحانه ما أعظم شأنه إنه القوي القادر.

ولأنّه المعزّ فهو بطبيعة الحال هو الخافض الرافع؛ الخافض للظلم والمظالم والحاجة والفاقة، والرافع بالإشباع والوفرة والملك والسلطان والغنى، الذي لو لم يكن غنيا ما كان باسطا للخير وما كان عليما بما جرى ويجري وسيجري، وما كان فتّاحا ورزّاقا ووهابا وقهارا ومصورا وبارئا وخالقا ومتكبرّا وجبّارا وعزيزا ومهيمنّا ومؤمنا وسلاما وقدّوسا وملكا ورحيما ورحمانا، ولذا فهو الله تعالى واحد أحد لا شريك له سبحانه.

فالعزّة بالنسبة للمعزّ بالإضافة تُطلب فتؤخذ، ويُبدل الجهد في سبيلها حتى يتم التمكن من نيلها، وكذلك يعمل الإنسان خوفا وطمعا من أجل بلوغها. فيها تطمئن النفس وتعتز دون أن تغتر. والعزّة الكبرى هي التي تؤتى من المعزّ المطلق للمعزّ بالإضافة مصداقا لقوله تعالى: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ

الْمَلِكِ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتُعْزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَنْ تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ {760}.

تدل هذه الآية الكريمة على الاعتراف والإيمان المطلق بأن الله وحده هو مالك الملك، مما يستوجب التوجه إليه بالدعاء والطلب دون التوجه لغيره، حتى تتم الاستجابة بان يؤتي الملك لمن يشاء من عباده المؤمنين المتوجهين له بالدعاء والطلب البين دون أن يُراودهم شك في طلبهم أو في استجابة الله لهم، فتتم الاستجابة من المعزّ تعالى لعدة اعتبارات منها:

. الاعتبار الأول الأحقية: كما هو حال الأنبياء والرسل الذين يصطفاهم المعزّ تعالى اصطفاً. {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} {761}. وقال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوْا} {762}. تدلّ هاتان الآيتان على ثبوت عزة الله لأنبيائه ورسله حتى يُطاعوا بإذنه وتبديل السيئة حسنة.

. الاعتبار الثاني إخلاص النية: النية هي التي يعلم أمر سرها الله تعالى وهو المتوجه إليه بالدعاء حتى نيل الاستجابة المرتبطة بصفاء النية، ولهذا فمن صدقت نيته صدقت الاستجابة معه، وما الأعمال إلا بالنيات. قال تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعَلِنُ وَمَا يَخْفَىٰ عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} {763}.

760 آل عمران، 26.

761 النساء، 64.

762 الأعراف، 94، 94.

763 إبراهيم، 38.

. الاعتبار الثالث صدق الدعاء: من يدع ربه بقلب سليم
يَسْتَجِيبُ لَهُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ. قال تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ
دُورَيْتِي بُوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ
أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ
يَشْكُرُونَ} 764. وقال تعالى: {وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ
لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي
كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ} 765.

. الاعتبار الرابع صفاء النفس: الأنفس أنواع وخيرها النفس
المطمئنة التي لا تشرك بعبادة ربها أحدا. قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا
عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِهْتِنَ مِنْ دُونِ اللَّهِ
قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقِّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ
فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ
الْغُيُوبِ} 766.

. الاعتبار الخامس ساعة الاستجابة: هي الساعة التي فيها تخلص
النية مع الدعاء ويتزامن فيها الدعاء مع الاستجابة قال تعالى: {وَقَالَ
مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا رَبَّنَا
لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا
يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا
تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} 767. وقال تعالى: {مَنْ ذَا الَّذِي
يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ

764 إبراهيم، 37.

765 الأنبياء، 87.

766 المائدة، 116.

767 يونس، 88، 89.

وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَى نُورُهُمْ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٍ
تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ {768.

. الاعتبار السادس إعطاء الفرصة: من يطلب الله بقلب سليم
يستجب ويعطيه الفرصة ويختبره إن كان قادرا على حمل مسؤولية ما
طلب ليعمل صالحا أم انه لن يكون قادرا وسيُفسد في الأرض، ولذا
فإنَّ الله يُؤْتِي الْمَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُنْزِعُهُ مِمَّنْ يَشَاءُ، أَي أَنَّهُ يُؤْتِيهِ لِلْمَصْلَحِ
وَيُنْزِعُهُ مِنَ الْمَفْسِدِ الَّذِي أُعْطِيَ لَهُ الْفُرْصَةَ وَلَمْ يَغْتَنِمْهَا وَيَسْتَثْمِرْهَا
الاستثمار الأمثل في العمل الأصح. قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا
اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} {769. وقال تعالى: {فَمَا
اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ} {770. وقوله
تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبَّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا
تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ نَحْنُ أَوْلِيَائُكُمْ فِي
الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا
تَدْعُونَ} {771.

. الاعتبار السابع النصيب من الدنيا: الله عزَّ وجلَّ خلق الإنسان
في أحسن تقويم لأجل أن يكون خليفة له في الأرض ليعمل فيها
صالحا، ولهذا خلق له الثمرات والخيرات الكثيرة ليعيش حياته ويأخذ
نصيبه منها ولا يعتدي على نصيب الآخرين الذين لهم الحق فيها
مثلما له الحق. قال تعالى: {وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا

768 الحديد، 11، 12.

769 الأحقاف، 13، 14.

770 التوبة، 7.

771 فصلت، 30.

تَنْسَ نَصِيْبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ {772}.

. الاعتبار الثامن الحمد والشكر على العطاء: قال تعالى {فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَقُلْ رَبِّ أَنْزِلْنِي مُنْزَلًا مُبَارَكًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنْزِلِينَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ {773}. وقال تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ {774}.

وباستمرارنا في تبيان أبعاد الآية السادسة والعشرين من سورة آل عمران (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتُعزُّ من تشاء وتذلُّ من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) نلاحظ أنَّ الملك جاء مطلقاً، ولم يقتصر على مُلك بعينه، فجاء جامع لكل مُلك من نبؤه وسلطان ومال، إلى الصحة والشفاء والعافية، ومن النجاة من النَّار إلى الدخول في الجنَّة. ولهذا فالمملك يدل على أي مُلك مهما عدَّدنا وسمَّينا لا نستطيع حصره.

ويؤتي الملك تعني: يُعِمُّ الله به ويرحم من هم في أشد الحاجة إليه، ولذا فالحاجة التي بها يُنال الملك لا يُقدِّرها إلا هو عزَّ وجلَّ، فيؤتي ويُمنح الملك لمن يشاء وينزعه ممن يشاء. ولذا فالقاعدة هي: (يؤتى الملك لمن يشاء ويُنزع ممن يشاء).

وإعطاء الملك ليس هو الغاية، بل الغاية تكمن من وراء إعطائه، فبالمملك يُعزُّ البعض، وبه يُذل البعض. فمن يعمل صالحاً يرضاه الله

772 القصص، 77.

773 المؤمنون، 28. 31.

774 إبراهيم، 7.

يعزه الله بملكه، ومن يُفسد في الأرض وَيَسْفِكُ الدماء فيها بغير حقّ يذله الله بملكه. ولهذا لا ينبغي أن يغتر من يؤتى أو يُوهب ملكا فالعزة دائما لله وحده. ولأنّ الأمر كذلك فإن الخليفة مهما أُوتي من ملك فهو يتقي الله ربّه ولا يشرك بعبادته أحدا.

وقوله (بيدك الخير) تدلّ على أن الخير كلّ الخير هو من أفعال الله عزّ وجلّ، أمّا أفعال الشر كل الشر فلا تأتي إلا من أيدي البشر المفسدين في الأرض، بأكلهم أموال النَّاس بالباطل وقتلهم النفس التي حرّم الله إلا بالحقّ، وبتطيفهم للميزان، ونقصهم للكيل إذا ما اكتالوا، وأكلهم للربّاء، وبكل فعل أو سلوك يقومون به أو يقدمون عليه وهو منهي عنه أو مُحَرَّمًا من عند الله تعالى.

وعليه، خص المعزّ الخير لأتّه بيده، والخير هو الاستجابة للدعاء والرغبة والتفضيل من قبل المؤمن الداعي ربّه خوفا وطمعا. أمّا الشر فهو بيد النَّاس الذين لا يُصلِحون في الأرض، ولذا فالخير والحسنة من عند الله والشر والسيئة من عند النَّاس. قال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ وَأَرْسَلْنَاكَ لِلنَّاسِ رَسُولًا وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾{775}.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾{776}. في هذه الآية الكريمة تنزيه للذات الربّانية ممّا يقوله الكفرة والمشركون، و(ربّ العزّة) ربّ المكارم والفضائل والقوّة المطلقة والخير الوفير، وربّها تعني مالکها والمهيمن عليها فلا تفلت منه أبدا، ولن تؤتّى العزّة أو تُمنح إلا منه، ولذلك في

⁷⁷⁵ النساء، 79.

⁷⁷⁶ الصافات، 180 . 182.

العزّة مناصرة وعون وسند ودعم وتأيد ومغالبة فسبحان ربّ العزّة
عمّا يصفون.

وعليه لم تكن العزّة هدفا يُنجز، بل غاية تُبلغ بالأعمال، فالعزّة
متصلة بالاستخلاف في الأرض والدوام في الآخرة، ولم يكن حالها
كحال الأعمال المنفصلة، فمن يُعزّ في الدنيا يُعزّ في الآخرة.

ولأنّ الله عزّ وجلّ كامل الصفات والأفعال جاء قوله تعالى: (عمّا
يصفون) تنزيه له عن القصور والحاجة والصاحبة والولد، ولهذا فالعزّة
صفة ذات وصفة فعل.

(وسلام على المرسلين) اعتراف إيماني بجميع الرّسل صلوات الله
وسلامه عليهم، مصداقا لقوله تعالى: {آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ
رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ
مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا عُفْرَانُكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ} 777. ولذا
فمن وجوب الإيمان بالرّسل ألا تُفرق بينهم، مع علمنا التام بتفضيل
الله لبعضهم على بعض من حيث الزمان والمكان والموضوع والغاية.

(والحمد لله ربّ العالمين) شكر بعد اعتراف وتقدير للعزّة والرحمة
الرّبانية، التي تمتد وراء كل شيء، ممّا يجعل المؤمن موحدا لله تعالى،
ومصليا ومسلما على أنبيائه ورسله صلوات الله وسلامه عليهم جميعا
الذين جاءوا بالحكمة والهداية مبشرين ومنذرين ومحرضين وفاعلين
للخير.

ولأنّ العزّة لا تتحقّق إلا بالنية والأعمال الحيرة، لذا فالمعزّ يعزّ
الإنسان بالمعطيات الآتية:

777 البقرة، 285.

. العزة بالإيمان: قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيُّ حَكِيمٌ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} 778.

. العزة بالفضل: قال تعالى: {فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُفُّوا قِرْدَةً خَاسِئِينَ} 779. وقال تعالى: {الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَى دِيَارِهِمْ فَأَتَى الْفِيلُ أُمَّةً مِنْهُمْ لِمَنْ هُمْ أَوْلَىٰ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} 780.

. العزة بالعقل: الذي به نتذكر ونتفكر قال تعالى: {وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 781. وقال تعالى: {وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 782. وقوله تعالى: {وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} 783. وقوله تعالى: {يُؤْتِي

778 الشورى، 51، 52.

779 البقرة، 64، 65.

780 آل عمران، 171، 174.

781 القصص، 43.

782 القصص، 51.

783 الزمر، 27.

الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ {784}.

. العزّة بالنعيم: قال تعالى: {إِنْ تُبَدُّوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَا تُنْفِسْكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِحْفَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ {785}.

. العزّة بالاستجابة: قال تعالى: {وَتُوحَا إِذْ نَادَى مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ {786}. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ {787}. وقال تعالى: {فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ {788}.

المعزّ، هو الذي يعزّ من في نفسه نية صافية وصادقة، وهو الذي يأمل النجاح في الأفعال الحسنة، ويأمل الابتعاد عن الأفعال السيئة، ولذا فمن يعزّ الحقّ يعزّه المعزّ.

784 البقرة، 269.

785 البقرة، 274.

786 الأنبياء، 76.

787 الأنبياء، 84.

788 الأنبياء، 88.

المعزُّ هو الذي يَهَبُ العِزَّ لمن يشاء من عباده⁷⁸⁹، والمعزُّ ذو صلة بالاسم العزيز فهو مظهر من مظاهره.

والعِزُّ من صفات الله عزَّ وجلَّ وأسمائه الحسنى وهو الممتنع فلا يغلبه شيء وهو القوي الغالب كل شيء وهو الذي ليس كمثلته شيء⁷⁹⁰.

والعِزُّ خلاف الدُّلِّ، والعِزُّ في الأصل القوَّة والشدَّة والغلبة والعِزُّ والعِزَّة الرفعة والامتناع، قال تعالى: (ولله العِزَّة ولرسوله وللمؤمنين) أي له العِزَّة والغلبة سبحانه وقال في التنزيل العزيز: (من كان يريد العِزَّة فلله العِزَّة جميعا) أي من كان يريد بعبادته غير الله فإنما له العِزَّة في الدنيا والله العِزَّة جميعا أي يجمعها في الدنيا والآخرة بأن ينصُر في الدنيا ويغلب⁷⁹¹. ومن هنا كان الاستخلاف للإنسان في الأرض عِزَّة.

الخِلافة عِزُّ:

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى

⁷⁸⁹ لسان العرب، ج 5، ص 374.

⁷⁹⁰ المرجع السابق

⁷⁹¹ المرجع السابق

وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ
 وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ
 الظَّالِمِينَ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
 بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ
 آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ {792.

فالآيات البيّنات توضح نوعاً من تجليات المعزّ لم يشر إليه الكثير،
 فأول مظهر من مظاهر العزّ الربّاني لآدم كان الأمر بالخلافة ودعوة
 الملائكة بالسجود، وتمثل ذلك في قوله تعالى مخبراً للنبي صلى الله عليه
 وسلم: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً) فالله
 المعزّ فعله كلام وعطائه كلام ومنعه كلام فهو الذي يقول للشّيء كن
 فيكون، وهو سبحانه أراد أن يعزّ آدم وذريته فأخرج آدم من تراب
 ونفخ فيه من روحه واستخلفه في الأرض وأعزّه وذريته فيها ومن عز
 الله لآدم عليه الصّلاة والسّلام، قوله تعالى: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ
 إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ
 مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا
 إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ {793 ويقول الله في نفس
 السياق: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ
 فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ
 قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ
 كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ
 طِينٍ {794.

792 البقرة 30 . 37

793 الحجر 28 . 31

794 ص 72 . 76

فقد أعزّ الله آدم إذ خلقه، وسواه وعدله في أحسن صورة وأكرمه، وأسجد له الملائكة، ولم يكن سجود الملائكة سجود عبادة بل سجود تحية لآدم وسجود طاعة لله رب العالمين، فكان للملائكة موقف استفسار واستبيان: (قالوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) فعلم الملائكة أنهم المسبحون لله الحامدون لله المقدسون لذاته، فلم هذا المخلوق الذي أعزّه الله بهذا الشرف الاستخلافي في الأرض؟ وهنا يخبرهم الله أن عزه لآدم عليه الصلّاة والسّلام لم يكن عزّ اختيار لتعمير لأرض فقط ولا عزّ من نوع جديد وهو عز العلم واكتشاف الأسرار ووضع الأسماء للأشياء التي لم تسمّ، ويا سبحان الله فمن هذا النوع وهو التسمية أن الأرض لها في كل لغة من اللغات التي يتحدث بها البشر مسمى تقترب المسميات أو تبتعد في المخارج ولكن المدلول واحد، وقس على ذلك ملايين المفردات الموجودة في لغات البشر فمن سماها وأعطها دلالتها؟ لا أحد سوى تلك القدرة الخارقة التي منحها الله لآدم في حضرة العزّة التي أعزه فيها، فقال الله تعالى للملائكة: {قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} ففضل آدم عملي خلاق فهو الذي يغير الأشياء للأجمل إبداعا بآلة العقل التي منحت له والعلم الذي يفجره لتوظيف ما خلقته على الأرض لخدمة مهمة الخلافة، لذلك فالله قال: {وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ} لذا فتفضيل آدم ليس بالخلق من الطين والسجود ولكن هناك تفضيل آخر وهو الأمانة التي حملها وهي العقل والتفكير والتحليل ووضع القواعد، أو

ما يمكن أن نسميه التهيئة والإعداد المسبق لتولي الخلافة، ومن يترجم التهيئة الذاتية لأفعال من بناء وزراعة وحفر للآبار وشق للأنهار ووضع السدود ونقش العلوم في العقول والمعارف في القلوب والسمو في الأرواح فهو الذي استفاد من التهيئة الربانية لتولي الخلافة على الأرض.

والسؤال الذي يطرح نفسه لماذا الأرض بالتحديد لاختيار آدم لمهمة الخلافة؟

الإجابة ببساطة لأنها البيئة الملائمة لإخراج التهيئة الربانية إلى أفعال من إقامة عدل وإحقاق حق وإبطال باطل، فهذه الأشياء التي نسميها نحن في الأرض ظلم وكذب وزور وغير ذلك من سلبيات ليست موجودة في عالم الملائكة ولا في عالم الكواكب والنجوم المكتشفة، إنما هي موجودة في عالمنا ومن حوّلها إلى نقائصها فهو الذي أظهر عزّ الله وظهر فيه عز الله، فالملائكة مجبولة على الطاعة هي وغيرها من الكائنات التي لم تستخلف، قال الله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} 795، (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) في الأرض، (يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَالِ سُجَّدًا)، أي يتحول الظل عن اليمن والشمال أثناء الحركة الممتدة من الشروق إلى الغروب، فذلك قوله سبحانه: {يَتَفَيَّأُ ظِلَّالُهُ}، يعني يتحول الظل، فإذا زالت الشمس، تحول الظل عن الشمال قبل المشرق، كسجود كل شيء في الأرض لله تعالى، ظله في النهار ساجدا، (لِلَّهِ) دون اختيار (وَهُمْ

795 النحل، 48 . 50

دَاخِرُونَ) صاغرون. (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ) من الملائكة، (وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ) فالكل يسجدون لأنهم جبلوا على ذلك. (ما في السماوات) من الملائكة وغيرهم وكل شيء في السماء والأرض، ووصف الله الملائكة، فقال: (وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ) فهم لا يتكبرون عن السجود لأنهم: (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) لأن الله تعالى فوق كل شيء، أي شاهدا عليهم حيث لا تخفي عنه خافية في الأرض أو السماء، (وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ) فهم لا اختيار لهم، وهنا الفرق بين المكلف بالخلافة وغير المكلف.

ولما أقيمت الحجّة في الاستخلاف كان الأمر بالسجود طاعة لله وتسليما لآدم بحقه في الخلافة لأن ذلك إعزاز من الله فسجدت الملائكة مصداقا لقوله تعالى: (وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَأَزَاهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ فَتَلَقَىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) فأطاعت الملائكة إلا واحدا ليس من الملائكة ورفض أن يعزّ الله آدم لذا فقد قال متكبرا: { قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ } 796 والمعنى الذي ورد إلى الذهن من الاسم المعزّ هو قول إبليس: فبعزتك، أي فبعزتك له علي وتفضيله بالخلافة وأنا أفضل منه فسأغويه وأرده عن الحقّ إلا العباد الذين ستعزهم وتمنعهم مني، وكان دافع إبليس في رفض خلافة آدم والسجود له الحسد والكبر، وذلك لأن إبليس، إنما وقع فيما وقع فيه بسبب

الحسد والكبر، والكفار لم يستجيبوا للنبي عليه الصّلاة والسّلام بسبب الحسد والكبر، والمستفاد من صراع إبليس ضد آدم البعد عن هاتين الخصلتين المذمومتين، والله تعالى حث المستخلفين المكلفين بالنظر والاستدلال، ومنعهم عن الإصرار والتقليد، فسؤال الملائكة عن الحكمة في تخليق البشر واستخلافه يدل على أن الحكمة الأصلية في تخليق آدم هو المعرفة والطاعة لا الجهل والتكبر، وإبليس إنّما خصم آدم عليه السّلام لأجل الحسد والكبر فيجب على العاقل أن يتعد عنها.

ولما وقع آدم في المعصية التي أخرجته من الجنّة ونزل بها إلى الأرض أعزه الله بالتوبة نكايه في إبليس، وكأن هذه المعصية كانت للاختبار ولتهيئة حتى يمارس آدم الاستخلاف في الأرض بدرية وتلقين وفطنة، ومن المعلوم أنّ آدم لم تذكر له معصية لما نزل الأرض.

وعندما انتشرت المعصية وابتعد أبناء آدم عن الوضع الطبيعي لهم في ممارسة واجبات الخلافة قال الله تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهَ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ } 797، وهذه الآية نعلم أنّ لها سياق آخر وأنها أخبرت عن المرتدين، ولكن القرآن صالح لكل زمان ومكان، ولا ضير أن نوظف معانيه بما لا يتعارض مع المعنى العام له بلا شطط ولا شطح بل بوسطية وعقلانية، فهؤلاء الذين يحبهم الله في كل وقت ومن نعتهم أن جانبتهم غليظ على الكافرين لئلا على المؤمنين يتدلّلون للمؤمنين وإن كانوا أعرّة ويتعزّزون على الكافرين وإن كانوا في شرف الأَحساب دونهم، وهم الذين

يصلحون ولا يفسدون ويصفون الدواء للداء الذي يعطل أمر الله في الأرض، ويعزون الدليل إن كان معه الحق، ويدلون العزيز إن كان عليه الحق، والله در أبي بكر خليفة رسول الله حين قال في هذا المعنى: بعد حمد الله والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم "أما بعد، أيها الناس فإنني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أزيح علته إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ منه الحق إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا ضربهم الله بالذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم قط إلا عمهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله" فقلوه رضي الله عنه: " وليتكم ولست بخيركم " من باب الهضم والتواضع، فإنهم مجمعون على أنه أفضلهم وخيرهم رضي الله عنهم "798، فمن يفعل ما فعله سيدنا أبو بكر فهو من خلفاء الله في الأرض الذين تخلقوا بأخلاق الاسم المعزّ لذا فالنصر والغلبة للأعز الذي استلهم العز من الله ولا علاقة بالغلبة والعزّة بالعدد لأن الله المعزّ يقول: {فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُمْ بِنَهَرٍ فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَنْ لَمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اعْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرَبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِالْجُنُودِ قَالَ الَّذِينَ يُظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَافُوا اللَّهَ كَمِ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتِ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أقدامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ

⁷⁹⁸ السيرة النبوية لابن كثير، ج 4، ص 493.

النَّاسَ بَعْضُهُمْ يَبْغِضُ لِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى
الْعَالَمِينَ تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ
الْمُرْسَلِينَ {799.

فقوله تعالى: (فلما فصل طالوت بالجنود) أي: خرج وشخص.
وفي عدد من خرج معه ثلاثة أقوال. أحدها: سبعون ألفاً، قاله ابن
عباس. والثاني: ثمانون ألفاً، قاله عكرمة والسدي. والثالث: مائة
ألف، قاله مقاتل. قال: وساروا في حر شديد، فابتلاههم الله بالنهر.
والابتلاء: الاختبار. ووجه الحكمة في ابتلائهم به أن يعلم طالوت من
له نية في القتال منهم ومن ليس له نية. فقال: (ليس مني) أي ليس
من أصحابي. وقوله تعالى: (إلا من اغترف غرفةً) قرأ ابن كثير ونافع،
وأبو عمرو، «غرفة» بفتح الغين، وقرأ ابن عامر، وعاصم، وحمزة،
ولكسائي بضمها، قال الزجاج: من فتح الغين، أراد المرة الواحدة
بالياء، ومن ضمها، أراد ملء اليد. وزعم مقاتل أن الغرفة كان يشرب
منها الرجل، ودابته، وخدمه ويملاً قريته. وقال بعض المفسرين: لم يرد
به غرفة الكف، وإنما أراد المرة الواحدة بقربة أو جرة، أو ما أشبه
ذلك. وقوله تعالى: (لا طاقة لنا) أي: لا قوّة لنا ولا قدرة.

فالحقّ عزيز بعز الله ومعزته لأهله وإن كان قليل العدد كما مر بنا
في القصص القرآني الذي فيه العبرة والعظة واستلهاهم المعاني، ولما قال
المغرور بالعدد والمال عبد الله بن أبي بن سلول رأس المنافقين: لِيُخْرِجَنَّ
الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَدَلَّ، فأعز الله النبي والفتنة المؤمنة، وهذا ما ترويه لنا كتب
السيرة: "فبينما الناس على ذلك الماء وردت واردة الناس، ومع عمر
بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود

فرسه، فازدحم جهجاه وسان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا، فصرخ الجهني: يا معشر الأنصار.

وصرخ جهجاه: يا معشر المهاجرين.

فغضب عبدا لله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث فقال: أوقد فعلوها؟ قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا؟ والله ما أعدنا وجلايب قريش هذه إلا كما قال الأول: "سمن كلبك يأكلك!" أمّا والله لعن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.

ثم أقبل على من حضره من قومه فقال: هذا ما فعلتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم.

فسمع ذلك زيد بن أرقم فمشى به إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام فأخبره الخبر، وعنده عمر بن الخطاب فقال: مر به عباد بن بشر فليقتله.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمّدا يقتل أصحابه، لا ولكن أذن بالرحيل.

وذلك في ساعة لم يكن رسول الله عليه الصلّاة والسّلام يرتحل فيها، فارتحل الناس.

وقد مشى عبدا لله بن أبي بن سلول إلى رسول الله عليه الصلّاة والسّلام حين بلغه أن زيد بن أرقم بلغه ما سمع منه، فحلف بالله ما قلت ما قال ولا تكلمت به، وكان في قومه شريفا عظيما، فقال من حضر رسول الله عليه الصلّاة والسّلام من الأنصار من أصحابه: يا

رسول الله عسى أن يكون الغلام أوهم في حديثه ولم يحفظ ما قال
الرجل 800.

فلما استقلَّ رسول الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام وسار لقيه أسيد بن
حضير فحياه بتحية النبوة وسلّم عليه، ثم قال: يا رسول الله لقد رحمت
في ساعة منكراً ما كنت تروح فيها.

فقال له رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: أو ما بلغك ما قال
صاحبكم عبد الله بن أبي؟ قال: وما قال؟ قال: زعم إن رجوع إلى
المدينة أخرج الأعز منها الأذل. فقال أسيد: فأنت والله يا رسول الله
تخرجه إن شئت، هو والله الذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله
أرفق به فوالله لقد جاء الله بك، وإن قومه لينظّمون له الخرز ليتوجوه
فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً.

وبلغ عبد الله بن عبد الله بن أبي ما كان من أمر أبيه فأتى رسول
الله صلّى الله عليه وسلّم، فقال: يا رسول الله إنه بلغني أنك تريد قتل
عبد الله بن أبي، لما بلغك عنه، فإن كنت فاعلاً فمُرني به، فأنا أحمل
إليك رأسه، فوالله لقد علمت الخرج ما كان بها رجلاً أبرّ بوالديه
مني، وإني أخشى أن تأمر به غيري فيقتله، فلا تدعني نفسي أن أنظر
إلى قاتل عبد الله بن أبي يمشي في الناس فأقتله، فأقتل مؤمناً بكافر،
فأدخل النار.

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: بل نرفق به ونحسن صحبته
ما بقي معنا، قالوا: وسار رسول الله عليه الصَّلَاة والسَّلَام يومهم ذلك
حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى آذتهم
الشمس، ثم نزل بالناس فلم يكن إلا أن وجدوا مسّ الأرض فوقعوا

⁸⁰⁰ السيرة النبوية لابن كثير، ج 3، ص 299.

نيامًا. وإنما فعل ذلك ليشغل الناس عن الحديث الذي كان بالأمس
من حديث عبد الله بن أبي 801.

ونزلت الآيات التي قال الله تعالى فيها: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا
يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ
سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا
يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَيَّ مِنْ عِنْدَ
رَسُولِ اللَّهِ حَتَّىٰ يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ حَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ
الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ
مِنْهَا الْأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا
يَعْلَمُونَ} 802.

فأنزل الله تعالى سورة المنافقين في تصديق زيد وتكذيب عبد الله.
فلما نزلت أخذ رسول الله عليه الصلاة والسلام بأذن زيد وقال: "يا
زيد إن الله صدقك وأوفي بأذنيك".

وكان عبد الله بن أبي بقرب المدينة، فلما أراد أن يدخلها جاءه
ابنه عبد الله بن عبد الله حتى أناخ على جامع طرق المدينة، فلما جاء
عبد الله بن أبي قال: (وراءك)، قال مالك ويلك؟ قال: لا والله لا
تدخلها أبدًا إلا بإذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتعلمن اليوم
من الأعز من الأذل، فشكا عبد الله إلى رسول الله عليه الصلاة
والسلام ما صنع ابنه، فأرسل إليه رسول الله عليه الصلاة والسلام أن
خلّ عنه حتى يدخل، فقال: أما إذا جاء أمر رسول الله عليه الصلاة
والسلام فنعم، فدخل فلم يلبث إلا أيامًا قلائل حتى اشتكى ومات.

⁸⁰¹ تفسير البغوي، ج 8، ص 132.

⁸⁰² المنافقون، 5. 8.

قالوا: فلما نزلت الآية وبان كذب عبد الله بن أبي قيل له: يا أبا حباب إنه قد نزل فيك أي شداد فاذهب إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام يستغفر لك، فلوى رأسه ثم قال: أمرتموني أن أؤمن فأمنت، وأمرتموني أن أعطي زكاة مالي فقد أعطيت فما بقي إلا أن أسجد لمحمد 803 فأنزل الله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ هُمْ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ} 804.

والقرآن الكريم فيه العزة لمن أراد العزة فقد قال الله في فضل القرآن الكريم: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ} 805 فإن الكتب التي تقدمت عليه في الزمان لا تبطله ولا يأتي بعده كتاب يبطله وهو محفوظ من أن يُنقص ما فيه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يُراد فيه فيأتيه الباطل من خلفه وكلا الوجهين حسنٌ فقد حُفظ وعزٌّ من أن يلحقه شيء من هذا، (وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ) والعزيم الثمين الذي لا يساويه شيء وهو المحبوب بما فيه من آيات تطمئن الأنفس بها، وتنير دروب الضالين إلى الهداية ودروب المستخلفين إلى الجنة.

(لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ) وذلك لأنه الحق المطلق، والحق المطلق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهو

803 تفسير البغوي، ج 8، ص 133.

804 المنافقون 5 . 7.

805 فصلت 41، 42.

كتاب الكافة الذي لا يجيء كتاب من بعده بالمطلق، والقرآن محفوظ مصداقا لقوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} 806، وقوله تعالى: {بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي تَكْذِيبِ وَاللَّهُ مِنْ وَرَائِهِمْ مُحِيطٌ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ} 807، ولهذا فهو كتاب عزيز ومن تمسك به فهو مُعَزَّزٌ.

وعليه الشعور بالعزة في طاعة الله تعالى يجعل الطائع عزيزا، والعزة بطاعة الله تجعل الطائع مُعَزَّزًا. وعلينا أن نفرق بين العزة والغرور والتكبر:

. العزة: لا تكون إلا لعزير النفس طيب الإرادة محب الخير يقدم على ما يجب الإقدام عليه ويتعد عما يجب الابتعاد عنه ويتجنب ما يجب تجنبه، وينتهي عما يجب الانتهاء عنه، ومن يفعل ذلك يكون من المستخلفين في الأرض المفلحين فيها بالعمار وأفعال الخيرات الحسان.

الغرور: الظهور بحسابات في غير محلها، وعدم تقدير للمواقف والإقدام في غير زمانه ومكانه وموضعه، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ وَأَحْشُوا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْعُزُورُ} 808.

. التكبر: مغالاة في غير محلها، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفُسَادَ وَقَالَ مُوسَى إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا

806 الحجر 9.

807 البروج 19 . 22.

808 لقمان 33.

يُؤْمِنُ يَوْمَ الْحِسَابِ} 809، وقال تعالى: {الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ
اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذَلِكَ
يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارًا} 810.

إنَّ الشعور بالعزّة المفرطة يؤدّي على الكبر والشعور بالتواضع
المفرط يؤدّي إلى الهوان والاثنان يتنافيان مع الاسم المعزّ، ولكن القصد
في أن يتنغي المتخلق بالعز بين ذلك سبيلا، فلا يكون المتخلق بالمعزّ
من تأخذه العزّة إن أخطأ بل يعود فيصلح من خطئه، قال الله تعالى:
{وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي
قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ
الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ
بِالْإِثْمِ فَحَسْبُنَا جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ
مَرْضَاةِ اللَّهِ وَاللَّهُ رَءُوفٌ بِالْعِبَادِ} 811، فلا يتخذ الإنسان موقفا غير
صحيح لمن يرشده إلى خطئه بل يجب عليه أن يعود إلى رشده
ويصلح من إحساسه المفرط بأنه على الصواب، ويتمثل بالخلق
المتواضع في رحمة من غير ضعف الذي كان يتحلى به النبي عليه
الصلاة والسلام وهو الذي أعزه الله وذلك حين أمره الله تعالى بقوله
تعالى: {واخفض جَنَاحَكَ لِمُؤْمِنِينَ وَقُلْ إِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْمُبِينُ} 812
فالرحمة فيها العز بشرط أن تكون لمن يستحقّ.

ومن المعلوم أن العزّ بيد الله يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده
الملك وهو على كل شيء قدير فقد أعزّ آدم وأذل إبليس، فقد أعز

809 غافر 26، 27.

810 غافر 35.

811 البقرة 204، 207.

812 الحجر 88، 89.

نوحا بالطوفان وأذل الكافرين بالطوفان نفسه، فقد أعز إبراهيم بالنار وهي أداة الذل للكافرين يوم القيامة، وقد أعز موسى وأذل فرعون لأن الله المعزّ بيده الملك فسخر الطوفان والنار والبحر لأوليائه وأنبيائه فأعزهم بها، وقد أعزّ الله بيته لما جاء أبرهة يهدمه أعزه بطائر قليل الحجم يحمل حجارة صغيرة فأذل أبرهة وجنوده، وقد أعز النبي محمد عليه الصلّاة والسّلام بالإسلام، ولم يمنع عزه عنا ما دمنا نؤمن بأنه المعزّ فقد علّم النبي عليه الصلّاة والسّلام سبطه الحسن بن علي هذا الدعاء فعن الحسن بن علي رضي الله تعالى عنه، قال: عَلَّمَنِي جَدِّي رَسُولُ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كَلِمَاتٍ أَقْوَهُنَّ فِي الْوَتْرِ: "اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِيمَنْ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِيمَنْ عَافَيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِيمَا أَعْطَيْتَ، وَقِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، إِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، إِنَّهُ لَا يَذُلُّ مَنْ وَالَيْتَ، وَلَا يَعِزُّ مَنْ عَادَيْتَ، تَبَارَكْتَ رَبَّنَا وَتَعَالَيْتَ" 813. فلا معز لمن أذل الله ولا مذل لمن أعز الله.

مدح الله ليعقوب:

مدح الله تعالى يعقوب عليه السلام فقال: {وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ لِمَا عَلَّمَنَاهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ} 814، وذلك لأنه عمل الأسباب واجتهد في توفيتها وهو مقتضى الحكمة، ثم رد الأمر كله لله تعالى واستسلم إليه وهو حقيقة التوحيد فقال: {وَمَا أَغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ إِنْ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} 815، وهنا أثنى الله تعالى عليه من أجل جمعه بين هاتين الحالتين العظيمتين 816 ولذا فقوله (وَإِنَّهُ لُدُو عَلِيمٍ) هو علم من علم

813 المعجم الكبير للطبراني، ج 3، ص 125.

814 يوسف 68.

815 يوسف 67.

816 الإيمان بالقدر، ص 224، بترقيم الشاملة آليا.

العليم الذي يعلم بالشيء وحاله وما يترتب عليه والأسرار التي من ورائه إنه مصدر العلم الذي تستنير به العقول وتطمئن به القلوب التي في الصدور.

ولأنّ الله هو العالم المطلق فلا تخفي عليه خافية، أمّا العلماء في دائرة النسبية كما هو حال يعقوب عليه السّلام فهم في كثير من الأحيان لا يعلمون إلّا بما شاء الله. ولذا فالعالم يؤتي العلم ولم يؤت إليه علما، والمؤمنون هم الذين يعلمون أنّ الله تعالى يعلم السرّ والجهر، قال تعالى: {أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ} 817.

العالم هو الذي يعلم بالشيء وما يترتب عليه، وغير العالم لا يعلم عن ذلك شيئا، فالذين كتب عليهم القتال لا يرون في القتال إلا كرها لما يسببه من كوارث في الحياة الدنيا، ولكن لو نظروا إلى ما سيترتب عليه لمن يقاتل في سبيل الله والدفاع عن الشرف والكرامة وعن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لعرفوا أنّ القتال على الحقّ خيرا كثيرا، ولكن الذين لا يعلمون بالمرتب على القتال في سبيل إحقاق الحقّ قد يتوقفون عند الكره الذي كان سببه القتال، قال تعالى: {كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 818.

إذا كلّما كان الإنسان في دائرة الممكن عالما كما كان يعقوب عالما كان على بينة، وكلّما كان غير عالم بما يجري كان في حاجة لمن يعلم ليستنير بعلمه في نهج العمل وتحقيق السّلام، ولذا لا يستوي

817 البقرة 77.

818 البقرة 216.

الذين يعلمون والذين لا يعلمون قال تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} 819.

وعلى المستوى البشري لو تساءلنا:

هل يمكن لنا أن نعرف المفسد من المصلح قبل أن تتاح أمامهم وأمامنا فرص للعمل التي تمكّنتنا من إصدار الحكم بموضوعية؟

بطبيعة الحال على المستوى البشري لا يمكن.

إذا هذه الإجابة مقصورة على البشر، وذلك لأنّ الله العالم يعلم بالإفساد والمفسدين قبل وقوع أفعال الفساد وهكذا يعلم بالمصلح وحاله قبل وقوع فعل الإصلاح مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْتَبْتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 820.

وعليه فالعالم الحقّ الذي يجب أن يوصف بالعالم هو من يعلم بالشيء قبل وقوعه سواء أكان ذلك الشيء فعل إصلاحيا أم أكان فعل إفساديا.

ومع أنّ الأشياء موجودة ومبررات ظهورها وتنوعها موجودة إلا أنّ العلم بها قبل وقوعها وقبل امتداد مؤشراتها مجهولا بالنسبة للبشر، ولكن الأمر للعالم تعالى معلوما مصداقا لقوله تعالى: {وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} 821. فهوى سبحانه وتعالى يعلم أمر السماء وأمر الأرض وأمر الحياة وأمر الموت وأمر البعث وأمر الحساب وأمر التواب والعقاب والجنة والنار وهو بكل شيء عليم.

819 الزمر 9.

820 البقرة 220.

821 البقرة 238.

نفس الإنسان تركيبها معقد فهي تتلَوَّن وتتعدد من حالة إلى أخرى وفقا للموضوع والظرف النفسي والزماني والمكاني، ولأن ما في النفس يعد سرا من الأسرار الخلقية إلا أن النفس وما تُخْفِيهِ اللهُ يعلمه، ولأنَّه العالم بأسرار الأنفس فهو لا شيئا مخفيا عنه ولهذا ينبغي على الإنسان أن يعلم بهذا العلم (علم العالم بما تكنه الأنفس) فهو إذا علم بأنَّ العالم يعلم حاله فلا داعي لأن يجهل أمر علم العالم بحاله (ما في نفسه) ليكون صادقا وإلا سينكشف أمره ولهذا العالم يحذرنا مصداقا لقوله تعالى: {وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَفُوٌّ حَلِيمٌ} 822، ومع أن الله يعلم ما في النفس فهو عفورا رحيفا لمن استغفره وتاب إليه واحدا واحدا لا شريك له إنه العالم ما في أنفسنا، ومن لم يحذر الله تعالى سيجد نفسه من النادمين الذين هم على مستويين:

المستوى الأول: غروري إلى الحياة الآخرة: الذين غرهم الحياة الدنيا بما فيها من مغريات وملذات في مقابل إشباع الشهوة دون اعتبار للنواهي والأوامر الربانية، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ يَا مَعْشَرَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يُفَصِّحُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّبْنَاهُمْ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ} 823.

بدون شك للظلم جنود وللعدل جنود ولهذا يولي كل بعض بعضه الظالم يتولى الظالمين (المفسدين في الأرض) والعاقل يتولى المصلحين

822 البقرة 235.

823 الأنعام 129، 130.

فيها، ولهذا لا خير من ظالم يتولى ظالمين (المفسدين) فالظالمون بما قدمت أيديهم يجازون في الدارين:

1 . في الدار الدنيا بأن يتولى أمرهم ظالم فيزدادوا تعبا وعسرا، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُؤَيِّ بِعُضِّ الظَّالِمِينَ بَعْضًا بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} 824.

2 . في الدار الآخرة، في جهنم خالدين، قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيُعْطِرَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} 825 وقال تعالى: {كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ أُولَئِكَ جَزَاءُهُمْ أَنَّ عَلَيْهِمْ لَعْنَةَ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ اِرْتَدَّوْا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفْرًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} 826.

المستوى الثاني: استغفاري في الحياة الدنيا: إنهم المستغفرون قبل الممات أي عندما تكون الفرص متاحة لهم للاستغفار كما كانت لأبونا آدم عليه الصلاة والسلام وأمنا حواء رضي الله عنها، قال تعالى: {وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ

824 الأنعام 129.

825 النساء 168، 169.

826 آل عمران 86 . 91.

هُمَا مَا وُورِي عَنْهُمَا مِنْ سَوَآتِهِمَا وَقَالَ مَا هَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَتَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوَآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ {827}.

يعقوب والدعاء المستجاب:

من المواقف التي عرض فيها كتاب الله عز وجل دعاء الصالحين لغيرهم، موقف إخوة يوسف عليه السلام عند ما تبين لأبيهم خطأ ما عملوا، وندموا غاية الندم على فعلتهم تلك، طلبوا من أبيهم نبي الله يعقوب عليه السلام أن يدعو الله لهم، فوعدهم بذلك، وفي هذا ما فيه من الدلالة على جواز التوسل بدعاء عباد الله المؤمنين "828، يقول الله عز وجل حكاية عنهم: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 829

وللترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً: (إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعْنِي بِاللَّهِ)، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي عليه الصلاة والسلام (احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ وَاسْتَعْنِ بِاللَّهِ)، وفي الترمذي من حديث معاذ بن جبل رضي

827 الأعراف 19 . 23.

828 التوسل في كتاب الله عز وجل، ص 60.

829 يوسف 97، 98.

اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ) 830.

قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِنْ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ} 831، وقال تعالى: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ إِلَهُ مَعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} 832، وَمِنْ دُعَاءِ النَّبِيِّ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - : (يا حي يا قيوم برحمتك استغيث)، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي الْإِسْتِسْقَاءِ: فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَدَيْهِ ثُمَّ قَالَ: (اللَّهُمَّ أَعِنَّا، اللَّهُمَّ أَعِنَّا، اللَّهُمَّ أَعِنَّا) 833.

وفي نموذج آخر قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: حَضَرَتْ عِصَابَةُ مِنَ الْيَهُودِ نَبِيَّ اللَّهِ، عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يَوْمًا، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ، حَدِّثْنَا عَنْ خِلَالٍ نَسَأَلُكَ عَنْهُمْ لَا يَعْلَمُهُنَّ إِلَّا نَبِيٌّ، قَالَ: "سَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ، وَلَكِنْ اجْعَلُوا لِي ذِمَّةَ اللَّهِ، وَمَا أَحَدٌ يَعْتُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، عَلَى بَنِيهِ: لَعْنُ أَنَا حَدَّثْتُكُمْ شَيْئًا فَعَرَفْتُمُوهُ، لَتَتَابِعُنِي عَلَى الْإِسْلَامِ" قَالُوا: فَذَلِكَ لَكَ، قَالَ: "فَسَلُونِي عَمَّا شِئْتُمْ" قَالُوا: أَخْبِرْنَا عَنْ أَرْبَعٍ خِلَالٍ نَسَأَلُكَ عَنْهُنَّ: أَخْبِرْنَا أَيُّ الطَّعَامِ حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ مَاءُ الْمَرْأَةِ، وَمَاءُ الرَّجُلِ؟ كَيْفَ يَكُونُ الذِّكْرُ مِنْهُ؟ وَأَخْبِرْنَا كَيْفَ هَذَا النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ فِي النَّوْمِ؟ وَمَنْ وَثِيهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ قَالَ: "فَعَلَيْكُمْ عَهْدُ اللَّهِ وَمِيثَاقُهُ لَعْنُ أَنَا أَخْبَرْتُكُمْ لَتَتَابِعُنِي؟ قَالَ: فَأَعْطَوْهُ مَا شَاءَ مِنْ عَهْدٍ وَمِيثَاقٍ، قَالَ: "فَأَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى

830 مختصر معارج القبول، ص 119.

831 الأنفال 9.

832 النمل 62.

833 مختصر معارج القبول، ص 120.

مُوسَى - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ إِسْرَائِيلَ يَعْشُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، مَرِيضًا مَرَضًا شَدِيدًا، وَطَالَ سَقْمُهُ، فَندَرَ لِلَّهِ نَذْرًا لَكِن شَفَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سَقْمِهِ، لِيُحَرِّمَنَّ أَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ، وَأَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ، وَكَانَ أَحَبَّ الطَّعَامِ إِلَيْهِ لَحْمَانُ الْإِبِلِ، وَأَحَبَّ الشَّرَابِ إِلَيْهِ آبَاتُهُمَا؟ " قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: " اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ، فَأَنْشُدْكُمْ بِاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ مَاءَ الرَّجُلِ أَبْيَضُ غَلِيظٌ، وَأَنَّ مَاءَ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ رَقِيقٌ، فَأَيُّهُمَا عَلَا كَانَ لَهُ الْوَلَدُ وَالشَّبَهُ بِإِذْنِ اللَّهِ؟ إِنْ عَلَا مَاءُ الرَّجُلِ عَلَى مَاءِ الْمَرْأَةِ كَانَ ذَكَرًا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِنْ عَلَا مَاءُ الْمَرْأَةِ عَلَى مَاءِ الرَّجُلِ كَانَ أُنْثَى بِإِذْنِ اللَّهِ؟ قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ، قَالَ: " اللَّهُمَّ اشْهَدْ عَلَيْهِمْ، فَأَنْشُدْكُمْ بِالَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَةَ عَلَى مُوسَى، هَلْ تَعْلَمُونَ أَنَّ هَذَا النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ تَنَامُ عَيْنَاهُ وَلَا يَنَامُ قَلْبُهُ؟ " قَالُوا: اللَّهُمَّ نَعَمْ. قَالَ: " اللَّهُمَّ اشْهَدْ " قَالُوا: وَأَنْتِ الْآنَ فَحَدِّثْنَا: مَنْ وَلِيُّكَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ؟ فَعِنْدَهَا تُجَامِعُكَ أَوْ تُفَارِقُكَ؟ قَالَ: " فَإِنَّ وَلِيَّيَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلَمْ يَبْعَثِ اللَّهُ نَبِيًّا قَطُّ إِلَّا وَهُوَ وَلِيُّهُ " قَالُوا: فَعِنْدَهَا تُفَارِقُكَ، لَوْ كَانَ وَلِيُّكَ سِوَاهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ لَتَابَعْنَاكَ وَصَدَقْنَاكَ، قَالَ: " فَمَا يَمْنَعُكُمْ مِنْ أَنْ تُصَدِّقُوهُ؟ " قَالُوا: إِنَّهُ عَدُوَّنَا، قَالَ: فَعِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ { قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ } 834 وقال عَزَّ وَجَلَّ { كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ } 835 فَعِنْدَ ذَلِكَ: { بَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ } 836.

وعن أبي الحُوَرَاءِ السَّعْدِيِّ قَالَ: سَأَلْتُ الْحَسَنَ بْنَ عَلِيٍّ: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - قَالَ: وَجَدْتُ تَمْرَةً مِنْ تَمْرٍ

834 البقرة 97.

835 البقرة 101.

836 البقرة 90.

الصَّدَقَةَ، فَأَلْقَيْتُهَا فِي بَيْتِي، فَأَخَذَهَا رَسُولُ اللَّهِ - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - مِنْ بَيْتِي بِلُعَابِيهَا، فَأَلْقَاهَا فِي التَّمْرِ، فَقِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لِمَ أَخَذْتَهَا؟ قَالَ: «لَأَنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لِأَلِ مُحَمَّدٍ»، وَكَانَ يَقُولُ: «دَعْ مَا يَرِيكَ إِلَى مَا لَا يَرِيكَ، فَإِنَّ الصِّدْقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رِيئَةٌ» قَالَ: وَكَانَ يُعَلِّمُنَا هَذَا الدُّعَاءَ: «اللَّهُمَّ اهْدِنِي فِي مَنِّ هَدَيْتَ، وَعَافِنِي فِي مَنِّ عَافَيْتَ، وَتَوَلَّنِي فِي مَنِّ تَوَلَّيْتَ، وَبَارِكْ لِي فِي مَا أَعْطَيْتَ، وَاكْفِنِي شَرَّ مَا قَضَيْتَ، فَإِنَّكَ تَقْضِي وَلَا يُقْضَى عَلَيْكَ، وَإِنَّهُ لَا يَدُلُّ مَنْ وَالَيْتَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ»⁸³⁷، وَفِي هَذَا الْأَمْرِ قَالَ يَعْقُوبُ: { قَالَ إِيمَا أَشْكُوا بَنِي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ }⁸³⁸.

الامتناع والتحریم:

حَرَجَ الْقَاضِي إِسْمَاعِيلُ وَعَبْرُهُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا): " أَنَّ إِسْرَائِيلَ النَّبِيَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَخَذَهُ عِرْقُ النَّسَاءِ، فَكَانَ يَبِيْتُ وَعَلَيْهِ زِقٌّ، فَجَعَلَ عَلَيْهِ إِنْ شَفَاهُ اللَّهُ؛ لِيَحْرَمَنَّ الْعُرُوقَ، وَذَلِكَ قَبْلَ نُزُولِ التَّوْرَةِ". قَالُوا: " فَلِذَلِكَ نَسَلُ الْيَهُودِ لَا يَأْكُلُونَهَا ". وَفِي رِوَايَةٍ: " جَعَلَ عَلَى نَفْسِهِ أَنْ لَا يَأْكُلَ لَحْمَ الْإِبِلِ؛ " قَالَ فَحَرَمَتْهُ الْيَهُودُ.

وَعَنِ الْكَلْبِيِّ: أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: " إِنْ اللَّهُ شَفَانِي لِأَحْرَمَنَّ أَطْيَبَ الطَّعَامِ وَالشَّرَابِ . أَوْ قَالَ: . أَحَبَّ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ إِلَيَّ، فَحَرَّمَ لَحْمَ الْإِبِلِ وَالْبَاهَا " قَالَ الْقَاضِي: " الَّذِي نَحَسَبُ . وَاللَّهُ أَعْلَمُ . أَنَّ إِسْرَائِيلَ حِينَ حَرَّمَ عَلَى نَفْسِهِ مِنَ الْحَلَالِ مَا حَرَّمَ؛ لَمْ يَكُنْ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ مِنْهَا عَنْ ذَلِكَ، وَأَتَّهَمُ كَانُوا إِذَا حَرَّمُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ شَيْئًا مِنَ الْحَلَالِ؛ لَمْ يَجْزُ لَهُمْ أَنْ يَفْعَلُوهُ حَتَّى نَزَلَتْ كَفَّارَةُ الْيَمِينِ، قَالَ

⁸³⁷ مفهوم الولاء والبراء في القرآن والسنة، ص 360.

⁸³⁸ يوسف 86.

اللَّهُ تَعَالَى: {قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ} 839، وَالْحَالِفُ إِذَا
حَلَفَ عَلَى شَيْءٍ وَمَ يَقُلْ: إِنَّ شَاءَ اللَّهِ؛ كَانَ بِالْخِيَارِ، إِنَّ شَاءَ فَعَلَ
وَكَفَّرَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَفْعَلْ" 840

وصية يعقوب لبنيه:

لقد وصى إبراهيم عليه السلام بنيه بالإسلام، وكذلك يعقوب
عليه السلام وصى بها بنيه وعهدوا بها إلى أولادهم من بعدهم، ثم إنَّ
الله بيّن صيغة هذه الوصية بقوله: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ
الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ} 841؛ فهذا
نصّ في أنّ الوصية هي الإسلام وهي قولهم: نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وبه يظهر ظهوراً جلياً أنّ الكلمة هي
الإسلام، أي الاستسلام لله بالعبودية، وقد لخص ذلك ابن جرير
الطبري بقوله (وهي الإسلام الذي أمر به نبيه عليه الصلّاة والسّلام
وهو إخلاص العبادة والتوحيد لله وخضوع القلب والجوارح له" 842.

ويقال ذات مرة نزل جبريل عليه الصلّاة والسّلام على يعقوب
عليه السلام، فقال: "إنّ الله تبارك وتعالى بعثني إليك أبشرك بأنّه قد
أجاب دعوتك في ولدك، وأنّه قد عفا عمّا صنعوا، وأنّه قد اعتقد
موثيقهم من بعدك على النبوّة" 843.

839 التحريم 2.

840 الاعتصام للشاطبي الهلالي، 1، ص 429.

841 البقرة 133.

842 الموسوعة العقديّة - الدرر السنية، 1، ص 216، بترقيم الشاملة آليا.

843 تفسير الطبري، جامع البيان ت شاكر، 16، ص 281.

دخول يعقوب أرض مصر:

انتقل يعقوب عليه السّلام بأولاده من بادية فلسطين إلى مصر بعد أن مكّن الله ليوسف عليه السّلام في أرض مصر وصار على خزائنها، أرسل إلى أبيه وأهله جميعاً أن يأتوا إليه، فأقبل يعقوب عليه السّلام بأولاده وأهله جميعاً إلى مصر واستوطنوها، ويذكر اليهود في كتابهم أنّ عدد أنفـس بني إسرائيل حين دخلوا مصر سبعون نفساً. وكانوا شعباً مؤمناً بين وثنيين، فاستقلوا بناحية من الأرض أعطاهم إيّاها فرعون مصر، فعاشوا عيشة طيبة زمن يوسف عليه السّلام. وبعد وفاة يوسف عليه السّلام بزمن الله أعلم بطوله تغيّر الحال على بني إسرائيل وانقلب عليهم الفراعنة طغياناً وعتوّاً واستضعافاً لبني إسرائيل، فاستعبدوهم وأذلّوهم، وبلغ بهم الحال ما ذكر الله عزّ وجلّ في قوله: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضِعُّ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُدَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ وَنُكِنِّهِمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ} 844.

فكان الفراعنة يقتلون الذكور ويستحيون الإناث، واستمرت هذه المحنة وهذا البلاء عليهم زمناً طويلاً، إلى أن بعث الله عزّ وجلّ موسى عليه السّلام، فدعا فرعون إلى الإيمان بالله، وأن يترك دعوة الناس إلى عبادة نفسه، وأن يرفع العذاب عن بني إسرائيل، ويسمح لهم بالخروج من مصر؛ فأبى فرعون ذلك بغطرسة وكبر، واستمرّ في تعذيب بني إسرائيل كما قال عزّ وجلّ: {وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَدْرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ، لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآهَتِكَ قَالَ سَتَقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ

844 القصص 4 .6.

وَنَسْتَجِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ} 845؛ فأخذ الله تعالى فرعون وقومه بالجدب وهلاك الزروع، وأرسل عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، ولكنهم استكبروا وجحدوا، فأوحى الله إلى موسى عليه السلام بعد ذلك بالخروج ببني إسرائيل "846.

قَالَ أَهْلُ التَّارِيخِ: أَقَامَ يَعْقُوبُ بِمِصْرَ عِنْدَ يُوسُفَ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سَنَةً فِي أَعْبَاطِ حَالٍ وَأَهْنَاءِ عَيْشٍ، ثُمَّ مَاتَ بِمِصْرَ، فَلَمَّا حَضَرَتْهُ الْوَفَاةُ أَوْصَى إِلَى ابْنِهِ يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلَ جَسَدَهُ حَتَّى يَدْفِنَهُ عِنْدَ أَبِيهِ إِسْحَاقَ، فَفَعَلَ يُوسُفُ ذَلِكَ، وَمَضَى بِهِ حَتَّى دَفَنَهُ بِالشَّامِ، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَى مِصْرَ. قَالَ سَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ: نُقِلَ يَعْقُوبُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فِي تَابُوتٍ مِنْ سَاحِجٍ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَوَافَقَ ذَلِكَ الْيَوْمَ الَّذِي مَاتَ فِيهِ الْعِيصُ فَدُفِنَا فِي قَبْرِ وَاحِدٍ، وَكَانَا وُلْدًا فِي بَطْنٍ وَاحِدٍ، وَكَانَ عُمُرُهُمَا مِائَةً وَسَبْعًا وَأَرْبَعِينَ سَنَةً" 847.

دخول اليهود فلسطين:

بنو إسرائيل هم سلالة يعقوب عليه السلام، وأنّ أول دخول لهم إلى فلسطين كان مع يوشع بن نون بعد وفاة موسى عليه السلام في التيه، وقد كان في فلسطين قبل استيلاء بني إسرائيل عليها ثلاث قبائل وهم: الفينيقيون: وسكنوها حوالي سنة (3000) ق.م، واستوطنوا المنطقة الشمالية منها على البحر الأبيض المتوسط. ثمّ الكنعانيون: نزلوا جنوب الفينيقيين، وشغلوا المنطقة الوسطى من فلسطين سنة (2500) ق. م. وهذه كانت من القبائل العربيّة المهاجرة من شبه الجزيرة العربيّة، ثمّ جاءت جماعات من جزيرة كريت

⁸⁴⁵ الأعراف 127.

⁸⁴⁶ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 47.

⁸⁴⁷ تفسير البغوي، طيبة، 4، ص 281.

حوالي عام (1200) ق. م، وكانت تسمى فلسطين، ونزلت بين يافا وغزة على البحر الأبيض المتوسط. وسمي الكنعانيون هؤلاء القوم فلسطين، وغلبت التسمية على المنطقة كلها، فأصبحت تدعى فلسطين. وحسب ما أورده اليهود في كتابهم، وما كُتب في تاريخ المنطقة، فإنّ هذه الشعوب استمرت في المنطقة، وكان بينها وبين بني إسرائيل واليهود حروب عديدة، استمرت طوال فترة وجود اليهود في تلك المنطقة.

فمن الناحية التاريخية، يتبيّن لنا أن اليهود ليسوا أول من سكن فلسطين، بل دخلوها أو بعضها واستولوا على أجزاء منها بعد أن كانت في يد هؤلاء القوم "848.

يعقوب لا يعرف اليأس:

القنوط واليأس متقاربان، وكلاهما فيه استبعادٌ لرحمة الله عزّ وجلّ وسوء ظنٍّ بالله تعالى، قال الله سبحانه وتعالى على لسانه نبيه يعقوب عليه السلام: { إِنَّهُ لَا يَيْئَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ } 849، أمّا المؤمنون فلا ييأسون من روح الله مهما بلغ بهم الكربّ والشدة؛ لعلمهم بالله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته، وقُرب فرجه، وقُرب رحمته من عباده؛ فهم لا ييأسون من رَوْحِ اللَّهِ مهما اشتدت بهم الخُطوب، وضاق بهم الحال. بل كلما اشتد الخطب عظم رجاؤهم بالله. وموافقهم في هذا الأمر معروفة، كموقف يعقوب لَمَّا فقد أولاده الثلاثة، وموقف أيّوب عليه السلام الذي بلغ منه الضُّرُّ مبلغاً شديداً، لم ييأسوا من رحمة الله. وموقف محمّد عليه الصلّاة والسلام لَمَّا أُخْرِجَ هو وصاحبه أبو بكر يوم الهجرة واختفيا في الغار، وجاء المشركون في

⁸⁴⁸ دراسات في الأديان اليهودية والنصرانية، ص 63.

⁸⁴⁹ يوسف 87.

طلبهما، ووقفوا على الغار والرسول عليه الصلاة والسلام وأبو بكر تحت أقدامهم، يقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، قال: "يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما؟ فأعمى الله أبصارهم ولم يروا رسول الله وصاحبه، كما قال تعالى {إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيًا إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} 850 ولما خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، وردوا عليه رداً قبيحا، وأغروا عبيدهم وسفاهم برميهم بالحجارة، هو ومولاه زيد بن حارثة؛ فرجع وأهل مكة كلهم أعداء له؛ فجاء من الطائف وقد قابله أسوأ مقابلة، وأهل مكة -أيضا- خرج منهم لشدة أذاهم، فقال له مولاه زيد بن حارثة: يا رسول الله، كيف ترجع إليهم وهم قد أخرجوك، قال: "يا زيد، إن الله جاعلٌ لِمَا تَرَى فِرْجًا وَمُخْرَجًا رواه عبد الرزاق" عبد الرزاق بن همام الصنعاني، الإمام الجليل، شيخ العلماء والمحدثين، روى عنه: الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويته، وغيرهما من كبار الأئمة" 851.

وهذا نبي الله يعقوب عليه السلام، لما أشد به الأمر، وتأزم الحال بفراق بنيه؛ عظم رجاءه بالله وطمعه برحمته، وقال لبنيه الحاضرين عنده: {يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوَسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَاسُّوا مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَاسُ مِنْ رُوحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} 852. وقال:

850 التوبة 40.

851 إغاثة المستفيد بشرح كتاب التوحيد، 2 ص 76.

852 يوسف 87.

{فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ
الْحَكِيمُ} 853.

وفي هذا الشأن قال تعالى: {يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى
أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ
الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} 854.

وقد عدّ النبي عليه الصلّاة والسّلام اليأس من روح الله من
الكبائر؛ فعن ابن عباس - رضي الله عنهما، أنّ رسول الله عليه
الصلّاة والسّلام سئل عن الكبائر؟ فقال: "الإشراك بالله، واليأس من
روح الله، والأمن من مكر الله". وعن ابن مسعود؛ قال: "أكبر
الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله،
واليأس من روح الله"؛ لأنّ القنوط من رحمة الله سوء ظن بالله، وجهل
بسعة رحمته ومغفرته، والأمن من مكر الله جهل بالله وبقدرته وثقة
بالنفس، وإعجاب بها، وفي ذلك تنبيه على أن يكون العبد دائما بين
الخوف والرّجاء، فإذا خاف؛ فلا يقنط ولا ييأس، بل يرجو رحمة الله،
وإذا رجا؛ فلا يتمادى به الرّجاء حتى يأمن العقوبة. وكان بعض
السلف يستحبون للعبد أن يقوي في حال الصحة جانب الخوف،
وفي حالة المرض وعند الموت جانب الرّجاء؛ فتوازن القلب بين الخوف
والرّجاء يدفع على العمل الصالح والبعد عن المعاصي والتوبة من
الذنوب، أمّا إذا اختل توازن القلب، فمال إلى جانب واحد؛ فإنّ هذا
مما يعطل حركة العمل، ويعرقل سبيل التوبة، ويوقع الهلاك" 855.

853 يوسف 83.

854 الزمر 53.

855 الإرشاد إلى صحيح الاعتقاد والرد على أهل الشرك والإلحاد، ص 72.

ولأنَّ يعقوب أب متسامح وعفو فعندما قال له بنيه استغفر لنا: استغفر لهم كما وعدهم: قال تعالى: {قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ} {856}. وهكذا هي لغة المحبة تتبادل بين الأبناء والأب، حيث قال يعقوب لبنيه: {يَا بَنِيَّ أَذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِنْ يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيَسَّسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيَّسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} {857}. أي أن يعقوب متوكل على الله وهو المستعان، {وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ} {858}، وقد يظن البعض أن الاسم ورد مطلقا فيما رواه البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه لما قال له النبي عليه الصلاة والسلام عن عثمان رضي الله عنه: "افتح له وبشره بالجنة على بلوى تصيبه؛ فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحمد الله، ثم قال: الله المستعان". والأمر ليس كذلك لأمر منها: أن الإطلاق في المستعان ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، فقد دار الأمر بين الصحابين. ومنها أن المقصود هو طلب عثمان رضي الله عنه الاستعانة والصبر على إنجاز مقتضى الوعد أخذا من قول يعقوب عليه السلام: والله المستعان. ولذلك شك أبو موسى الأشعري رضي الله عنه في قول عثمان رضي الله عنه هل قال: الله المستعان. أم طلب الصبر من الله؟ ففي رواية مسلم عنه أنه قال: "فذهبت فإذا هو عثمان بن عفان، قال: ففتحت وبشرته بالجنة، قال: وقلت الذي قال صلى الله عليه وسلم، فقال: اللهم صبرا أو الله المستعان». وفي رواية

856 يوسف 97، 98.

857 يوسف 87.

858 يوسف 18.

أحمد: «اللهم صبرا وعلى الله التكلان» يقول أبو موسى الأشعري في هذا الكلام نظر من وجهين:

الأول: قوله: الإطلاق في المستعان ليس من كلام النبي عليه الصلاة والسلام فقد دار الأمر بين الصحابيين.

قلت: نعم، ليس هو من كلام النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه عليه الصلاة والسلام أقره، ولو كان خطأ لأنكره ولرده عليه؛ لأنه عليه الصلاة والسلام لا يسكت على باطل. والسنة تنقسم إلى ثلاثة أقسام: قولية، وفعلية، وتقريرية. فالإطلاق في المستعان سنة تقريرية. والله أعلم.

فإن قال قائل: لعل النبي عليه الصلاة والسلام لم يسمع كلام عثمان رضي الله عنه.

قلت: إذا سلمنا أن النبي عليه الصلاة والسلام لم يسمع كلام عثمان رضي الله عنه، فإن الله سبحانه وتعالى قد سمعه. والله سبحانه لا يُقرُّ أحدا على باطل في زمن الوحي " 859.

حديث يعقوب مع ملك الموت:

وأخرج ابن أبي الدنيا عن الحكم أن يعقوب عليه السلام قال: "يا ملك الموت ما من نفس منفوسة إلا وأنت تقبض روحها؟ قال: نعم قال: فكيف وأنت عندي ها هنا والأنفس في أطراف الأرض؟ قال: إن الله سخر لي الدنيا فهي كالطست يوضع قدام أحدكم فيتناول أيّا من أطرافها شاء، كذلك الدنيا عندي. وأخرج عبد الرزاق، وأحمد في الزهد، وابن جرير، وابن المنذر، وأبو الشيخ في العظمة، وأبو نعيم في

⁸⁵⁹ الانتصار للسلف الأخيار، ص 57.

الحلية عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول من حيث شاء وجعل له أعوان يتوفون الأنفس ثم يقبضها منهم قال: أعوان ملك الموت من الملائكة"860.

وأخرج عن لُقْمَانَ الحَنْفِيِّ وَيُوسُفَ بنِ يَعْقُوبِ الحَنْفِيِّ قَالَا بَلَعْنَا أَنَّ يَعْقُوبَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لَمَّا أَتَاهُ البَشِيرُ قَالَ لَهُ مَا أَذْرِي مَا أَتَيْتُكَ اليَوْمَ إِلَّا أَنَّهُ يَهونُ اللهُ عَلَيْكَ سَكْرَةَ المَوْتِ"861

وقال تعالى عن يعقوب عليه السلام: {أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ المَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ}862. والحمد لله رب العالمين.

860 الحياتك في أخبار الملائك، ص 42.

861 شرح الصدور بشرح حال الموتى والقبور، ص 35.

862 البقرة 133.